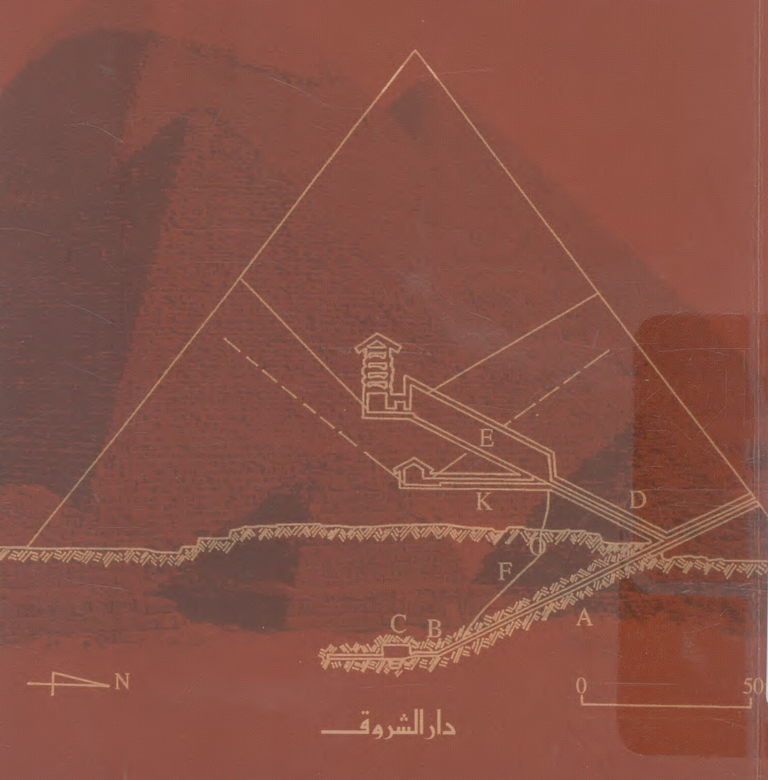
جمال الغيطانى

سفر البنيان

رواية



دار الشروق

سفر البنيان

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١١٣٢٢

ISBN 978-977-09-2415-9

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

تليفون : ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

جمال الغيطانى

سفر البنيان

رواية

دار الشروق

«لتمام الظهور... لا بد من غياب»

المحتويات

مصطلح

بــاب

تعم الأراجيف، تهتز الثوابت، يذوى ما ظنه البعض أبديًا لايتبدل، لايتغير، انعزلت الطرق التى ظلت دهوراً سالكة، يقطعها الإنسان بمفرده آمنا، إن بالليل أو النهار، لايدرى المرء ماذا يمكن أن يقع صباح غد، نواح عديدة يتعذر الوصول إليها الآن بعد أن ظلت مطروقة آلاف السنين. مقابر أبناء الآلهة نُهبت، محتوياتها تنقل إلى جهات شتى، الأسماء المحفورة فوق الجدران والصخور تُمحى، هكذا يذوى ذكر أصحابها إلى الأبد، حتى الأهرام الموصدة نفذوا إليها وعبثوا بما تضمه الحجرات الظاهرة. كافة ما وصل إلى ا لكهنة مهدد الآن، تراتيلهم المتضمنة للحقائق القديمة، وإشاراتهم الدالة على الطرق المؤدية، غير المرئية، تلك التى يصعب وصفها باللفظ، أو رؤيتها بالنظر.

إنهم الآن فى حاجة إلى ما يمكن أن يجمع النقيضين، ما يؤدى ولا يؤدى، ما يمكن رؤيته ولكنه خفى، ما يلمح ولا يصرّح، ما يومئ لكنه لايفصح، ما يظهر ويختفى فى الوقت عينه.

الأمر صعب، ومع كل سعى للنهر المعبود من الجنوب إلى الشمال تتغير الأشياء وتمحى العلامات، أيام وعرة، وقلقلة سارية، ومخاطر محدقة.

أصعب ما يواجه الإنسان فى وجوده المحدود، المؤطر بقدر، رؤيته اهتزاز كل ما نشأ عليه، هكذا تسرى الغربة، تكتمل الفجوة بين المرء وما يحيطه، ما يتحرك فيه، ما يتنفسه من هواء، ما يطالعه من وجوه

تغيب عنه ملامحها مع أنه ظلّ يطالعها عمره كله، ما يصله بالآخرين يهن، يضعف، حتى يصل إلى لحظة بعينها يتمنى عندها المفارقة، بل ويسعى إلى اكتمالها، فبتغير الأماكن، وزوال المعالم، وافتقاد الصحبة، وضياع العلامات، وتداخل الإشارات، يصبح ما يدل على الغرب جواز مرور إلى الشرق، وما جاء متماسكًا يستمر مجزأ، غير قادر على التواصل، إنه اغتراب الغربة ذاتها.

كيف يمكن صون السر والإشارة إليه فى الوقت عينه؟

كيف؟

كيف يمكن قياس الضد بغير ضده؟

الأمر صعب، وعر، لذلك سرح الحمام بالرسائل، بالمسائل، وسعى الرسل المتنكرون، الحذرون من معبد إلى آخر ومن مدينة إلى مدينة، ومن زاوية إلى أخرى، متظاهرين بالفاقة وشدة الحاجة، مختفين أحيانًا فى المغارات، بل إن بعضهم أخفى نفسه فى الماء حينًا، واعتلى قمم النخيل حينا آخر، ومنهم التائه الذى لم يُعثر له على أثر ولم يستدل على قراره، لم يتم الأمر فى يوم أو يومين، ولا شهر أو شهرين، ولا فصل أو فصلين، إنما حول إثر حول، وجيل بعد جيل، بعض من بدأوا وافاهم الأجل ولم تلح بارقة بعد، كل هذا وأحوال الديار فى تراجع، والعكوسات سارية، وما كان قائما كالنصب المهيب يتراجع نهائيًا، مؤذنًا بأفول المعانى وضياع الثوابت.

عند لحظة بعينها دعا الكاهن الأعظم رجاله، الظاهر منهم والمختفى، المقيم والسائح، ولم يكن اكتمالهم سهلاً، ولا اجتماعهم ميسورًا، خاصة وأن المعابد الكبرى منهوبة، وخزائنها متاحة منذ حين،

وصوامعها مثقوبة، وغلالها وزيوتها وسائر مخزونها طالته الأيدى العابثة. حقًا.. مما يزيد الوجود الإنسانى وعورة أن يجتهد فى الحفاظ على ما يتخلى عنه من رضعوه منذ طفولتهم، منذ مجيئهم إلى الحياة الدنيا، أن يحاول صون ما يصعب تدوينه، ما يتعرض للمحو، عندما وصل مساعدوه، المعروف كل منهم بلقب مشاهد المعنى بدأ حوارهم، حتى الآن لا توجد لوحة، أو بردية، أو مشهد يدوّن تفاصيل هذا الملتقى، ولايشير إلى المكان الذى عقد فيه، أو الزمن، بالتحديد تلك اللحظة التى وقف فيها كبير الكهنة، أو أشار إلى الحاضرين كى يصغوا، ويدققوا، ويتطلعوا، ويفتشوا ما سيطالعونه فى أفئدتهم، حتى يظهروه فى سائر المبانى الدنيوية أو الأخروية، بيت أو مقبرة، معبد أو قصر حتى فى القوارب الكبرى التى تسبح فى النيل، أو تفرد أشرعتها عبر البحار قاصدة بلاد العاج والبخور، أو الموانئ الجالبة لخشب الأرز والصندل والعنبر واللبان والزهور النادرة التى تنبت من الرمال القصية، وتلك الطالعة فى الثلوج القطبية.

لايعرف أحد الوضع الذى اتخذه قبل أن يكشف عن ملامح ما توصلت إليه الأفئدة، ما جسّد رغبة الحفظة، البررة، خلال زمن الاضطراب، وتبدل الأحوال وانقلاب كافة المعايير.

لايعرف إنسان مهما أوتى من ثقابة البحث، ودقة النفاذ، النقطة التى سدد إليها البصر، أو الترتيل الذى تمتمه أو علا به صوته قبل أن يفضى إليهم بنتاج البحث، وثمرة الكد، ومستودع الحقائق، ومثوى المعانى والرموز، والعلامات كافة، لن يطلع مخلوق على وصف لملامح شهود المعنى، إلى تلك المساحة المحددة شخصوا ذاهلين، متعجبين، وانتقلت دهشتهم عبر هذه اللحظة من جيل إلى آخر، ومن

عصر إلى عصر، وتخللت حقب تبدلت فيها الملامح، وأقام الغرباء فى الوادى، وتمكّن بدو الصحراء الرحل من بلاد الخضرة والماء الوفير والظلال المتوارثة، لكن ما أشار إليه كير الكهنة، ما كشف عنه الستار فى ذلك الزمن القصى، المندثر، ذاع وانتشر واتخذ أشكالاً عديدة وهيئات مختلفة. قال إن الأزمنة أودعت الخلاصة هنا، وأن واحداً فقط، لو أدرك إنسان ما السر، الكلمة العظمى، القصوى، فيمكنه النفاذ بمفرده أو يتبعه قومه والعبور من كون إلى آخر، من وجود إلى وجود.

قال كبير الكهنة إن كثيرين لم يولدوا بعد، سيمثلون أمام الباب الوهمى، ويتساءلون، ويجتهدون، ويبذلون الطاقة، وربما يشرف بعضهم على المعنى الكامن، تماما كما ستجىء لحظة يمكن للأحفاد أن يدركوا القصد الحقيقى للأهرام، والمسافات التى قطعتها أصداء النقوش فى آفاق الكون المنظور، لكن هذا الباب الوهمى، الماثل، الخفى، الظاهر، الممحو، الحاض، الصاد، الداعى، الناهى، المشجع، المحبط، السهل، المستعصى، الواقع، الملموس، والإشارة المحوية، الحاوية.

الباب الوهمى..

إنه ذروة التفتق، ومجمع المعانى، عين الوصول، لن يدرك ويفهم ويستوعب، بدونه لايمكن لأى إنسان فهم ولو قبسًا يسيراً من الخبيئة العظمى، السارية، المخفاة فى الأكون كافة، والظاهرة الجليلة لمن يدرك ويستوعب.

حكـايـة

خبيئة

أربعون يوما استغرقها الاحتفال بتمام الشأن وانقضاء الأمر، من مسيرة سبعة أيام يمكن للساعين، القاصدين رؤية التضوى المتلألئ، بل وقراءة الحروف التى يعكسها نور الشمس وضوء القمر وخفقات النجوم، لاتغيب عن الناظر قط، يمكن لكل حصيف أن يقرأها كما يريد، أن يأتيها من كل جهة يحدّث بها قلبه، هذا من أسرار الأهرام الكبرى، وما يتعلق بتلك الكتابة التى تكسوه من الجهات الأربع، وتحوى ما تحوى، بعد تمام الغروب بذهاب «رع» إلى بيت الأبدية بدأ ابن الشمس، خنوم خوف، رحلة عودته إلى مقر إقامته والذى يمكن فى أى موضع منه رؤية الهرم، بدأ التحرك محمولاً على المحفة المقدسة، مستقرة فوق أكتاف اثنى عشر من مشاهدى المعانى والحقائق يتقدمهم حراس القصر، صممت بحث تستدير تلقائيا صوب البناء الأعظم، يعقد يديه أمام صدره، إحداهما تمسك بعصا تنتهى بالصل، والأخرى بالنحلة الذهبية. تتوالى عليه قراءات القوم فى الأزمنة التالية، ما يتخيله يراه، قليله مُرض وكثيره ممض.

الحروف تصعد فى الفراغ، تمتزج بأنفاسه، بصور ذاكرته..

نقطة بيضاء مترجرجة.

إنها العلامة.

يغمض عينيه مضطراً، الحروف حوله، فوقه تحته، محومة، غير متكثة إلى بنيان، تتراقص عبرها تلك النقطة التى يعرف معناها،

ويدرك مغزى مجيئها، يلوح غثيان يصحبها دائمًا، تظهر نقطة أخرى، ثالثة، رابعة، بعد لحيظات تتلاحم، تتصل، تختفى المرئيات، تتقلص المساحات ليبدأ الصداع العنيف، الموجع، يطبق على رأسه، يخلو إلى نفسه فى غرفة الليل، لاينفذ إليها شعاع ضوء، هذا ما أوصى به كبير الكهنة، والعالم بمداواة الآلام.

لايمكنه ذلك الآن، ليس أمامه إلا التماسك، والجلد، كل خطوة منه مرصودة، مراقبة، مصانة فى عيون الآخرين، إنه يوم التمام، ذروة الفيض والفرح العام والخاص، ما سيبقى لمن يجيء بعد أن يفنى، كل من عرف المشاهدة الختامية مجرد إشارات، علامات دالة، تماما كحروف الكتابة المنفصلة عن بعضها، كل منها علامة حاوية فى حد ذاتها لكنها غير كافية، كل حضور يبدأ بإشارات كذا ينتهى عبر بوارق خاطفة.

ما يبدو جليا، ساطعًا الآن سيلوح يوما غامضًا، مدينا للأحاجى منتسبا إلى الألغاز المحيرة، غير أن الشأن تحقق.

لايمكنه إغماض عينيه، تتسع الرجرجات البيضاء، ابن الشمس مضطر إلى إبقاء عينيه شاخصتين، كافة ما يصدر عنه مرصود الآن، غدا يشيع فى الوادى، فى أماكن تناول المياه الطاهرة.

حقًا.. مهما اكتملت المعرفة سيظل باستمرار ما يصعب إدراكه، رغم كل ما تم فضه من أسرار بين الروح ـ الجسد ـ فى تلك الدنيا، يبقى ما يستعصى على الفهم ولن يدرك إلا لمن يبلغ المدينة هناك عند الغرب، أطباؤه مطلعون على مسارات الدماء فى شرايينه، مقاديرها، فى كل لحظة، يعرفون الفرق بين الدقة والدقة، يظن الجهلاء أن كل دفقة من القلب تشبه ما سبقها أو ما يلحقها، لكن جوهر الحقيقة مغاير،

مختلف، إنهم مطلعون على اتصال الأنفاس وترددها منذ بدء النبض في الرحم الأصغر، وحتى تمام الصمت المصاحب للخروج من الرحم الأكبر، لكنهم لم يقدروا بعد على إنبائه بحلول تلك النوبات.

باستمرار، سيكون ما يستعصى على الإدراك، وأوله.. تلك الأهرام، بتمام ظهورها يكون الاختفاء، بدء السعى إلى بلوغ الحقائق، المكان القصى، والزمن المستحيل، درءاً لحماقة الأحفاد، وجهل القادمين، الذين سيسعون بغير علم.

لو يخلو إلى نفسه الآن، يفتح عينيه أو يغمضهما لافرق مع اكتمال العتمة، لايمكنه الجهر، لو أقدم سيُعد ذلك نذير شؤم، ويقترن ذلك بالغرض من البنيان وعندئذ لايعلم أحد ما تصير إليه الأمور، ربما يتصدع مجمع الأسرار، وتتوقف الخبيئة عن السعى فى فضاء الكون، يبطل التذرى، ستبدو الحروف فى سماء المدينة عند الغرب، لن يبلغها أى إنسان.. ليحتمل، ليحتفظ بوضعه حتى مع بلوغ النوبة أصعب مراحلها، تلك ليلة مفردة، تتوالج أمام عينيه الدوائر والمويجات المتداخلة، تحجب عنه المرئيات، يدركه الغثيان، ينذر الآن يوماً بأكمله يقضيه أمام الباب الوهمى، الباب الذى لايؤدى إلى شىء، ويؤدى إلى كل شىء. جوهر السر، وصوانه المتين، ما لن يقف عليه مخلوق قريب أو بعيد، إلا بالرمز، الباب المفتوح، المغلق، الواضح، الخفى، معجزة أبناء حورس الحقيقية ولغزها المكنون، سيبهر الأهرام العابرين، غير المدركين، ولكنهم لن ينتبهوا أبدا إلى تراث الحكمة المتاح لكل عابر، والممتنع أيضاً.

يضغط أسنانه إذ يبدأ خفق الألم.

عندما شكا فى صباه ما يعانيه لسيد الحكماء، استفسر منه عن بدء

الأعراض، قال إنها تعد أعتق صورة، لاتسمح صمامات ذاكرته لها بالانزواء، إنها قرينة رحلته فى الحياة الدنيا، تطلع إليه سيد الحكماء صامتًا، يود لسانه أن ينطق: كيف احتمال تلك الأوجاع؟ غير أنه يلزم، لايبوح، لاينطق، كيف لابن الشمس وحفيد أضواء النجوم وصهر الرياح أن يجأر بالشكوى كطفل لا يعقل؟ لايكون البوح لمن يمثل فى مجمع الأسرار.

يشخص الآن إليه، بصره مشوش غير أنه مدرك لحضوره الهرمى الشاهق، سيرحل المجمع من دورة فلك إلى أخرى، سيمثل طويلاً، ولكن إلى حين، ما من بنيان إلا ويدركه صدع، وما من شجرة معمرة تخضر أو تثمر أبدًا، سيحارون فى أمره وتتعدد التفاسير، وسيحاولون الولوج إليه حيلة وعنوة، سيطوفون بسراديبه وممراته، بحثا عن الخبيئة الظاهرة، وتغيب عنهم الخبيئة العظمى، المتدثرة بتلك الحروف، المنبثة فى هذه الكتابة، عند اكتمال سريانها قاصدة مصادر الضوء، ومنبع كل الرياح تمحى، سيشغل البنيان كافة الأحفاد، من كل فج زمنى، سيتحيرون، ويتباهون، ويسرقون حتى رفات الأجداد، لكنهم لن يمسكوا إلا بالنفايات المتبقية المستخلص منها كل سر.

ما يشمخ الآن قائما، محاطا بأفواج قدمت من كل فج، ما يبدو الآن جليا، صريحًا، سيبدو لغزًا، معظم من يحتفلون الآن، أو من سيجيئون بعد أزمنة نائية، أو يفدون من عوالم شتى، لن يدركوا الجوهر، إلا إذا وقفوا على الأسرار المبثوثة، ولن يتم ذلك إلا بعلم طائل، وجهد عسير، الأمر جلل، وما تم تحصيله لابد من حفظه مصونًا لمن يدركه وإلا جرى محو لما أمكن تجميعه عبر أزمنة صارت إلى فناء.

من حقة أن يزهو، أن يشب، وما بداية النوبة إلا علامة على تصاعد

موجه، يعرف ذلك عبر أيامه، دائما تعقب نوبات فرحه أو شجنه الغامض، أو اجتهاده العام، ما تم أمره الليلة عصى على الأجداد من قبل وسائر الأحفاد من بعد، الفكرة قديمة، لاكتمالها أوان، عمل اجتهد في إتمامه، عندما أطلعه سيد الحكماء على النبوءة القديمة هاله ما أصغى إليه، من يتصور اكتمال الغربة يومًا، وتيه الآلهة وضياع الحقائق، امتداد الأيدى الجاهلة بآلات الهدم إلى ما يركع أمامه القوم الآن، الانتهاك، السخرية، من المعارف المستقرة لكل ما توصل إليه خدام الشمس، وسدنة الضوء، فزع من تدنى الأحفاد في عصور لاحقة، عرضهم الأجساد المقدسة أمام الغرباء، هكذا نذر جهده وأوقف كل طاقة لإتمام مجمع الأسرار، وصيانتها وإطلاقها فى رحم الكون، كما جرى التمويه على الأحفاد الفسقة، والغرباء الفجرة، الجهلاء العمى، المقيمين منهم أو العابرين، كل ما سيرونه ويقفون عليه ويتباهون به مجرد بدائل لبنايات وفنون وعلوم جرى إخفاؤها بحكمة حكيمة فى تلك الحروف، لن يدركها إلا من يبلغ المدينة أو يعبرها، سيعثر السذج، الغفل على الممرات والسراديب التى لاتؤدى إلى شيء، وتلك الموصلة إلى الحلى، وقلائد الذهب، والتماثيل والأوانى، والمعادن، وحبات الفيروز، ونفائس الدر، والأدوات، ولفائف البردى، يبيعون ما يصل إليهم بثمن بخس مهما غلا، ويستبيح الصعاليك ما يستقر بين أيديهم، سيضعون المؤلفات، والشروح والتفسيرات، ولن تنجلى الغشاوة عنهم أبدًا وهل يدرك الطفل الغرير أن اللعبة التى يمنحها انهماكه كله ما هى إلا وهم؟ أما الأسرار الجمة والحقائق المفضية، فقد جرى حفظها وتمويهها وترميزها وإطلاقها ليتم تشبع الفضاءات المتواجة بعد ألف ألف دورة يكتمل عندها القمر، إذا بلغ القوم مدينة الغرب؟ أولئك السعداء، الكُمل الذين يمضون طويلاً

وربما ينتظرون أوقاتًا بطيئة أو سريعة فى النزل حتى عبورهم النهر العميق، حتى اجتيازهم القنطرة، أولئك المحظوظون البررة يمكنهم فك الرسائل السارية والتى لن تكف الأهرام عن بثها حتى تختفى سائر الحروف منه، من مجمع الجهات الأربع والجهات الأربع، ألايستحق ذلك زهواً رغم قسوة النوبة.

اضطراب فى الأمعاء يسير، لن يقدر مشاهدو المعانى على إبطاله أو التخفيف منه، يتماسك مبقيًا على وضعه، تمضى المحفة تماما كما خطط مدبرو الحفل ومنظمو الشعائر، يؤلمه بقاء عينيه مفتوحتين، لكن لابد له من دوام التحديق صوب مجمع الأسرار، هرم الحقيقة، البيت الأكبر لكل جلوة، لابد من استمرار النظر حتى مع اكتمال الغشاوة الناصعة، تحجب عنه مجمع الأسرار، بدء الليل صعود الكتابة، بعد حين مقدر تظهر أولى الحروف فى سماء مدينة الغرب، عند تمام الاندماج يبدأ التشظى، عند ذروة الوضوح تمحى الحروف لكن يبدأ صون المعانى.

يشخص محتفظًا بالجهة متشبثًا بالاتجاه مع انحسار كافة المرئيات، يعرف أن كل عمارة مهما بلغت من الإتقان فثمة نقط ضعف كامنة، غير بادية، لكن هذا البناء ليس عمارة، إنه توق، إنه تذكرة، إنه مسعى الحروف التى ستبقى بعد فناء كل شىء عند بلوغ تلك الذروة، هناك حيث يمكن إدراك مدينة الغرب.

حكايـة

ريـــاح



لم يتعسف الفرعون المتسائل ـ كما عُرف فى العصور المتأخرة ـ ولم يظهر سطوة، أو قدرة غشومة، عند طرح استفساراته وافتراءاته ورؤاه على كهنة آمون، حفظة العلوم القديمة وما يستجد منها.

هو أول من طمأنهم وهدأ خواطرهم، عندما بدأ يطرح أسئلته، ويسفر عما يشغله، هو أول من قال إن السؤال معرفة، يكفى النطق به، فذلك يعنى الاستدلال على الموضع المستعصى، وبداية الحل، أول خطوة نحو اتخاذ موقع ثانى اثنين، وتمام عبور البرزخ الفاصل، غير أنه كان معنيًا بالإجابة، لكنه قال وأمر بنقش ذلك على جدران غرفة رقاده الأبدى، حيث يكتمل غيابه هناك، ليظهر فى أفق الأبدية، تماما مثل العمارة المتقنة، فما نراه منها يستند إلى مخفى غائب، وقد فصلنا ذلك فى الحديث عن الأساس وهذا مصطلح وعر يصعب التحقق من سائر جوانبه، والنفاذ إلى كافة أغواره، إنما أوردنا منه ما قدرنا عليه، ولكن بالتمعن ربما يبلغ من يسعى بعض الأسباب، وهذا ما كان يردده الفرعون المتسائل حور محب القديم، هو القائل إن الحياة أساسها غياب، ولو اطلع البصر على الجنين فسيفنى، وبعد الميلاد يصبح شرط الحياة فى الغياب نقيضًا لتمام الظهور واستمرار التوالى حتى يتم الرحيل الأبدى، وما بين اختفاء ندرك بعضه حيث يستقر الجنين وغياب نجهله يكون له التجهيز يجرى السعى، تماما مثل العمارة، فكل بناء إلى اختفاء مهما طال ظهوره.

فى ليلة من ليالى الشهر الأول لفيضان النيل من السنة السابعة

تساءل والمجلس منعقد، مكتمل، وهذا مجلس أمره ذائع وظل معروفًا بما يجرى فيه حتى العصر الرومانى، وأخذ فلاسفة اليونان الكثير مما تردد داخله عندما كانوا يجيئون إلى معابد آمون ومنف وأبيدوس وطيبة ويقعدون أمام الكهنة القدامى صامتين، متلقين لاغير، كثير منهم حفظ بعض ما قيل فى تلك الليالى المنطوية، الغائبة، صعب استعادة ما فيها، لكن بانطوائها ظهر ما نوقش فيها واكتملت خطى من المعرفة.

قال الفرعون المتسائل ـ حور محب ـ: من أين تجىء الرياح؟

فلما تطلعوا إليه صامتين، حائرين، مضى موضحًا: هذه النسيمة التى مستنا الآن، أين نقطة بدايتها، وأين نهايتها؟

من أين تبدأ حركتها، وإلى أى مدى ستمضى حتى تكف تمامًا؟

قال كبير الكهنة: أفصح، فسر، زادك آمون حكمة ودعة.

قال الفرعون المتسائل ـ حور محب ـ هل يمكنكم إقامة عمارة للريح؟ إنما أريد بناء تسكنه ريح الجنوب، وآخر تأوى إليه رياح الشمال، وثالثًا نمسك فيه بالخماسين، ورابعا وخامسًا وسادسًا وسابعًا يمكننا أن نستضيف فيه النسمات النهارية، والهبوبات الليلية، ونستحضر ما يجىء ملامسًا موج البحر مصحوبة بزرقته.

قال كبير كهنة آمون، مسموع اللفظ، عمدة التحقيق وبداية التمام.

«وكم تمهلنا لبلوغ تلك العمارة يا ابن حورس المحلق أبدا».

قال الفرعون المتسائل ـ حور محب ـ:

«بقدر اجتهادكم..».

كم مضى على تلك الليلة من ليالى الشهر الأول لفيضان النيل من السنة السابعة لتولى الفرعون المتسائل ـ حور محب ـ موضع الرائى، المجتهد؟

مصطلح

حامل ومحمول



كل بناء من حامل ومحمول، ليستمر التركيب ويتصل، لابد من تحميل شيء على آخر، حجر على حجر، خشب مقطوع بحسبان يتعامد أو يتصل بآخر، نحت يفضى إلى نحت وربما يقع انقطاع يتم بعده استئناف ورحيل، فما دام الأمر احتوى على حامل لمحمول فلابد من حركة، لابد من انتقال، لابد من سفر، فالتحميل لايكون إلا عند الرحيل. من هنا فإن كل حامل ومحمول تأهُّب لمغادرة، وكل بناء يبدو للأحداق العوابر ثابتا، جامدًا، إنما هو فى حركة، طالما أن جزءا منه محمول على آخر، نرى العمارات الشاهقة ثابتة، راسخة، غير أنها ماضية، من سفل إلى علو، ومن لحظة إلى أخرى، ومع حركة الكوكب حول جرم الشمس: فما كان عنده صباح اليوم لايكون هو نفسه لحظة غروبها، ولهذا تفصيل آخر وأسفار مغايرة، لكن ما نؤكد عليه أن الحامل إذا أفضى إلى المحمول فلا بد أن تصير حركة حتى وإن لم تبد، لكن نتائجها ربما تلوح عند لحظة ما، لايمكن تعيينها، لحظة تحميل الحامل على المحمول. وإن كان التنبؤ بها ممكنًا إذا رصدت الشواهد وفحصت الأسباب.

لا يمكن للحامل أن يظل حاملاً إلى الأبد، ولا يمكن للمحمول أن يستقر ممتثلاً لوضعه، هذا من ناحية، من جهة أخرى فإن الأمر نسبى، ما نراه حاملاً، ربما كان محمولا فى اللحظة نفسها، لننظر إلى العمد الشواهق، مختلفة التيجان، فى الكرنك ومعبد الأقصر وأبيدوس وسائر البرابى الباقيات وأعمدة المساجد والكنائس والمبانى الشواهق،

إنما تبدو حاملة للأسقف أو القباب، أو الطوابق المتوالية، كل عمود وحيد، كل عمود منفرد، منغرس فى الأرض فهو من هذه الناحية محمول، رغم أن كافة الشواهد تقول إنه حامل لما فوقه، وما فوق ينوء بثقل آخر، ما من بناء إلا ويفضى إلى آخر، لذلك تتأكد الحركة ويستمر الانتقال، من جدار إلى سقف، من مدخل إلى ممر إلى فناء، من مربع مستقر إلى قبة دائرية شاهقة، أمرها جلل، تلخص مهابة أروع القباب المتنقلة إنما الزرقاء المرصعة بالغمام، وبالنجوم السوامق ليلا، التى تؤكد لنا أن الأمر دائرى، ما كان دائريا يعنى أن أى نقطة فيه بداية وأيضا نهاية، لأن النقطة إذا لم تتصل بالنقطة فلن تكتمل الدائرة أبدا، ولن تظهر، البداية نهاية والأمر بضده، لذلك كان الحامل محمولا فى الوقت عينه.

ومن الأمور الصعبة اختلاف الحامل عن المحمول، فإذا كانت الجدران مربعة والقبة دائرية، كيف يلتقيان، كيف يولد المستدير من المربع؟

لاشىء يستعصى إذا قصدنا الرحيل، لا شىء يحول إذا بدأ الانتقال، لذلك كان التدرج البطىء مرغوبًا، وفيه حل. وقد رأيت حلولاً شتى، منها مقابر البجوات حيث يجرى الانتقال عبر الميل المحسوب وربما استوحى المعمارى ذلك من فراغات الصحراء الشاسعة التى لايحدها حد وتبدو حاملة للسماء، والسماء حاملة للنجوم، والحقيقة أن ما تدركه الحواس ليس كما يلوح للمعاين، الظاهر، وفى تيجان الأعمدة اللوتسية، والمستوحاة من دلال النخيل حلول شتى أدت إلى ما يعرفه القوم بالمقرنص حنيات متداخلة، متصلة متراكمة فوق بعضها، منتظمة كخلايا النحل، تبدأ بواحدة، ثم ترحل لتصبح

ثلاثة فخمسة فسبعة، ومع كل انتقال يجرى ميل إلى أن تنطلق القبة صوب المركز القائم على فراغ، وهذا من أبلغ الحلول وأبسطها.

هذا كله متعلق بالحامل والمحمول الظاهر للمعاين، المتفحص، المتابع، سواء اتصل أمره بالبناء مباشرة أو انفصل، أما أصعب ما كان مستعصيًا على الظهور، سواء فى بناء أفقى أو رأسى، لكن فى كل الأحوال يمكن التمييز بين هذا وذاك. بحيث يصح التعيين، هذا حامل وذلك محمول، عدا الإنسان فى سعيه، إنه الحامل المحمول، تدركه الحواس صامتًا أو ناطقا أو ضاحكا أو شجيًا، فيخيل إليها أنه ماثل، إما حامل أو محمول، فى الظاهر، لكنه كلاهما أو إذا اكتمل الحامل والمحمول وتعاشقا مندمجين فإنهما منفصلان حتمًا، مهما دام الحفظ وتمكّن الصون.



حكايـة

عاقبـة



في السنة الألف بعد بناء مجمع الأسرار الذى صار معروفًا للقاصى والدانى ومزاراً لكل عابر، غريب، جرى احتفال مهيب تُليت فيه التراتيل العتيقة.

وجرى النطق بالحروف الحامية، ومشت الأرتال تترى وسجد الكهنة ومشاهدو المعانى.

بعد إمعان وطول تقص، أيقن ابن الشمس، ربيب النجوم، والملم بالأفق، حورمحب، الفرعون الأعظم المتسائل، أن كل بنيان مهما بلغت متانته، وبراعته صائر إلى محو، إلى اندثار. أن كافة ما يقوم حوله، ما يتحرك خلاله، ما يحتجب خلفه، ما يحيره، ما يظهر من خلاله، كل ما يقع عليه البصر لا بقاء له. وعند لحظة معينة سيتوارى كل شيء. طال انتظارها أو قصر.

ألم يتنافس من سبقوه فى ترميم ما تصدع، ما تقشَّر، ما بهت، ما تساقط من أحجار أو طلاء، ليس من واجهات المعابد، والساحات المقدسة، إنما من الأهرامات ذاتها. من حروف الكتابة المقدسة التى خطها الأجداد لتحمى البر وتحوش غضب النهر، وأخطاره، وكل مكروه. لكنها لم تمنع عن مداد أجسادها الذبول.

مايرتبط بالبنيان من حكايات صغيرة، ورواية أحداث، أبقى وأشمل من رص الأحجار وضبط الزوايا، والحد من حرية الميل، وصون القدرة على الارتفاع!

رغم قناعاته التى لم يفصح عنها، ولم يشرع فى تقليبها، وتفحصها إلا أثناء أسفاره فى البرارى، خاصة إلى الواحات الغربية، حيث يدنو المرء من حافة الأبدية، كذلك عند ركونه إلى الراحة خلال رحلات الصبر، لاشىء يخفى على الكهنة والمرتلين فى المعابد المقدسة. والمقاصير، وعقب الحفلات الطقوسية. كذلك مشاهدو المعانى.

الجهر بها عنده تجديف لايدرى عاقبته. ولا يمكن لمؤمن حق أن يخطر احتماله بذهنه، فليحذر، مكانته لاتقى، وكل أفق له حد. ما استقر داخله رغبته فى بقاء ذكره، تماما كأسلافه المقدسين، كأى عابر بهذا الكون، فما ثمة إقامة، ترديد الاسم يعنى بقاء صاحبه، لكن . . إلى متى؟ إنه يود استمرار نطق الألسنة به، البناء قد يمحى يوما اسم بانيه، أويكتب مجهول - لم يبذل جهداً فى تشييده ـ ألقابه عليه، ما يعنيه التفاصيل المتعلقة بالبنيان، وليس العمارة ذاتها، أما مدينة الغرب فلم يرد منها خبر يقينى.

ما الباقى؟ إنها الحكاية، لو انتقلت من عصر إلى عصر، من ناحية إلى أخرى، يمكن بلوغها الأقاصى مع الرحالة والتجار والصيادين والباحثين عن مواضع لم يبلغها بشر بعد، كيف؟

أمعن وتفحص وخلا بذاته كثيرا. لم يفكر على الإطلاق فى محاكاة مجمع الأسرار فلم يشيده الأجداد لتخليد الذكر إنما للاطلاع على الحقائق، وها هى ذى الفضاءات العليا مستمرة فى احتوائها إلى حين مقدر.

ما يريده مغاير، مجانب للطرائق، للقواعد المعمول بها، لما يعكف عليه الطلبة ليالى متوالية. ودورات عدة من فيضان إلى فيضان إلى فيضان، استدعى كبير المهندسين، سيد البنائين، أول من يخط

التفاصيل الأولى فى القاعات، ويحدد المداخل والبوابات وأشكال الأعمدة قبل مفارقة مراقدها فى المحاجر الجنوبية المطلة على النهر الأبدى.

«ما أريده عمارة لم تخطر على ذهن ولم يحدِّث بها بشر. . ليس مهمًا الحجم، لا يعنينى كبرها أوصغرها، المهم فرادتها، أن تكون موضعًا للاحاديث بشتى الألسنة. . ».

له أفق الطلب ولمن يواجهه حدود الإجابة، لكم تساءل ولكم أصغى إلى ما قالوه، وحتى الآن يبدو السؤال الناتج من معاناة وحيرة أصدق وأدل من كل جواب.

بعد إطراقة ذات أصداء، تماما كلحظات صمت الطبيب قبل إفضائه بالنتيجة للمريض المتلهف، قال سيد البنائين إن ما يطلبه آمر العالم، ليس باستطاعته ،إنما يحتاج الخيال إلى انطلاقة حية، وهذا يقتضى استعانة بالغض، الأخضر ،الذى يتبقى أمامه أكثر مما مضى وراءه، مع وفرة الإمكانية، وازدهار التطلع.

نظرة دالة، يرتجف منها كل من يواجه حافظ دروب النجوم، العارف بمسارات الضوء الخفية إلى المركز، ألوان الطيف المؤدية إلى النزل فالقنطرة فمدينة الغرب.

«أمهلنى ثلاثة أيام. . ».

إنها المدة اللازمة لإرسال الحمام بالبطائق إلى الجنوب، بالتحديد أيدوس، لم يخلُ المعمارى الهرم إلى نفسه طويلاً، إنما كان يعرف من يحتاج إليه هكذا أنبأت خطواته التى يرصدها سيد الأفقين ورفيق رحلة رع الظاهرة نهاراً، الخفية ليلا، ثلاثة نهارات، وثلاث ليال، تلك التى تمثل الحد الأدنى للوصول إلى منف.

بدأ الشاب دون العشرين دورة، متوقد النظر، يفيض بتطلع صوب الجهات المعنية. والآفاق غير المرئية. قادرا على ترميم ما فسد رغم بداياته، وتحقيق ما جرى العمل به، وقاد الحضور، مألوفا للكافة، غير هيَّاب عند انتقاله من موضع إلى آخر فى القصر، كأنه وفد على الدنيا هنا.

«كيف تخطط وتشيد المدن؟»

لم يجرؤ إنسان غيره من قبل على توجيه مثل هذا السؤال، غير أن لهجته فريدة، تقرب ولا تنفر، تطلع إليه سيد الأفقين محفزًا. مشجعًا، عندئذ استأنف:

«كلها ممتدة أفقيًا.. سأقيم لك مدينة رأسية..».

لم يخف اندهاشه وإن لم يبده كاملاً، ليس للمطلع على اسم رع السرى، الممسك حروفه. الملم بظلاله أن يعجب من أى مظهر أو جوهر. كانت الإيماءة المقتصرة تعنى الإشارة، ولم يستغرق الأمر وقتًا، بعد أربعين رحلة ظاهرة وأربعين خفية لرع المعبود، عرض الأبيدوسى البناء ـ كما صار يعرف فى القصر وسائر الدواوين ـ النموذج الذى سيعلو فى الفراغ إلى حد يتجاوز فيه الغيوم التى تأتى بالمطر فى أول الأيام الشتوية.

أثنى سيد الأرضين على ما رآه، وقال إنه لم يسمع بمثل ذلك، وأن أمر هذه المدينة سينتشر وتستقر بين العجائب التى يصعب محاكاتها، لكنه يأمر الأبيدوسى بالتنفيذ من الذاكرة، هذا النموذج يجب اتخاذ التدابير لإخفائه عن الأبصار، إنه مختلف حتى عن كافة الرؤى والأوصاف المتخيلة للنُزل المؤدى إلى الغرب. فيما بعد استعاد كبير كهنة آمون تلك اللحظات وتفحصها على مهل، وتوقف طويلا أمام رد

فعل الأبيدوسى الشاب، بلا شك فوجىء، لكنه لم يرتبك، انحنى متمهلا، قبَّل الأرض مشهراً الطاعة والنية على تمام الأداء حتى اللحظة الفارقة. أمر بمسك رموز الرياح الموسمية باتخاذ إجراءات أدق من تلك المتبعة مع إخفاء ثمين الخبايا، لايعرف إنسان حتى الآن ما تم بالضبط لإخفاء النموذج الدقيق، العجيب، الذى لم يسمع بمثله فى مشرق أو مغرب، مالم تخبر لفائف البردى بوجود شبيه له، لا فى أعلى النهر أو أسفله، لا فى أول البحر ولا آخره إن أدركوا له بداية أو نهاية.

الدهشة كلها فى تجسيد الفكرة والخطة من خلال هذا النموذج، فيه يكمن السر، ومنه تشع نطفة الخيال، لم يكتف فقط بتوضيح الخطوط الحاكمة، أو الأعمدة الواصلة والأسقف العازلة، والشوارع المفضية من هناك إلى هنا، والمبانى التى تبدو متراكمة وكأنها كتلة متواصلة، متراصة. لكن يلوح كل منها أيضا وكأنه البداية والنهاية، لايوجد غيره. لكن عند حد معين من الطريق أو الدرب المؤدى أوجدار البيت ينفتح فراغ مؤد إلى أعلى، هكذا تقوم المدينة، كل مرتكزاتها خفية. عصية على الإدراك، حتى إنها حيرت العالم بمصدر الموجة الأولى لكنه لم يستفسر، السؤال لايصدر إلا عن جاهل وإن كان مشروعا للكافة عداه فى مرحلته تلك، لم يفض الأبيدوسى، ولم يوضح، فقط.. أبدى الهمة.

لم يبهره امتلاء طرقات النموذج بصغار البشر، بسعيهم وحركتهم، وكل ما يبدون وعند حد معين من التدقيق يمكن تحديد الملامح، رغم دهشة الكهنة، ودروع السدنة، وعجب رجال القصر وابتهالات مشاهدى المعانى واهتزاز أصوات المرتلين. إلا أن ما قلقله النقاط غير المحددة التى تمسك هذا البناء الصاعد فى الفراغ.

تردد مرات لاحصر لها أثناء التشييد، حتى بلغه قلق كبير كهنة رع

من صعوده المتكرر إلى الجبل الشرقى وقلة احتجابه، وتردده المستمر على الحافة المطلة جهة الغرب حيث اختار الأبيدوسى نقطة البداية، مجرد مرتكز صخرى لايتسع لمؤخرة اثنين إذا تجاورا متساندين. من تلك المساحة الضيقة ينطلق الصرح المتين إلى أعلى متحديا كل فراغ، متجاوزا كافة القوانين السارية، شارع يعلو آخر، وبيوت متراصة كأحجار مجمع الأسرار فوق هضبة الجيزة، أحيانا. تبدو جذوع الأشجار معلقة مؤدية. . النهايات تتماس بالبدايات، بل يجرى التبادل اليسير، فالمفتتح ينقلب إلى مختتم وهكذا تصير الأمور على غير ما ألف القوم، وما تسمح به الرؤى.

من بعيد من مسيرة عدة ساعات تبدو المدينة معلقة فى الفراغ، كأنها تستند إلى فكرة يصعب تحديدها، وليس إلى أساس ممتد فى الصخور العظمى، موثق متين مهما بدا من نحوله، وصعوبة اكتشافه أحيانا.

سريان البنيان فى الفراغ عجيب، وتجاوزه حد الغيوم الممطرة أول الشتاء أعجب. أما الاكتمال فمُربك لكل من ادعى أو تظاهر، جاس سيد الكون فى المدينة على مهل رغم إحاطته بها، ومعرفته بأقسامها ومستوياتها خلال البناء، استقر معجبا تياها، بما أنجز فى أيامه، بيته لامثيل له، لأول مرة تتلى الأدعية والتراتيل على هذا القرب من مسار الإله رع. لم تكن إقامته لإعجابه فقط بالعمارة الفريدة، إنما لدفع القوم إلى سكناها والسعى فى أسواقها، والتناسل فى دورها، غير أن ما أقلقه ذلك الأبيدوسى الشاب، ليس لما يبلغه عن إعجاب الكهنة والسدنة والمرتلين وأرباب الفنون وأفراد الحرف، المختلفة به، من الطبيعى أن يسرى اسمه عبر الآفاق الأربعة، وأن يتردد فى الأزمنة التى لن يسعى فيها بجسده، إنما بناتج مخيلته، وما جسده، كم مثله لحقهم هذا الفهم النادر لعمارة الكون؟

لايضـايقـه ذلك، لايقلقـه هـذا، إنما يزعـجـه مـا يتـوقـعـه القـوم منه، الأبيدوسي مازال شابا، فتيا، وما ينبسط أمامه عديد، أكثر مما انقضى وما يرقد فى مخيلته بلاحصر، أجنة مدن لم يسمع بمثلها مقيم، ولم يرها راكب مرتحل، ماذا لو اختطفه غرباء ؟

ماذا لو أرسل أعداء البلاد من يغريه بالهدايا والإناث ؟

لم يعـرف عينين متـوهجتين مثل حـدقتيه، خطاه تفيض ابداعـا وخططا ومبادرات تنبئ بكل جديد، إن وجوده بالقرب منه مقلق، واستمراره مزعج من يشيد معماراً كهذا لايحتاج إلى آخر ليتردد اسمه بعد رحيله إلى الأفق الغربى.

مـا أثار خـشيـتـه، أنه كلمـا نظر إلى الأبيـدوسى يكاد يوقن أن هذا الشاب الجنوبى يفهم ويقف على كافة ما يمر به ويفكر فيه.

هل يحتاج إليه بعد أن قامت المدينة التى لم يسمع بمثلها أحد. ألم تتخذ سبيلها فى الزمان عجبا وأعجوبة.

ألم ينجز ما صمم ؟

ألم يجسد ما تخيله ؟

اتخذ سيد الأفقين قراره. ولم يكن بحاجة إلى النطق به، أوتدوينه على لفافة بردى سردية، فمن يسعون بين يديه يدركون رغباته قبل النطق بها. ومتعقبون اتجاه نظراته ليفسروا ويفهموا ويقفوا على ما خطط له.

آمر الرياح لايصرح إنما يومئ يلمّح، هكذا تجرى الأمور من قديم وستظل.

عند بدء ظهور الأعراض أدرك الأبيدوسى سريان السم البطىء إلى خزانة روحه، لم يرقد، رغم إدراكه أن البحث عن ترياق عبث، إلا أنه آثر الخروج إلى الغرب بذاته، بنفسه، بخطاه، لعله يبلغ المدينة المرجوة، التى تتجلى لمن يطلبها، ربما يدركها بعد خطى معدودات، ربما تواتيه الفرصة ليصمم ما يمكنه إضافة شىء ما قبل الفوات، لكنه يجب أيضا أن يبلغ رسالته الأخيرة إلى ابن الشمس، سلم رسالة البردى إلى مشاهدى المعنى، هكذا تليت على آمر الصل وهادى الظلال ومحرك النسيمات، ورغم خطورة ما جاء بها إلا أن ملامحه ظلت ثابتة شاخصة، متطلعا بنظره الثاقب إلى الأفق الغربى.

حكايـة

بستان الخضر



لا تنفد الدهشة مهما استمر الطواف وطالت الإقامة بالكون المعمور، تأتيه الأوقات بما لا يتوقعه، لذلك تعجب عندما وصل هذه الأرض التى لم يطأها من قبل، يسر بالاكتشاف مقدار بهجته بما يعانيه ويراه، ذلك أن توقعه للمغاير نادر بعد طوافه وتردده مرات على النواحى والجهات.

توقف، يعرف تلك اللحيظات التى تسبق دخوله المدن أو القرى، مناطق ومواضع إقامة البشر، ما خططوا له، ما أقاموه، مطلع، ملم على أسماء لا حصر لها من لغات اندثرت وأخرى سارية الآن، تتصل كلها بالمكان، عدا النزل المؤدى إلى مدينة الغرب، لو بلغها لن يطوف أبدًا ! مقاربة المدن مماثلة لاستشراف خبايا الإناث، حيث لواح الوعود الغامضة، والإمكانيات التى يصعب تعيينها، إنه منبهر رغم ماراه. لم يعرف مثيلا لذلك.

أبدًا . . لم ير ما يمكن القياس عليه.

ليست المدينة إلا بناية واحدة، وحيدة، غير ممتدة، إنما صاعدة إلى أعلى، يمكن رؤيتها على مسيرة سبعين يومًا، لا تبدو للأنظار والأحداق على هيئة واحدة، إنما تتغير من مرحلة إلى أخرى، ومن موضع إلى موضع، ومن إنسان إلى آخر، لن ينسى أبدًا الأضواء المعلقة الطالعة، المتوزعة على الفراغ، إشارات كلها دالة، نهارًا تبدو للراكب أو المترجل مستندة إلى اليابسة إلى صخور المرتفعات المشرفة، وأحيانا كأنها

تضرب بجذورها فى فراغ، وعند اجتياز بوابتها الرئيسية فلا ينبئ أى شىء بما ينتظر القادم، الغريب، كأنه يلج بناية محدودة، وحيدة، فى البدء ظن أنه مقدم على دخول بيت أو مسكن.

واجهة البوابة منبسطة، مائلة، بوابة مؤدية إلى فناء محدود، تطل عليه ثلاثة أبواب تعد بالمرور، لكن عند الدنو يجدها مصمتة، حجرية، لا تؤدى إلى شىء، غير أن ممرًا قصيرًا، منزويًا، يبدو عليه واعدًا مؤديًا.

تقوم البيوت فوق بعضها، يمكن رؤيتها تفصيلاً، ويستحيل جملة إلا من موضع واحد لا يدركه أحد، يكمن فى بقايا قصر ابن الشمس، الذى يؤكد الجميع أنه مركز المدينة التى يتجاوز ارتفاعها سحب يناير، حقًا. إن من يعش ير، ومن امتد حضوره عبر الأيام مثله؟ من تقلب على الأزمنة مثله ؟

لولا أنه توصل إلى صيغة ألزم نفسه بها لتحول ما خص به، ما حصل عليه صدفة، وتفرد به دون الخلق كلهم إلى نقمة وليس إلى نعمة ! يثق أن البلى يبدأ من الداخل، ما من مخلوق معصوم، محصن، مهما طال به العمر. انهيار المعمار يبدأ من النخر فى الأساس المستتر. غير البادى للنظر. أما تداعى المرئى فآخر المراحل، لا يعلم إلا الخالق، ذلك المدى الذى يجب أن يقطعه قدمًا فى الزمان.

لم يعلن عن هويته قط لمن التقى بهم هنا، تماما كما جرى فى البلاد والأصقاع الأخرى، مهما امتدت به الإقامة، كل الأوقات إلى انقضاء. تقمص مهنا شتى، وأتقن علوما صعبة. أحب تجارة الحرير من الصين إلى ديار الغرب ،عرف كل الطرق العتيقة المؤدية، وعمل طويلا فى حفظ أجساد الموتى على ضفتى النيل، وحمل الرسائل المطوية من

رجال بالمشرق إلى آخرين بأقصى أنحاء المغرب، وتنقل مع حجاج يسعون عبر المسافات إلى أمكنة بعينها لإرضاء حاجات خفية وظاهرة معًا! بلغ كل جهة، عدا النُزُل المفضى إلى المدينة، مدينة المدن كافة، لم يكشف قط عن هويته، حتى لمن اقترن بهن وأنجب منهن، ولا أبناؤه الذين أقام معهم، رآهم عند ولادتهم وشيَّعهم، لا يمكنه الآن تذكر أسمائهم وألقابهم، لو أقدم لكلّ ومل وضاقت القراطيس. يعرف أن أمره شائع، وأن بعضهم وضع عنه عدة مؤلفات تتداولها الأيدى، وأن التفاصيل بلا حصر، فى كل ناحية ينسب إليه البعض اسما مغايراً، أعجبه «الخضر» ربما لإتقانه درجات اللون الأخضر، وراحته عند التمدد فوق الحشائش وفى ظل جذوع النخيل والأشجار، حقا.. إن من يعش ير!

كلما صعد فى هذه المدينة الرأسية ردد تلك الجملة التى سمعها من معمر مصرى فى جنوب الوادى منذ ثلاثة آلاف عام. سعى قبل بناء مجمع الأسرار، والهياكل العظمى، والطرق المؤدية. نطقها بلغة مندثرة الآن. لم يتبق منها إلا حروف فى كهوف عميقة أعلى الصخور الشرقية، يجهلها أحفاد من حفروها، وكتبوا بها على اللفائف، والعظام، وقرون الوعول، والواجهات الواقية. هو نفسه لا يذكر مع أنه أمضى دورات عديدة على ضفتى النهر، وتتبع مساراته، وتحولات فروعه، أشقى ما عاناه فى بقائه الديمومى تبدل اللغات وإتقان الفروق بين اللهجات. لكم اجتهد فى المقارنة عند الخلو وتمام الانفراد.

صعد مع البيوت، وأماكن الراحة العامة، والعقود المتينة المحنية، الموصلة، والجسور المتقنة، والشرفات العلوية القائمة. كلما انتهى إلى بناء ظنه الأخير يكتشف اتصاله بآخر أعلى، لم تتغير إجابة كل من سأله عن البيت التالى، أو الطريق الآخر، دائما تشير الأيدى إلى أعلى.

من كل بيت يتفرع طريق صاعد. دائما إلى الأسطح. يتم الوصول إليها من الخارج، لماذا؟

«لانعرف..».

لسكان المدينة خصائص وسمات يندر رؤية مثلها، إنهم نحاف، رجالهم طوال القامة، أشداء البصر، أما نساؤهم فلا مثيل لهن فى الطراوة، ولين الأجساد وتنوع القدرة على إثارة الضجيع، وملوك الوادى لا يتزوجون إلا منهن، لايتجاوزهن إلا نساء مدينة المدن، هناك فى مجمع الجهات كلها. هنا الغرباء ينزلون أماكن محددة، موزعة على ارتفاعات متقاربة، لهم المأوى، والطعام، والكرم. لكن لا يسمح لأى منهم بالمرور فى أى طريق إلا مرة واحدة، ولا يقيم إلا ثلاثة أيام، كل بيوت الإقامة العابرة لا تؤدى إلى منازل أخرى، محاصرة بشكل ما، رغم دماثة المقابلة، وحنو اللفظ، إلا أن حذرا مخيما على الكافة، حتى الصغار، تصعب الإجابات على الأسئلة، خاصة ما يتصل بتخطيط المدينة، ومقر مهندسها الأبدى الذى لم يتوصل إليه أحد..

«لا نعرف.. هذا ما وجدناه..».

لكن، من وضع الأساس الأول فى المخيلة قبل أن يجسده خطوطا ثم حجارة ونقوشًا.

«كل الأبنية، وجدت هكذا..».

«منذ متى؟».

«من زمن الفرعون المتسائل..».

«ما اسمه؟».

«لانعرف . . لكنه قديم».

أى قدم يعنون؟ كم مقداره؟ متى بدأ؟ جال فى الحدائق المعلقة والجسور العابرة لندف الغمام، التزم بكل ما أبلغ به من محاذير للغريب عندهم حرمة طالما لم يبد المخالفة. غير أن فضوله شب بما لم يتصوره، وما لم يعهده طوال القرون الأولى، أقام على مقربة من المدينة العجيبة، وسمع من أهالى القرى والمحلات المحيطة ومن أفراد البريد القادمين من الجهات الأربع مالا يجرؤ أحد على ترديده داخل المدينة الفريدة، التى تلوح متينة، ركينة الأوتاد، ثمة ما يؤكده مكان الخيام فى الصحارى القريبة عن مقبرة المؤسس وما تحوى من كنوز يكل إنسان واحد عن إحصائها، غير أن أصحاب النخيل ورعاته فى الوادى يؤكدون أن الفرعون العظيم لم يدفن فيها. إنما شيدت مقبرته فى الفراغ المنطلق، مايلى ذروة المدينة، وأنه أوصى بتذرية رماد جثمانه لحظات هبوب الرياح الموسمية حتى يسافر مندمجًا إلى جهات الكون، لكن الكهنة حالوا دون ذلك واعتبروا تنفيذ هذا كفرا بكل ما ورثه الأبناء عن الآباء، عن الأحفاد، وسمع أيضا ما يتردد عن اختفاء المهندس الشاب الذى صمم المدينة وأشرف على تنفيذها، كل مقاطعة تنسبه إليها وتؤكد ما يجعله مولوداً بها. متعلما فى معابدها. والخلاف حول هذا الأمر حاد، غير أن كثيرين ممن يعتد برأيهم يؤكدون أن الشاب لم يدفن جثمانه، إنما اختفى فى موضع ما من المدينة. ذلك أن الفرعون العظيم قلق بعد افتتاح المدينة، وانتقاله للسكنى فيها تشجيعا لرجال دولته وأسرهم. هابها القوم فى البداية ثم تنافسوا على الإقامة بها، خشى أن يتفتق ذهنه عن بناء أروع، يتجه صوب جهة ما ويجسد أعجوبة

أخرى، لكن فى ظل سلطان غريب، حقا. . إذا كان قد توصل إلى تصميم هذه المدينة وهو بعد فى العقد الثانى. ما البال إذن بعد استواء الخبرة، وبلوغ المخيلة آفاقا أبعد ؟

لهذه الأسباب وأخرى غيرها دس له السم البطىء، ويبدو أن المعمارى الحصيف كان حكيما أيضا. نافذ البصيرة، متوقعا ذلك، عندما وهن العظم منه لم يلزم الرقاد إنما شرع فى الرحيل. أرسل لفافة بردى أوصى ألا يفتحها إنسان عدا سيد الأفقين، أكد احتواءها على سر، تؤكد المرويات المتوارثة أن جلالته بمجرد فراغه من الاطلاع عليها نزل عليه غم، ولم يمكث طويلاً، لايعرف أحد ماذا تضمنت الرسالة بالضبط، لكن أشهرها يقول إنها حوت نبأ ممضا، مقلقًا حتى الآن، هذا المعمار الذى يضم فى ثناياه مرتكزات تحميه من الزلزلة أيا كان عنفها، وكل تقلبات المناخ، وبث فيه مسارب الأمطار المؤدية إلى خزانات بينها، هذا التكوين الهائل، العجيب، يحوى موضعًا صغيرا، إذا داسه إنسان بقدميه ثلاث مرات تنهار البنية كافة.

هذه المدينة الأعجوبة، التى تخلق ظلالها من داخلها، وتضىء الليالى بوسائلها، وتتقى تقلبات المناخ بزوايا مواجهتها للرياح الأربع، ولا تدع قطرة ماء تتسرب خارج خزاناتها. هذه البيوت المتضامة، المتساندة تعصف بها صدفة، وتنهيها خطى ثلاث غير مسددة.

تتنوع المرويات وتتعدد الحكايات بين كافة القريبين منها، المحيطين بها، المترددين عليها، غير أن أهلها المقيمين، ينكرون ما يصل إلى أسماعهم، ويؤكدون أن المدينة قديمة، وأن أجدادهم جاءوا من بعيد، صمموا ونفذوا، وأقلعوا عائدين إلى سكناهم فى المدينة الجامعة بأقصى الغرب.

كان يصغى إليهم هادئًا . مترسخًا عنده استحالة رد الأمور إلى أصولها ، وربط المسارات ببداياتها . عند حد معين كان عليه أن يرحل ، أن يفارق ، خاصة مع صعوبة المكث ، واستحالة مخالطة القوم ، والنفاذ إلى إشاراتهم أوعر ، لم يطق صبرا فانطلق !

يم

بهدى من ذاكرته أولا وموضع النجم البراق ثانيا ويقينه الخفى ثالثًا . اهتدى إلى الموضع بعد خمسة عشر قرنًا بالحساب الحديث لدورات الفلك ، كأن هذا الركن من العالم مصدر دائم ، متجدد للدهشة عنده ، لا أثر للمدينة ، للأرض الممتدة حولها . بقايا الصخور التى أتقن تحديدها وتعيينها مطلة على بحر ممتد تغرب الشمس عند أفقه ، غير أن فطنته ودرايته مكنته من تحديد مسارات الرياح ، تأكد أنها لم تتغير .

استغرقه اليم ، تدرجات الزرقة والتقاؤها بالبنى المخصب ، رغم بساطة العناصر إلا أن أسباب الحنو والرقرقة ضافية . مياه وصخور وسماء ، ضامة ، حاوية ، لا غير .

مرة أخرى أنتظر حلول الليل ، عندما أشرق النجم أعاد حساباته وأوضاعه ، أيقن أنه الموضع الصحيح . يوقن من حلول لحظة تغرب فيها الشمس ولا تشرق مرة أخرى ، يطول ليل بنجوم مغايرة ، يختفى ما يظنه أهل الفلك علامات ثابتة ، ما يهتدى به البحارة وأصحاب الريادة فى دروب الصحارى الغميقة . شهد فى سماء البحار الجنوبية الممتدة ، ميلاد نجم لامع ، متوهج ، بدا فى أحدى الليالى فرداً . وافداً ، مفاجئا كان حضوره مباغتا ، . . ومنذ أن طالعه أيقن رحيله مهما أقام ، للنجم العابر ، غير المقيم مظهر يعرفه . ما يجىء فجأة يذهب بغتة ، وبقدر معاناة الظهور تكون مدة البقاء . جوهر أتقنه خلال بقائه الممتد

عبر رحلته القصوى وخروجه عن الناموس الإنسانى عقب ارتوائه من عين الحياة التى لا يعرف فى موضعها، ولا يذكره، فكم من جرعات ارتشفها خلال رحلاته الأولى.

رغم ذلك يوقن بزواله رغم امتداد العمر به، لا شىء يبقى، الثوابت زائلة أيضا، لكن.. إلى متى إقامته هو؟ فى لحظة معينة سيجد نفسه في النُزُل، ولن يكون أمامه إلا الانتظار.. إلى متى؟ هذا مالا يمكنه الإجابة عليه، لا يقدر إلا على السؤال، وأكثر ما يؤلم الإنسان اليأس من الجواب، يهز رأسه عندما ينفرد، وتصدر عنه إشارات، وتتعاقب على ملامحه التعبيرات، لا يحاور نفسه إلا عند عبوره البوادى، ومكثه في الفيافى. وقطعه المسافات الفاصلة، لم يسترسل هنا، كان على حذر. ذلك أنه اكتسب حاسة فريدة تتعلق بإدراكه طبيعة الأماكن التى يطرقها وخصائصها، الأخطار لا تعد، وأخشى ما يرهبه طول البقاء مع العجز، هذا فظيع، لذلك يتمنى موته واقفًا، تماما كما ترحل الأشجار النادرة، المعمرة، تجف رويدا، رويدا، حتى تهوى بلمسة ريح، أو استناد شخص عابر مثله إلى جذع يبدو عتيداً متينا لكنه ينهار عند أول لمسة.

ربما يبدو انشغاله الدائم بالغناء غريبا رغم أمره الشائع، المعروف عند كثيرين، المذكور فى كتب الأقدمين، يتوارثون أخباره وأحواله من موضع إلى آخر، ومن لغة إلى لغة، يصغى إلى القصاصين والوعاظ إلى الكهنة، إلى المنفردين، العزل، أمره معروف وإن اختلفت صيغ المشرق عن المغرب، هنا.. له اسم وهناك آخر مغاير، ما تردد حوله جعل موقعه مقدسًا بين أديان متنافرة شكلاً متفقة مضمونًا، يقين خفى لديه أن الأصول كامنة فى تلك المدينة التى خالفت ما عداها. لكن أبوابها أوصدت فى وجهه، لكم تمنى لقاء هذا الشاب الجنوبى، إذا

تعذرت المعرفة فليتبع الأصول الأولى، لكنه يصل إلى المكان فلا يجد أثرًا، وما كان يابسة أصبح يمًا طامًا، ممتدًا، لمن يروى مشاهداته الأولى، من يصدقه ؟

إنه مضطر إلى إخفاء هويته، إلى تمويه كُناه، ألا يصرح بحقيقته حتى لأبنائه وأحفاد أحفاده الذين يتوهون عنه ويضلون، ويحيد عنهم، لو أدرك بعض أصحاب السلطان قبسًا من أمره لأذاقوه الويل كله، ظنا منهم أنه مستحوذ على سر البقاء، ومغالبة الفناء، والترحال من زمن إلى زمن، لهذا كله مختف. متوار رغم ظهوره، بعيد رغم قربه، مهدد بالوصول إلى النُزُل رغم أمنه مما يخشاه البشر، من خلال الصخور وأمواج البحر وعناصر خفية يوقن بوجود ظلال ما للمدينة المندثرة، إنها قائمة مثله، حاضرة فى الفراغ رغم فنائها وتغير معالم الطبيعة، لكن ثوابت النجوم دالة. عبر لحيظات تقع بين النوم واليقظة أدرك أن ثمة من ينظر إليه. قام بغتة.

رجل يصعب تحديد عمره، لكنه فى العنفوان، هادئ، مرتكز إلى ركبته يشير إليه مطمئنا، ينطق ألفاظا يصغى إليها للمرة الأولى، مر به ذلك كثيراً، حروفها متشابهة، إيقاعاتها متقاربة.

يمد يده ملامسا الكتف الأيمن.

علامة ما، يمد يده بدوره ملامسًا الكتف الأيسر.

تعود الابتسامة إلى ملامحه، يقف، يستدير داعيًا له أن يتبعه، هكذا بدأت الصحبة، عبرا صخوراً متصلة، لايشذ ارتفاع بعضها إلا قليلا، تتدرج صاعدة نحو واجهة عريضة حمراء اللون تتخللها فجوات، فتحات مؤدية إلى كهوف تختلف اتساعاتها، كلها مطلة على

البحر مشرفة عليه، بعضها متجاور، مداخل فسيحة، مرتفعة، وأخرى لا يمكن عبورها إلا زحفًا.

جاء القوم، تجمعوا حوله. شابات مشرعات النهود، عجائز يسددون البصر تجاه حضوره، مقطبين، متأملين، لا يجمعهم أى شبه بأهالى المدينة الأولى.

بعد اكتمال القمر بدراً سبع مرات، نطق بالألفاظ الممكنة، لم يكن هناك معلم أو لغة مقاربة، لكن. . الفضل يعود إلى هذه البنية، العفية، الشابة، اختارته، عندما تحلقوا حوله وطال وقوفهم تعجب وخشى، فيما بعد أدرك أنهم كانوا يتفحصونه، ينتظرون إعجاب إحداهن به. الرجل هنا يجب ألا ينام بمفرده، خاصة إذا كان ضيفا غريبا حل بهم، أو أسيرا، أو سجينًا، يوازى ذلك عندهم الكفر، إذ يعنى مبيت القادر، البالغ بمفرده إهدارا لفرصة إثراء الحياة بمخلوق يجب ألا يحول أى شيء دون مجيئه إلى الكون.

ماذا يربط أهالى هذه الصخور، تلك المغارات، بسكان المدينة الأولى؟ كان سكانها مشغولين بالموت، حتى ليذكر بدهشة حزن الوالدين وفرحهما فى نفس الوقت لوفادة مولودهما، الفرح لاكتمال ظهوره، والحزن لبدء النقصان، لبدء العد التنازلى صوب تلك النقطة التى لم يرجع منها أحد حتى الآن. وعندما يكتمل أجل المرء يصحب معه كافة ما يمت إليه من أشياء.

هؤلاء القوم يعيشون على صيد البحر، يمتلكون أربعين قاربًا مختلفة الأحجام، يتوارثونها، يبذلون من أجلها الجهد والصيانة.

«منذ متى أنتم هنا؟».

قالت الصبية، الدافئة، المزهوة.

«منذ ظهور الشمس والقمر . . » .

ثم قالت وأناملها تودع أثراً لم يمح من حواسه لأزمنة متعاقبة .

«من قديم . . لا نعرف أرضا أخرى أوشاطئا آخر لهذا البحر . . » .

يصغي متدغدغا بالود، بالنشوة، ممتنا لها لأنها اختارته ، عندما تقدمت نحوه ومدت يدها إليه بمحارة صغيرة، علامتهم المتفق عليها، منذ إشارتها صارت له ومضى إليها، لو رفض . . عليه مفارقة الموضع كله، لا تحل له إقامة أو صحبة، الأنثى هنا لا ترد، قولها فصل، إليها ينسب الأطفال .

الحق . . أنه لم يعرف فى رحلاته مثل تلك الصبية، قوية الطلع، ناعمة مطواعة، رغم أنه أزال بكارتها إلا أنها حوت ميراث إناث الكون كلهن، كأنها امتداد لرغباته ، تجسد ما يهوى قبل نطقه به أو إعرابه عنه، لم يعرف ريًا ورضا وسكينة وقدرة على الإصغاء كما عرفه هنا فى ذلك الكهف الصغير، المشرف ، المطل على اليم .

«من سوَّاها هكذا ؟» .

«الرياح والنجوم . . » .

«أحقًا؟» .

هل يمكن للطبيعة أن تبلغ هذه الدقة ؟ اكتمل القمر ستين مرة وصحبتهما مكتملة، لم يعرف الضيق، ولم ينل منه الضجر، وظن أن اكتمالهما باق أبدا، هو الموقن من فراق كل حى!

لم يكف عن تنسم ما تبقى من المدينة الرأسية، كانت تحفظ حكايات عديدة، وعندها قدرة على وصف ملامح الوجوه لحظات مواجهتها للبحر، مرة توقف وحاول جاهداً اقتفاء مالا يمكن إدراكه بالحواس،

عندما قصت عليه نبأ النابغة الذى شيد داخل هذه الصخور مغارة لا مثيل لها، ليست من صياغة النسمات ونخر الموج وإيقاعات الزلازل، لكنها من نتاج تفتق عقله وعشقه للحجر، بعد أن فرغ أدرك شيخ الناحية أنه يمتلك شيئا لا مثيل له. وأن المخيلة التى نتج عنها هذا التكوين يجب أن تصمت إلى الأبد، ويقال إنه أوقفه ليلا، وألقاه فى البحر وأن صرخاته تسمع فى ليالى المحاق رغم بلوغه النُزُل وعبوره إلى المدينة التى لم يرجع منها لينبئ عن قبس مما تحوى

بستان

أولج فى الزرع قبل بلوغه المدينة التى سمع بوجودها على مسيرة أسبوعين، أشجار كثيفة ونخيل باسق، وزهور، ألوان منغمة، وعبق ليمون، أطياف نعناع، وظلال تين عسلى ورسوخ نخيل، وتربة سوداء غنية، قديمة، طبقات متداخلة، تنبئ بعتاقتها، ودموع أحبة غامضة ولحظات مولية، جد نائية، عبير النهر القريب سار. مضوع، حشائش كثيفة، ناعمة كالقطيفة الصينية يطأ مهادها، يتجاوزها فتشرئب من جديد وكأنها لم تنثن قط.

جذوع الأشجار تحتوى الأزمنة، والأوقات تحيطها. تلك التشققات، اللحاءات الخارجية، الفروق فى الألوان، ما بين فاتح وغامق وداكن امتص حرارة الشمس، منبئ بالرسوخ، ما بين الجذور والأغصان القصية يتنقل بصره، كم من باسقات عاينها وأغفى تحتها واستظل بنعومتها. عرف أسماء البعض من القوم، ما لم يعرفه منحه أسماء وعلامات لم ينسها قط. حتى إذا رأى نبتة فى أقصى المغرب وصادف مثلها فى نهاية المشرق يجرى المقارنة على الفور.

هذا البستان الشاسع ضمده وهدهده، وأتاه بكل جميل، أسماء وعلامات وخطى مشاها وضمات ارتقت إلى توحد نشوء بديع. هنا سعى وأقام. المرة فى المدينة الرأسية، والثانية فى مدينة الماء والصخر. ما أعجب وأغرب، حوالى خمسة عشر ألف عام مما يعدون، كأنها سويعات، أو لحيظات استغرقها توارى ظل علامة على استمرار دوره الفلك. كل مضى يتساوى، وكذلك ما تبقى!

عندما سمع بخبر البستان فى ديار قصية، وأدرك من دقة الوصف عين المكان، استفسر عمن خطط له ونثر بذوره، وتعهد بالرعاية ثمار أشجاره، قيل له إنه قديم، لا يعرف أحد من أنشأه بالضبط، لكن تقول بعض حكايات الرحالة والمسافرين لأغراض شتى إنه لم يتبق منه إلا مستوى واحد. ذلك أن النبات والزهور والأشجار كانت صاعدة إلى أعلى تتجاوز السحاب، وأن الغرس كان يتم فى الغمام، كيف ؟

لا أحد يدرى، من شيد تلك البساتين المعلقة اختفى، قيل إنه جاء من كوكب بعيد، أمضى زمنا مع صحب له. أنهوا مدتهم ومضوا بعد أن تركوا علامات. أشهرها هذه الجنائن التى لم تجد من يهن بها، وقالوا إنه مهندس ذو بصيرة ونفاذ، كان يمكن أن يملأ الدنيا شواهد باقية، ومدنا محفورة فى الصخور، وطرقا وبنايات فوق السحاب، غير أن من كلفه بإنشاء تلك الحديقة الصاعدة بغير عمد قتله لسبب ما. أمر بإلقائه من آخر نقطة مرتفعة وصل إليها البستان.

لماذا؟

لا أحد يدرى.

لا أحد يقطع، غير أن ما يراه، ما يجول فيه مجرد بقايا، عدة أيام

يمشى متمهلا مسرعًا، متأملا، لم يلتق بأحد، ولم تلح نهاية أونقطة يمكنه بلوغ النهاية عندها.

توقف عند أشجار الصبار، أنواع لم تجتمع فى مكان واحد، يعرفها من خلال طوافه الطويل، منها المستطيل كالعصا، والأوراق الصغيرة، المتفرقة، كرات متماسة، كأنها تتوالد فى لحظات متعاقبة، رأى كلا منها فى موضع ينأى عن الآخر مسيرة أعوام، كيف تجاورت هنا ؟

لا بد أن أيدى خبيرة. حاذقة رتبت الأوضاع هنا.

متى؟

لا يمكنه سماع الإجابة، حتى لو التقى بالعديد من البشر. يتوقف أمام أنواع شتى من الزهور، من الأشجار، يقترب مبتسما لتلك الأغصان النحيلة، الحاملة لأوراق خضراء رقيقة كالحرير. لم يطالعها إلا فى مكانين متباعدين، الأول جزيرة فى بحر الصين الجنوبى، واحدة من الجزر التى تشرق عليها الشمس أولاً. والثانية جزيرة أكبر مساحة فى البحر القريب، يتوسطها بركان شهير ينفث جمرا سائلا كل خمسين سنة. نبات له خاصية غريبة، إذا توقف أمامه مخلوق ما يبدأ انكماشه وتراجعه، إذا لمسه أحد تنطوى الأوراق حتى لتصبح خيوطا رفيعة، يستمر فى التلملم، فى الانكماش حتى يتحول الغصن بأوراقه إلى نقطة صغيرة تدرك بصعوبة، ويتردد أنه يوجد بكثافة فى مدينة الغرب. للأشجار حواس، وللزهور لغات، وما يعرفه البشر الساعون، الواعون، تدركه تلك الأغصان ،وهذه الجذوع. والجذور الضاربة، عرف بشرا أقاموا ومضوا، تخاطبوا وعلموا أبناءهم وأحفادهم لغاتهم، غير أن ألفاظ المخاطبة اندثرت، كأنها لم تنطق قط، لكن لهجات الرياح ولغات النبات لم تتبدل.

لكم تابع مظاهر التحول والتغير، وأن يسمع المرء بالتقلب شيء وأن يعايشه أو يمر به أمر آخر تماما، ما من علامة توقف عندها مثل رسوخ الأشجار، خاصة النخيل، بل إنه ارتبط بعدد منها في أماكن متفرقة من الأرض، يحرص في طوافه على الوقوف أمامهم، وتذوق ثمارهم إن أمكن، رغم إدراكه أن ما يراه من أشجار مغاير لما رآه من قبل آلاف السنين. ما من أجل ممتد، لكل شيء من ناطق أو صامت مطلع واحد، يقين راسخ عنده، رغم سريانه إلا أنه موقن بلحظة ما تخصه، بعدها يلج العدم !، رغم يقينه إلا أن النخيل يمثل عنده الأبدية، الثبات في مواجهة القوى الطاوية والرمال الكاسية، كأنها شربت من عين الحياة مثله، غير أنها باقية ما ظلت الدنيا، وهو محدود بوصوله في طوافه إلى مدينة الغرب، لا يعرف متى يمكن أن يقع ذلك، ربما بعد خطوات معدودات، أومرور قرون تتغير فيها المعالم وتتبدل القسمات. رغم حذره فإنه تواق لبلوغ هذه المدينة العجيبة التي تتناقض أخبارها وما يروى من أحوالها إلى حد أن كل عنصر ينفي الآخر.

يتمدد.

تحيطه، تحنو عليه الأغصان الكثيفة، أصدق وأشف الصور ما يرد خلال رقدة في ظل دوحة عتيقة أو أرزة راسخة، توحي بالأزلية، وتحتوي الحيوات كلها في عناصرها المكنونة.

يرهف السمع إلى الحفيف، إلى الهسيس، إلى الزئير، العواء والهمس والجهر، يثق من قدرته على التقصي الطويل ودقة الإمعان كم لغة بدت في المفتتح عصية، لكنه مع الإقدام والتغلغل، والتقصي نفد وبرع وتفنن.

كيف لم يشرع من قبل في إتقان لغات النبات؟ يعرف

الآن. أحاديث بعض الطيور، يفهم حالات أساها وتوقها وفرحها، لقنه أسرارها قوم من أهل المغرب الأقصى تخصصوا فى تعلم ألسنة الطيور، واستقبالها كل سنة عند مجيئها من البرد إلى الدفء، وتلقى أسراراً جمة عنها، خاصة ما يتصل بالنُزُل المؤدى ومدينة الغرب.

راحته فى إدراكه أمورا لم يعرفها بعد، يقينه ببقاء ما يجهله يصغى، يغمض عينيه، أرض وثيرة بطرحها الوفير من الحشائش القطيفية، المكان عينه، لكنه ليس هو، يتوق إلى من يحدثه عن المدينة التى رآها وجال بها زمنًا، وإلى خطو تلك البنية الفارهة، رقدا هنا، عند موضع ما من الناحية التى كانت موزعة ما بين اليابسة والبحر.

أين ولت ضمتها؟

أين وثارتها، وحنوها عليه، أين؟

أين تمليسها عليه؟ ما يفتقده فى كل بنات جنسها، سائر من عرفهن بعدها، أغداق اللطف من أصابعها، فرشها نظراتها ليرقد ويتمدد ويفض أحماله الثقيلة.

لا تتوهج نصاعة التذكر إلا من خلال أنثى، إذ تلمسه يتشبث بها، ذات عصر امتزجا، تعلق كل منهما بالآخر خلال إبحارهما صوب لحظة التذرى والأوج، تعاونهما على رشقة الحياة التى يعقبها همود، البقاء والفناء معًا، دفعت بصدرها نحوه، نفذت إليه بكلها، ارتداها وتلفحت به، وحتى الآن لم تنأ عنه..

مصطلحات

فـنـاء



كل فناء خلاء، حتى إن حده سور أو أحاطت به عمارة أو أحدق به بنيان، لايقوم خلاء بدون امتلاء صب أصم، الأمر هنا قديم، فالشيء لا يبرز إلى الوجود إلا بضده.

الأصل فى الكون خلاء، وهذا له شروح مفصلة فى كتاب البوابات المنقوش على جدران مقابر وادى الملوك، والبوابات المعنية مقصود بها ساعات الليل والنهار. كل ساعة مفضية إلى أخرى، وهذا عبور دائم من نقطة إلى أخرى، ومن لحظة إلى لحظة كل باب من مؤد وإلا انتفت صفته أصلاً، سواء كان اجتيازه إلى داخل مصون، أم إلى خارج مستباح.

كل باب مفض إلى خلاء، محدودا كان أو مطلقا وكل خلاء محصور مهما بلغ مداه، لأن بلوغه يعنى الوقوف عند نقطة بداية وماله بداية لابد له من نهاية.

كل خلاء نعرفه، نجتازه، إنما يعد استحضاراً للخلاء الأعظم، اللانهانى، للكون غير المدرك كله، فما نعرفه منه بالإحاطة أو العلم مجرد هشاشة.

الأمر قديم، سابق على تشييد مستودع الأسرار المعروف بالأهرام، وقبل التوصل إلى الأبواب التى لا تؤدى إلى شيء وتتصل بكل شيء! بل يمكن القول إن القوم توصلوا إلى الأمر ثم جرى تفسيره، أو بتعبير أكثر دقة، فهمه، وكثير من الأمور تبقى دلالاتها كامنة خبيئة حتى

يجىء من يكشف ويفسر فيشرح الأمر ويتم تيسيره، هل أضرب لكم مثلاً؟ لكى تقام غرفة لابد من جدران وسقف، سواء كانت مربعة أم دائرية أم مستطيلة، ليست الجدران إلا مقابلا للجهات الأربع الأصلية، ولما كان الإنسان فى بداية سعيه وتمام إقامته على جانبى النهر الذى حفر مجراه وأتم دربه عبر قرون لا يمكن إحصاؤها بدقة كان يتطلع إلى أركان الأفق، ويرى السماء المنبسطة، المحمولة على الجهات غير المرئية، وعندما أراد الكنة، الإقامة، تدرج الأمر من السعى عبرالفراغ الكبير إلى الفضاء المحدد، المقدر، لذلك كان لابد من استحضار صورة الكون ورموزه، هذا أمر لم يتوصل إليه القوم بين ليلة أو أخرى أو بين سنة والثانية، تقول البرديات القديمة إن أمنحتب هندس البناء، وصمم المصطبة فوق الأخرى، ورسم حدود المدخل، والممر، والفناء ،لكن أمنحتب الذى كان عالمًا وطبيبًا وجراحًا ماهرا ومهندسًا وفلكيًا، لم يكن بداية ،إنما هو ثمرة لما قبله، وربما لم يوجد قط، ولم يسمع رغم الإشارات غير المتناهية إليه، وتحوله من بشر عادى فى الدولة القديمة إلى إله معبود فى الحديثة، قرب تمام نهاية الزمن الفرعونى المرئى قبل بدء تحول رموزه وتغليف دلالاته واستمرارها تسعى حتى يومنا هذا، سواء كان أمنحتب حقيقيًا أم رمزًا، اسمه يشير إلى أسماء كثيرة، وخبرات مجهولين متراكمة، المهم أنها أدت إلى نتائج محددة، تتجسد حولنا وفوقنا، فى نواظرنا وأحلامنا، ماذا يعنى أمنحتب؟ صحيح أن للاسم قوة، لكنه يشير أحيانا إلى معنى، إلى جهد، إلى حكمة، إلى خبرة، ليس من الضرورى ارتباطها بصاحب الاسم، إنما الأمر كله متبدد، وهنا أمر دقيق يتصل بمعان أخرى ليس هنا مجال شرحها، ما يعنينا أن أمنحتب أدرك معنى الفناء، لم يوجده، إذ كان ماثلا قبله، لكنه أحاط بمعناه.

كل بناء يتضمن محاكاة، والنموذج الأصلى، الأعم، ذلك الكون الفسيح الذى لا تقطعه الأسفار ولا تطويه المسافات، ولا تحيط به الأفهام، وثمة قائل يزعم أن هذا الكون كله ربما لا يكون إلا مجرد عتبة مؤدية إلى أكوان أخرى، أى أن ما نظنه فناء ليس إلا عتبة موصلة، مؤدية إلى أكوان أخرى لا نعلم عنها شيئا ولا ندرك من صفاتها أمراً، ربما يتخللنا بعضها، يتجاور معنا ولا ندرى. أى أن ما نظنه فناء ليس إلا عتبة موصلة إذا كان كل بناء استحضارا وتمثيلا لأصل غائب، فالجدران للجهات الأربع، والسقف للسماء مسطحًا كان أو قبة، إذن. . إلى أى شىء يرمز الفناء؟

باختصار دال، يمكن القول إنه يشير إلى الفراغات الكونية وما الوجود السحيق، الساحق إلا فراغات هائلة تتخللها حجرات أو نجوم أو كويكبات أو مذنبات حائمة أو أجسام ضالة، وما هذه الأجرام كلها دقت أو تعاظمت حجمًا إلا نثار.

الأصل هو الفراغ، والمنتهى أيضًا، إنه الهو اللامتناهى، ولما كان الإنسان يحن إلى البداية دائمًا، لذلك دأب على استحضار ما كان أو تمثله، ولنضرب مثلاً لعل الأمر يتضح.

ألا يبدأ التكوين فى الرحم؟ مجرد بذرة يظن الناظر إليها أنها هامدة، جامدة، لكنها تموج بحياة وحركة تتضمن كل ما كان وسيكون، ينمو الجنين فى وضع يتلاءم مع الحيز المحيط به، منحنيا على بعضه، ويلزم هذا الوضع أثناء نومه متى يرقد الضجعة النهائية وقديمًا كانوا يهينون الجسد فى رقدة مشابهة عندما يأوى إلى الرحم الأشمل، إلى الأرض، جرى ذلك لآلاف السنين قبل أن يقع تطور مجهول المصدر عندما تحولت الرقدة الأبدية إلى الاستقامة التى تكفلها اللفائف

المومیائية، يحرص المرء على اتخاذ موضعه فى حيز محدد لكنه يحوى فراغًا حتى إذ كفت ركضات القلب عن التتابع، وتوقفت الأنفاس، أحيط بما يلغى الفراغ، لكنه هو ذاته يبدأ اندماجه النهائى فى ذلك اللانهائى، غير المحدود.

ليس الفناء إلا استحضارا لهذا الفراغ المرئى، أو غير المدرك. يقوم البناء فى شتى العصور منتظما حول فراغ محدد، وفى العصور القديمة، على ضفتى النيل، وفى المدن الوليدة فى الصحارى الشاسعة، قامت الصلة المباشرة بين الفراغ والامتلاء، ينتظم البناء معبداً كان أو قصراً للفرعون، أو بيتًا لفلاح فقير حول فناء ما. تختلف مساحته أو شكله ما بين تربيع وتدوير أو استطالة، لكنها تحفظ الصلة وتقيمها ما بين الأرض والسماء، ما بين محدودية الإقامة وشسوع المدى المرغوب اجتيازه، ما بين الثرى المبثوث والنجوم العالقة والهسهسات الحائمة. مهما بلغ جمال الداخل لابد من احتياج إلى الخارج.

تنتظم الدروب، وتنثنى العطفات، وتقوم الأقبية، وتفضى الأزقة إلى الشوارع، وتصب كلها فى الميادين، إنها أفنية المدن، كل ميدان فناء، تنتهى عنده طرق وتبدأ عنده أخرى.

تكتمل المدن لحاجات فى نفوس المقيمين بها، أو الساعين إليها، أوأغراض أملت على أصحاب الريادة إنشاءها، تبدأ المدينة من نقطة وتنتهى عند نقطة، من بوابة إلى بوابة، وكل بوابة اجتياز حتى لو كانت وهمية. تنأى المدن عن بعضها، وما بينها أفنية، كل مسافة. فاصلة بين مدينة وأخرى فناء، ترصف الطرق وتسوى الوعورات ولا يمثل هذا الجهد إلا قطع فناء مفض. كل خلاء فناء، إذن كل فناء أصل.

وفى لحيظات استغراق عميق، عتيق، استحضرت صوتًا لأنثى

شاكية، بنية دقيقة، هائمة الروح، كان لوالدها بيت على هيئة مربع، بابه ضئيل المساحة، لكن عبوره ينقل إلى عالم مؤطر بالحنية والقدرة على قطع الأيام بهدوء الحال، والامتنان، وإقصاء الخوف بأشكاله كافة، غرف البيت تنتظم حول الفناء المرصوف ببلاطات ملونة، تتوسطه نافورة تبث الماء فى سلاسة، لم يكن هذا الفناء إلا مرتكزها ومنطلقها إلى النجوم السارية والتى حفظت مواقعها وطلاتها منذ طفولتها، وأتقنت. تعيين حركتها ليلاً، إلى أن حان أوان زواجها ومفارقتها بيت والدها.

وعندما وصلت بيت زوجها الثانى وقعت بصدرها عكمة، كان قوم زوجها يقطنون جبالا مرتفعة يحفرون بيوتهم داخلها، أو يتخذون من الكهوف القديمة مأوى بعد تنميقها وتنسيقها، وجرى عندها حنين إلى النجوم، وسارت تشكو، لكن دموعها لاحت غريبة، مستعصية على الفهم، وفى ليلة تسللت إلى الفراغ، تطلعت إلى النجوم الثلاث الماثلة، الممتدة على خط مستقيم، من خلال حركتها كانت تعرف الوقت وتعينّه، تلقت ذلك عن جدتها. طال تحديقها، وطال مكثها. وطال البحث عنها، وكان توحدها، بفناء الكون فسيحًا ونهائيًا وكان والداها إذ يتطلعان من فنائهما المحدود يثقان أنها ترقبهما من موضع ما.. هناك!



حكاية

غمامة



إنها شرفة الأرض المعمورة على حدود السماء المجهولة، المرفوعة بغير عمد، المنبسطة إلى أبد.

هكذا رأى عقبة بن نافع هذا الموضع الذى اختاره لبناء المدينة الجديدة، مدينة حملوها داخلهم. حلموا بشوارعها ونواصيها وأسواقها عبر دروب البادية التى قطعوها بعد خروجهم من مصر قاصدين الغرب. لم يلجأ إلى الطريق المحاذى إلى البحر. ما أسهله، لكن.. ما أخطره أيضا، سفن الأعداء تجوب البحر، وتهدد الشاطئ، لذلك كان ولوج الصحراء، الاقتراب من بعيد.

لايعرف قيمة اللون الأخضر إلا من فاض بنقيضه، وحشة الرمال، وثقل الكثبان، ولا نهائية الأصداء المرسلة، أحراش؟ نعم.. لكنها متواصلة، رطبة، تمهيدها ممكن وتسويتها سهلة مهما كانت المشاق، لم يقع اختياره على الموضع بعد أن جاس واطلع، توقف وأمعن، ثم انثنى إلى هذا الموضع، قيل له إنه مسكون بالأفاعى والعقارب والهوام، عندئذ تقدم صحبه منفردًا، صاح مخاطبًا من لايفهم لسانه، صاح:

«أيتها الحشرات والسباع، نحن أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فارحلوا عنا فإنا نازلون فمن وجدناه بعد قتلناه..».

تناقل الناس والرواة فيما بعد ماجرى، عندما فوجئ القوم باندفاع الحيات، والضباع والثعالب والعقارب وسائر أنواع الوحش والحشرات، بهربها، لكن بعض رواة الأخبار وكتاب التراجم يصفون

اندفاعة عقبه التى أعقبت صيحته ودعاءه، لم يكن هيَّابا، أو مترددا، كان يخطو دائما باتجاه موضع مغيب الشمس، غازيًا، مجاهدًا، ناشرًا العقيدة، قال لصحبه إن الدين الجديد لن يثبت إلا بعمارة النفوس والبنيان فى تلك الأصقاع النائية، هكذا نصب خيمته على حافة الأحراش التى صار ينزلها نهاراً، ويعمل بنفسه فى تمهيدها وتسويتها.

وجد فى المكان مالم يجده فى غيره، ذلك الانبساط وتلك اللانهائية، وحضور الحافة، زرقة السماء صافية، تجعلها دانية، وغماماتها تهدهد الذوات، أما بعده عن البحر فضرورى للسكينة وعكوف أهل العلم والتحرى.

ثلاثة شهور قمرية لم يفارق فيها الموضع، وبعد أن جرى تمهيد رقعة تماثل مساحة فسطاط عمرو، استدعى بناء مصريا وميقاتيا جهنيا، قال لهما إنه سيقيم مسجداً فى القلب كما جرت عادة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه يريد بناءً بسيطًا، متينًا، تمر عليه الدهور ويمر عليها، فالموضع هنا حافة شرفة على الصحراء، وبوابة مؤدية إلى الأزمنة المنقضية والتالية، إنه مكان، وسط. وقد جاء من صحراء مكة ماشيًا على قدمية فلم ير موضعا تقترب فيه السماء من الأرض كهذه الناحية، وهذا اعتبار جلى، غير خفى، متضمن فى الاختيار.

ثلاثة أيام أمضاها كل من السكندرى والجهنى، يخططان، يرسمان، يشرعان، كل منهما بمفرده، بمنأى عن الآخر، غير أنهما عندما اتجها إلى خيمة عقبة ومثلا بين يديه واحدًا إثر الآخر، البناء فى البداية والميقاتى بعده، قال كل منهما عين المضمون رغم أنهما لم يتفقا مسبقًا، ولم يلتقيا، ليس لأن مهمة كل منهما مغايرة تمامًا، إنما لأن عقبة أراد ذلك. لهذا تعجب عندما أفضيا إليه بعزمهما على أن يتضمن

المسجد مالا يوجد فى أى بناء آخر، قال السكندرى إنه أعد نموذجًا من الجلد المتقن، سيعرضة غداً بعد شروق الشمس مباشرة، وقال الميقاتى إنه انتهى بالفعل من تحديد دقيق لاتجاه القبلة كذا مواعيد الصلاة يوما بيوم على مدار السنة القمرية، آخذاً فى الاعتبار حركة الأفلاك وأى تغير يطرأ عليها بدءًا من اليوم ولمدة ألف سنة مالم تقع حوادث مفاجئة ليست فى حسبان بشر، وعندما استفسر عقبة عن المعنى الكامن وراء ذلك، قال الجهنى إن ذلك تقدير العزيز العليم.

أطرق عقبة، أصغى إلى الجهنى، وعده أن يعلن ما سيتفرد به المسجد بمجرد رؤية النموذج صباح الغد، هكذا اجتمع القوم، عقبة وأركانه، قعدوا على شكل دائرة مفتوحة تتيح للقادم أن يدخل إلى مركزها. هكذا وقف السكندرى وخارج الدائرة الجهنى، كشف عن اللوح الخشبى المنبسط، فوقه مصغر المسجد، سور وفناء مكشوف، وآخر مغطى، وصومعة لم ير عقبة مثلها، مغايرة لتلك القائمة فى ركن مسجد عمرو بالفسطاط، فيما بعد قال أحد مساعديه من أبناء الناحية وكان قد تردد على مصر كثيراً، ومدخله إليها مدينة الإسكندرية، إن الرجل إنما اقتدى المنارة الكبرى التى بناها ذو القرنين، وتعد من عجائب الدنيا السبع غير أن ما أعلنه السكندرى من إضافة متفردة جعلت الصومعة متميزة بخاصية لاتوجد إلا فيها، استوحاها مما سمعه يتردد عن مدينة الغرب المتنقلة. ذلك أنها عكس كل بنيان فى المعمور، كلما ابتعد عنها الإنسان ونأى كلما رآها البصر أطول وأسمق، يستوى الأمر بالنسبة للقادم من بعد قصى، أو الخارج من المدينة، المولى بعيداً عنها. وسيظل تعيين ارتفاعها صعبًا، غير مدرك بالدقة، بحيث تبدو لكل متطلع فى حجم مغاير، لمئات السنين المقبلة ستظل أعلى نقطة فى

البر المحيط والبحر الواقع على مسيرة يوم وليلة، ما من منارة كهذه إلا فى مدينة الغرب!

بمجرد أن أبدى السكندرى، وجلَّى أمره، جاهر الجهينى بما أضمره، أو بما قرره عند رؤية النموذج، قال إنه يقترح تعديل وضع الصومعة من الركن الأيمن إلى منتصف السور، فإذا وافقه صاحبه السكندرى على ذلك ستظللها غمامة بيضاء خفيفة، حريرية الطلع، طوال أيام السنة، صيفا قائظًا أو شتاءً زمهريراً، ربيعا ناعمًا أو خريفًا تعصف بأيامه رياح الشمال العاتية، لايمكن لبصر متطلع إليها إلا أن يرى ندف الغمام الأبيض وخلفها زرقة السماء الصافية، هكذا تنفرد بما لايوجد حتى فى مدينة الغرب. رغم أن عقبة حافظ على جدية ملامحه وجمودها طوال تحديقه فى النموذج المصغر، والذى يمكن من خلاله عد أحجار المسجد الذى لم يقم بعد، حتى إنه لمح مع التدقيق كتابة بالقلم الغريب، وعندما سأل، قال السكندرى، هذه حجارة من بقايا مبان كانت هناك يومًا، قال عقبة متسائلا:

كيف تقرأ هذه الكتابة؟

أجابه السكندرى:

«عكس لساننا.. من اليسار إلى اليمين».

قال عقبة:

«اقلبو الأحجار إذن، حتى يكون شكلاً لاغير».

ثم أفضى بالاستفسارات والحيرة تطوى ملامحه:

«هل يمكنكما إخبارى بالمسافة الفاصلة بين مدينتنا الجديدة ومدينة الغرب التى حدث عنها الثقاة..».

«هل باستطاعتكما إطلاعى على مدة تعلق الغمامة وملازمتها الصومعة ؟».

ثم قال:

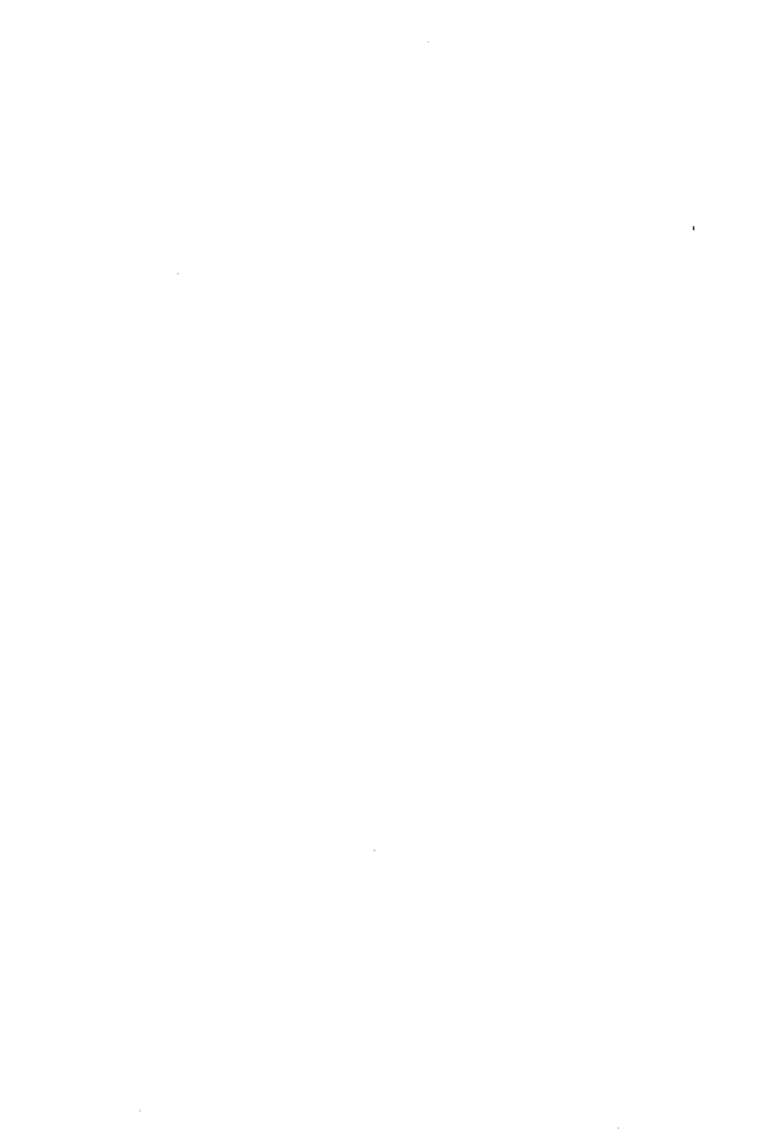
«إلى متى يبقى هذا المسجد؟».

تطلع إليه المصرى، وأطرق الجهنى، خلا وجه كليهما من أى تعبير، وعلى مهل، فى لحظة واحدة اتجها على مهل إلى الفضاء الفسيح، عند نقطة فى الفراغ علقت غمامة بيضاء، دانية قصية، ظلها رجراج، مائع على الأرض.



حكايــة

هــودج



أقضَّه أمرها وقلقل شأنه، شهران انقضيا منذ وصولها وعقده عليها، لكنه لم يمسها، لم يقربها، رغم أنها رهن إشارته، وطوع بنانه، إذا أومأ تجيبه، وإذا تطلع تنثنى إليه ملبية، وإذا أطرق فى حضورها تفهم عنه، لكنها بعيدة لا تزال جد قصية رغم أنها فى المتناول، غير أنه لايريدها مطوية، مغلقة الشفرات، صادة، دافعة وإن بدا منها غير ذلك.

الأمر دقيق. لكنه ماض، لايثنيه مايلقاه منها والصبر يكون جميلاً محتملاً إذا اقترن بالسعى والرغبة فى الوصول. يسأله المقربون، من تتيح لهم درجات اقترابهم منه عما يشغله، عما يجمد نظرته لحظة اتجاهه إلى نقطة ما، أو استماعه إلى شخص بعينه، لكنه لايفضى، يلمح، الأمر نزال يصعب البوح به، هو الآمر بأحكام الله، من تطيعه الجموع، ومن ينتظر الكافة رفة رمشه، وظلال التعابير على وجهه، هو السارى، النافذ ما بين الثرى والثريا، ما بين الظل وأصله، هو من هو تضعضع أمره تلك البدوية..

تلك؟

أهكذا يقترن الاستفهام المتزج باستنكار خفى، رصين، عند ورود فكرة عليها، عند طوافه بصورتها؟ إنها الملتقى، مجمع نساء الأرض، خلاصتهن، وفوحهن الأقصى. عليه أن يلزم حتى إذا خطرت له عند انفراده، عند انقطاعه عن الكافة واستحضارها بالمخيلة، بين المحيطين

به، المهتمين بشئونه وتدبير ما يتعلق به، نفر لهم حضور قديم في القصر، يقفون على مقربة إذا التقى بواحد من أركان الدولة. أو قاصد لملك أجنبي أو وافد عليه من هنا أو هناك أو طالب حاجة أو متولي شأنا، هؤلاء مدربون منذ بدء يفاعتهم على الإحساس به، مراقبة انفعالاته، ورفرفات ملامحه، حتى إذا بدا ضيق سارعوا، وإذا لاح وهن تدخلوا، وإذا بدر ملال من الإصغاء إلى متحدث أوقفوه، وإذا تجاوز أحدهم الحد ولو مقدار شعرة سارعوا.

مشكلته هؤلاء رغم أنهم عون مفترض ومدد حاضر ساعة وقوع الضيق أو استقرار العكارة. بعضم يتقن إدراك ما لا يمكن للآخرين بلوغه، ومن ذلك أحواله في الفراش، ما يرضيه وما ينفره، ما يقبل عليه وما ينأى عنه، ما يسعى إليه وما يتجنبه. لايصرحون له، بل يبلغون القيِّمات على نسائه. المشرفات على شئونهن، المتابعات لأحوالهن، لابد من دواء لديهن لكل داء، إنهن مدربات، خبيرات بما يسر وما يكدر، لكن أمره هذه المرة مغاير، يحرص على إخفاء ما عنده، أن يطبب بيديه وأن يتوصل إلى العلاج بغير مساعدة.

هواها امتداد، فمن هذه الناحية هي أصل وهي فرع، هي سبب ونتيجة معًا لسبب في محصلة لم تقع بعد. منذ بلوغه أقبل على النساء، عرف منهن أجناسا شتى، ارتوى في سن مبكرة، كان أبوه رحبا، متقنًا لفنون الحياة، جامعًا للأسباب الخاصة، كثير الصون باعتباره خليفة المسلمين وزيادة، ملك الناصيتين ،الدين والدنيا، وأراد لابنه أن يكون مثله فأتاح له ومكنه.

خبر البيض والزنج، الشقر والصفر، غير أنه تعلق بالبدويات، وعرف عنه ذلك ،أما الأسباب فأمرها غامض، والروايات في ذلك

عديدة، غير أن الشائع، المجمع عليه، أن بنية بدوية خلت به أو انفرد هو بها، لم يكن فى البداية متحمسًا لها أو مقبلاً عليها، كان خلواً من أى نزوع، ربما لهدوء ملامحها وانكسار حضورها، لم يكن مظهرها ينم عن جوهرها. حقا.. عرفت كيف تموه ثراء خبيئتها، وتقصى مكنونها عن كل عين متفحصة، لكنه ما إن ولج أفقها حتى اتقدت الحمية، وتدفق الوقود إلى المصهر، فاندمجت النواة فى الأطراف ولم يعد للدائرة من مركز، كانت رفرافة، هفهافة، يتخلق منها عند الإبحار بها ألف أنثى فلكل لحظة انتشاؤها وقدرتها على الغواية المتجددة، حتى إذا فارا لم يدر أحدهما أيهما الآخر، ولم يعد له من الأمر شىء فلا تفك أسره إلا بإذنها، وبعد ترطيبه بالماء الزلال، الحلال.

لم يعرف مثل ذلك فى غيرها، ومنذ تلك الليلة يبحث عنها فى كل من التقى بهن، جركسية كانت أو سودانية، صقلية أو هندية، مصرية أو من بنات الترك، اختفت ولم تظهر، حتى قيل إن أحد الخصوم دسها عليه ليعتاد مالا يمكن الإحاطة به، ليهوى النادر، صعب الشبيه، صحيح أنه أدرك منذ بداية مراحله أن لكل أنثى أريجها. وأن الملمح لا يتكرر، لكن لو اقترنت بالإقامة لتغير حاله وتبدل أمره، ذلك أنه منذ أن عرفها، واحتوته الجذوة الموقدة، صار إلى بحث دءوب فى البوادى، أطلق عيونه، وتتبع المصادر، من صحراء مصر الشرقية، إلى الغربية، إلى مفازة سيناء وحتى جبل الطور والحجاز، وغربًا إلى طبرق وصحارى تونس وامتدادات بلاد الغرب، حتى جاءت الأدلة بخبرها، عجوز من الرحل المتنقلين المعروفين بالغجر أو النوَر ولهم فى بلاد الصعيد سرحات وجولات. خلال إحداها مروا بسوق يقام فى مكان معلوم قرب منازل جهينة الكائنة عند آخر الحد المزروع جهة الغرب، تليها الصحراء الممتدة إلى أفق سحيق، لا يقصدها أحد ولا يجىء منها

أحد، وإذا اتاه فيها الجمل أو شرد لا يتعقبه أحد. لم تدل الغجرية بأوصاف محددة، لكنها قالت ما قدر على صوغه لسانها. إنما ليس مثلها مثل، ولا يمكن الإحاطة بمكنونها، ما خفى عنه وما ظهر، وفيما بعد فهم الأمر ما تعنيه المرأة، وعلم أنها لم تر من البدوية إلا عينيها وقوامها.

عندما دخل عليها بعد وصولها بيوم واحد كانت قاعدة. كأنها واقفة. مسومقة، غصينية، لها توثب ومنها نبع، كانت ترتدى خمار البدويات الأتم، محبوك، مزموم حول فمها وأنفها، نغم يسرى من الفراغ الأشم الذى يوجده تقدم أنفها المنمق، عصابتها لا تتجاوز العينين الشاهدتين على روعة الكون ومعجزة امتداده ليطل عليه بصرها الحاوى.

عينان لم يعرف مثلهما، سيظل تطلعهما إليه علامة فارقة فى مسيرته الدنيوية، ومنهما يلتقى إشاراتها الداخلية، فيسعد أو يشقى أو يتوهم أو يتأكد.

ظهورهما أوجز ما لا يبدو منها، بروزهما لا يمكن اعتباره جحوظا، إنما تجسد وتعيين كأنهما النموذج الأول الذى انحدرت منه سائر العيون والرؤى ما بينهما تلميح إلى بشرتها، درجة من البياض الشاهق، الضرعى، حليبى، بياضها مجمع، فإذا شاء رأى فيه سمرة أو شقرة، أو صهبة، أو حمرة أو صفرة وترددات علوية فيها أصداء فيروزية، وضعية طلتها تشى بموسيقية عنقها السارح، الغصنى، السيسبانى.

لم يدم مكثه بحضرتها إلا وقتا معلوما، رسائلها غزيرة، حاوية، ارتد إلى موضعه المطل على أفق العباد ومحل سعيهم ليستعيد على مهل ما رأى وما أصغى إليه رغم أن ما تبادلاه مجرد إيماءات، كانت ماثلة

أمامه، مصغية، متأهبة للتلبية، فلو شاء لقطف، ولو تقدم لجنى، لكن ثمة ما لا يمكن تعيينه أو تحديده حاشه عن ذلك، أحيانا يكون تمام تأجيل المتعة أجمل من النيل، من تحققها، حكى له أمير من بلاد الغرب عن سجنه مدة فى زنزانة لا يمكنه التحرك فيها إلا نصف خطوة إلى الأمام ومثلها إلى الخلف، تداخل عليه الليل والنهار حتى ضاعت الفروق بين الضدين، وحرموه أنواع الطعام التى اعتادها، فلم يملأ معدته إلا بما جهله، حتى أتاه الحارس يومًا بتفاحة، مستديرة، صفرتها مغيبية، صلابتها فى ليونتها، تناولها، شمها، تنسمها، لجلج فيما ينبعث منها، لكنه لم يقضمها، أبقاها، لو أكلها سيفقدها، لن ينسى ذلك أبدًا، إيقاع صوت الأمير وهو يقول بامتناعه ولم يسأله ليتم معرفته، هل التهمها فيما بعد أم احتفظ بها؟ الأمر مغاير بالنسبة للبدوية التى حلت به. فى اللحيظات الأولى التى تلت قطفة المشاهدة الأولى سعى إلى الانفراد ليمكنه الاستيعاب، رغم تعدد ما رأى، وما عاين، فكأنه يطالع اللبنة الأولى. النطفة الأولى التى انحدر منها سائر الخفق.

عينان غازيتان، نغميتان، شروقيتان وغروبيتان معًا، فيهما الامتنان والعتاب متجاوران، بقدر ما تضجان بالفرح المكنون تومئان فى الوقت عينه بأسى شفيف باعث للحيوية، مستنفر للقدرة، غير محبط، تتخلله أحزان شهبية، لم يغضب ولم يتعجل، إنها الأويقات المطالع، صعوبة البداية، صحيح أنها المعززة، المدللة، المرغوبة فى قصر الخليفة الآن. لها التسيد والمكنة، غير أن تبديل الأحوال وعر، فما البال إذا اتصل الأمر بمفارقة الأهل، والانتقال من زمان إلى زمان ومن مكان إلى آخر، غير أن حدسه حاد، وتقديره اختل.

ما بدر منها عند لقائهما التالى شحذه وأجج اهتمامه، عندما اكتمل

انفرادها وقعد فى واجهتها وسبح باسم الله، خالق هذا الجمال، ومبدع تكوينها الفرد، استسلم للحظات الكشف تلك، أروع ما تحويه الصلة، عندما يسعى كل طرف باتجاه الآخر، يتبيَّنه، يحاول إدراك خصائصه، يستوعب أبجديته.

كلاهما معا، لا هو خليفة متول على الخلق، متصرف فيهم، مدبر لأمورهم. ولا هى دوية. غريبة. ما يريده إقامة صلة وليس إشباع رغبة، فات زمن التهدئة باحتواء الجسد، التمكن الأتم، المرضى، لا يكون إلا بامتزاج ما لا يرى. لا يذكر عدد الأبكار اللواتى افتضهن، تتداخل الملامح عنده، عندما اكتشف منذ سنوات مايقمن به القيان المدربات. الخبيرات أبطلهن عن ذلك كان ذلك عرفًا مستقراً منذ عهود الأجداد المطهرين، بعد أن تستقر الجارية فى القصر. يجرى إعدادها وتجهيزها. تمريرها عبر بخار العطور العنبرية أو المسكية، مايفضله ولى الأمر، تجرى الأمور كلها طبقًا لما يحبه ويهواه، تحكى إحداهن عن عمه الذى غضب عندما وجد الجارية القبرصية منتوفة، ملساء، كان يحب بقاء الشعر وتحسسه ويصف حلقه أو اقتلاعه بأنه شبيه بالسلخ، أما جده الواثق فاعتاد أن يفتض بكرا مساء كل خميس، كان يبث العيون يستدل على كل ذات سنان فلجاء وشفتين مرتويتين، يرسل ليخطبها أو يشتريها، تصل قبل الخميس إلى القصر، يجرى دعكها وتطييبها، وفى الليلة المعينة تجلس معها القيِّمة ذات الخبرة، تنصحها بوضع معين، ألا تقاوم، أن تكون طوعه تماما. فإذا شاء أتاها من أمام أو من خلف، تصحبها إلى حجرة الملابس. تشرف على ارتدائها الثوب الموصلى الشفاف، لا شيء تحته، رغم أنه يلمح أكثر مما يصرح إلا أنه يبرز ولا يخفى. كان رحمه الله يدخل إلى الغرفة صامتا. يقبل على من أتته طوعًا أوغصبًا فلا ينطق كلمة. ولا يتبادل جملة، لا يبدى رسمًا أو

إشارة. وبمجرد إفراغه ينصرف إلى الحمام المجاور، وتبقى المفتضة ساعة على الأقل، بمفردها تمامًا، فى غرفة لا نوافذ لها ولا مخارج بادية. تدخل القيِّمة لتبدى الترفق والعناية، ولتسألها عما إذا كانت راغبة فى الإقامة بالقصر، أو العودة إلى أهلها على أن يصرف لها فى تلك الحالة مقدارًا معلومًا يكفل أمرها وشئون مولودها حتى يشب ويسعى. تعتبر مطلقة الخليفة، لكن.. لا يحق لها الزواج أبدا، أيهما تقبل؟ لا بد من حسم أمرها تلك الليلة.

عندما ألم بما كان يجرى أبطل ذلك. لم يبق إلا على عيونه التى تسعى فى البادية، وما تلك البدوية إلا ثمار سعيهم. ليته توصل إليها بنفسه، ولكنه يعرف تماما أن الإنسان لا يمكن أن يلم بكافة ما يرغبه، هاهى ماثلة أمامه، مصغية، فليبدأ طريقه صوبها، يعلم أنه لو أقدم على تجريدها الآن لما قاومت، لما.. واستدارت وساعدت، لكنه أحجم، لو أنها، أمامه منذ عشر سنوات لاختلف أمره، وما نأى كثيرا عن تصرف جده الواثق، لكنه الآن يفضل أن يصغى، وأن يرى، أن يتلمس، أن ينفذ على مهل إلى أدق خبايا الروح.

مالك ؟

ياه، أى شكاية صامتة؟ تمامًا مثل حضورها الذى لم يعرف مثله، يبدو اللوم فى عينيها والأسى، يلمس ذقنها مداعبًا.

ما بك ؟

تهز رأسها تميل إلى الأمام مطرقة، لم يقدر على منع نظراته من التجوال، متلمسًا مشارف قوامها، لم يألف مثل ذلك من قبل. لم تكن أنثى. إنما دولة قائمة بذاتها، حصن لا يسفر عما بداخله، باسقة،

متعددة الثمار، غير أنها قصية، أمامه ونائية عنه، هذا ما أدركه تلك الليلة وما انتبه إليه، إنها بعيدة بالروح أضعاف قربها بالحس، عندما خلا إلى نفسه وانفرد، يؤثر النوم بمفرده، يتحرر تماما فى هذا الحيز غير الفسيح، يتمدد فوق فراش به بعض صلابة، هذا ما نصح به طبيبه القبطى، اليبوسة أفضل، الجدران محكمة لاتنفذ منها الأصوات، والستائر مسدلة لا تسمح بمرور الأضواء إذا شاء وأطل على الحديقة التالية، فى لحيظات ما قبل نعاسه، تراءت له فأدرك أنه يرغبها، وأنه فى تعلق متين.

خاب سعيه وحادت الجهود عن مساراتها، كل ما دمره من الدخول فى أوقات معلومة، و بسط الأنواع النادرة من الكهرمان النادر الذى عرف تفضيلها له وإيثارها حباته حول جيدها ومعصميها . . مما عرف عنها طول تأملها لحباته وتعريضها للضوء، خاصة إذا امتزجت بالشوائب الأزلية المتدرجة فى ألوانها لكنها محتواة فى الصفرة الخصبة العذبة ، أرسل إلى أخميم، أفضل ما أتمته أنوالها من نسيج الحرير الذى يربى من أجل استخلاصه دود القز فى البرابى المهجورة التى تحرسها أرصاد الجن. وخاطب ولاة الغرب، أفريقية وتلمسان وفاس. لإمداده بفيض من بلح كهرمانى الطلع، شفاف كأنه صيغ من أنقى أنواع عسل النحل الجبلى، لا تطرحه إلا شجيرات نخل نادرة فى الواحات القصية، كانت تفطر بالتمر وحليب النوق، كما جاءه أهل ظفار وحضرموت بالعطور المستخلصة من الورد الجبلى والمسك البحرى وعنبر الحيتان النفاثة، لكنها لم تأبه بالدر الفارسى، ولا بالزجاج الصقلى.

صحيح أنها كانت تبدى المنة، وتطلق آهة إعجابها، لكنها سرعان

ما تعود إلى صمتها، إلى بعدها السحيق فى قربها منه، وتظل منحنية متخذة وضع التلبية، معلنة قابليتها لكل ما يريده منها، لكنه لا يقدم، يطيل النظر إليها. يتنسمها، يخفض ذاته تجاهها، غير أنها بقيت مستعصية. شرع أكثر من مرة فى الفعل المباغت، الجذب والإحاطة، لكنه أحجم باذلاً الطاقة للكبح وليس لإطلاق الخلق.

أحيانًا تتألق عيناها بوسن العرفان، وانبعاثات الرقرقة، لكنها إشارات غير كافية، يأمن عندما يتأملها، تتبعه خفقات قلبه إذ تتجوهر مكامن الحسن للبصر المحدق.

لم يدخل عليها إلا منبئًا بقدومه، لم يباغتها كما كان يفعل مع بعض جواريه خاصة صغار السن، لم يرقبها خفية كما اعتاد فترة ماضية، لم تكن صموتًا عن جهل أو قلة معرفة، استوثق حفظها أشعاراً كثيرة، وقدرتها على الغناء. لكنه لم يطلب منها الإصغاء. كان يرغب فى نزوع منها إليه حتى فى الأشياء الصغيرة، بل إن دقائق الأمور تلك هى المحور والمرتكز. لم يدر إلى متى استمرار هذا الحال الذى لم تلح أى بادرة تنبئ بوهنه وبدء تبدله، غير أن الأيام التى لا تبقى على حال بدأت عملها ولكن إلى حيث لا يرغب، إذ رصد صفرة الجدب فى عينيها، ونحولا بدأ وانكسارا ممتزجا بلوم. أقضه ذلك واعشوشب فراغه الأثير فجافاه الرقاد، عند حد معين لابد من البوح، هكذا أفضى إلى طبيبه ابن إسحق، طلب منه أن يتفحصها، أن يجس نبضها، أن يصغى إلى زفيرها، إلى شهيقها، لعله يحقق أمراً، بعد خلوة دقق خلالها ابن إسحق واستطلع. أوصى بشجر النعناع الجاف المسحوق المغلى فى ماء النيل، هذا ما أعلنه أمام القينة والوصيفات، لكنه عندما خلا إلى الأمر أفضى إليه بأمر وأخفى آخر، أما ما صرح به فسوء إقامتها، كافة ما

يحيط بها من وثارة لا يريحها، إنما يقضقض رقدتها. ويقلقل دخائلها. أمضت عمرها كله في البادية، تسرح الطرف في خلاء لم يوضع له حد، تستنشق هواء قادما من النبع رأساً. إن الجدران قاسية عليها مهما كانت كسوتها. رخام رومي أو حرير أخميمى، أطباق الفضة المطلية بالذهب. المنقوشة، الممهورة بشعار الخلافة تبطل شهيتها، إنها فى حاجة إلى الخلاء، أن تقيم الصلة مع السماء بدون وسيط، حجرا كان أو بشرا، أن تدرك الأفق بنظرها عند كل طلة، أن تتهودج، هذا دواء ناجع، وبيان لا يقدر أدق القوم عن إدراكه، لابد من الامتثال ليس من أجل بلوغ المرام، لكن لصون المحبوب، وإقصاء عوامل الهلاك.

للتدبير رجال، يعملون أفكارهم، يدركون المرام. من كافة الجهات، تفحصوا الأنحاء وعاد شادى المعمار المعلم بن المحسنى الرشيدى ليبسط بين يدى الخليفة ما انتهى إليه، ليس بالقول، إنما بالرسم والتجسيم.

لن يخرج إلى بعيد، هناك فى جزيرة الروضة، عند طرفها الجنوبى، حيث النيل فى عرض حالاته، ما بين بر الجيزة وبر الفسطاط، إلى الشرق فرعه وإلى الغرب مجراه السارى، يليه الشاطئ المنطلق عبر بر الجيزة حتى بلوغ الأفق، لا يقوم فى المواجهة إلا الأهرام، وإذا دقق مليح البصر سيرى صنم أبو الهول الذى يواجهه شبيهه الجاثم قرب المقطم، إذا مد بينهما خيطا لم تحد استقامته مقدار شعرة.

الخلاء المنجم بالأهرام القديمة، العلامة فى طرف الجزيرة سيقوم البناء، هودج معلق، تكوينه يسمح بالإشراف على الخلاء، بل إن النظر منه يضاعف المساحات ويطلق البصر إلى مداه. إذا استقرت فى أى جزء منه فإن اهتزازات تعبرها، تهدهدها، كأنها تقيم فوق ظهر بعير،

وإذا شاءت فكأنها معلقة، لا يكون الفراغ أمامها فقط، إنما تحتها، فوقها منه وله تهب رياح تخصه، تصفر وتأتى بذرات الرمال. وعلى امتداد الرقعة المحيطة تتوهج حرارة الشمس بما تبذله فى خضم الصحارى التى يعبرها البدر ولا يقدرون على الإقامة بها. بل إن تدبيرا تم عمله لتوفير الروائح والنفحات التى اعتادتها وهذا غير معهود، لم يتفق لأحد من قبل، ولم يقدم على مثله. أمران اقتضيا جهداً، توفير كل ما ألفته من أريج وعطر. والثانى رعاية فسائل النخيل التى أرسلوا فى إحضارها من بلاد الغرب، لرؤيتها التمر المفضل متدليًا من سوباطاته. أعمل المحسنى تدبيره وأظهر الهمة فى الاطلاع على ما تناقلته المخطوطات القديمة. والمرويات السائرة عن غرائب البنيان، ألم بكافة ما قيل عن الأهرام والحدائق المعلقة وبستان الخضر ومدن الليل وعمارات النهار. وأقسم بإضافة أعجوبة لا مثيل لها، إذا فنيت بقيت بذكرها. واذا بادت أو اندثرت احتوتها الأمثال المتناقلة، أطلع الآمر على كافة ما شرع فيه وما أضمره، كان يخط رسالتين بما يجرى ويتم. الأولى فى مطلع اليوم والثانية مع انحلال آخر ضوء، فى كل لقاء لم يكن عسيراً عليه ملاحظة الأمر المتعاظم واستغراق الخليفة فى يمها رغم قدرته الهائلة على إقصاء ما يعتمل داخله عن ملامح وجهه، لكن نبرات الصوت كاشفة، واتجاه النظرات دال، وتصاعد المطالب والسعى إلى التفرد، وبالرغم من قصده ذلك، إلا أن ما طلبه الآمر أدهشه وحيره!

الحجارة من المكان الذى وفدت فيه إلى الكون المنظور، فى ذلك اليوم المعلوم، المقدر، كانت قبيلتها ناحية الغرب، فى موضع يمكن منه رؤية البحر، يبدو فيه الموج كالفيروز المصهور، المتدافع، المصدود عن الشاطئ، الرمال اللازمة جاءوا بها من هذا الموضع، لم يكن ثمة

محجر قريب، أقرب مصدر يقع فى جبل الطير، الطريق إليه غير ممهد، أرسلوا إليه من رتبه واقتطع ما يكفى ضعفى البنيان، حجر أبيض أملس لا مثيل له، لم تعرفه سائر المدن المصرية والدور المبنية. وكأن ذلك لا يكفى فوجئ المحسنى بالآمر يطلب منه أن يعجن الملاط اللاصق للأحجار، الواصل بينها باللبن الفائر، وأن تخلط مواد الطلا، بعسل النحل الطازج، وأن تستحضر الألوان من الفواكه النضرة ذات العلاقة، والأعشاب النادرة المتوحدة فى البرية، أراد لها أن تتابع البناء، أن تشهد ظهوره خطوة خطوة ولحظة إثر لحظة، كان معنيًا برصد أى إشارة دالة، انتقل إليه سرورها. استبشر خيراً بتعاقب انفعالاتها، وسرحاتها فى الجزيرة، غير أن تحديد معالم البنيان لم يكن سهلاً أو ميسورا، العناصر متداخلة والمواد متشابكة. الشغل عمال والقوافل وافدة، وكان العالمون بأمور الهندسة يمرون قرب الجزيرة ويتطلعون إلى ما يجرى ولا يمكن لأعتاهم خبرة أن يستنتج ما سيكون. رغم توثبها وإظهارها الدهشة الطفولية، خاصة عندما وقفت على عطر البلح الذى استخلص من التمر لتعطير الفراغ به، وهذا ما لم يعهد مثله أو يسمع به أحد، غير أن اللحظة الموجودة لم تلح بعد، يعرف تماما انبهار الأنثى بما يصدر عمن تهواه وتهيم به، وما تظهره عند تلقى علامات المحبة من هدايا ثمينة، أو أفعال غير مطروقة. أو أشعار منظومة، أو سطور منثورة، كلهن يؤثرن الدلائل والعلامات حتى لو كن غير متعلقات أو خلوا من الرغبة. وهى رغم تفردها الضاج اللاقط، إلا أنها ليست استثناء، أظهرت سروراً لكنه عابر، وأبدت دهشتها الطفولية، رآها فى أقصى درجاتها، توثبت حتى كاد يخرج عن وقار الخلافة، لكنه أرجأ هذا كله إلى الحين الذى يدرك ويوقن من إحاطته بها، وإدراكه لعميمها، حتى الشروع فى البناء، واتصال العمل فيه لم يبلغ منها ما

يهدئه ما يسعى إليه، وحتى ذلك الحين تحمل بمفرده تبعات نزوعه، ولم يبح بما يثقله لأقرب خاصته، رغم سعى بعضهم إلى التخفيف، لكنه حاد عن الإطار وأبدى الجفوة لمن أقدم على استحياء حذر، لم يبح، لم ينطق مع علمه الأتم أن العاشق يلزم له الإسرار إلى من يثق به. فى ذلك تخفيف وتلطيف، لم يعرف طوال عمره وتقلبه عبر أحوال شتى وحدة كتلك التى أحاطته وغمرته، لم يخفف منها ذلك الجمع القريب، البعيد. وهذه الجهود المستنفرة لتلبية كافة ما يرغب ويطلب، كان يتابع تنفيذ الهودج ويبدى أقصى العناية، يوميا يركب إلى الجزيرة على الأقل مرة، وربما فاجأ العاملين ليلا، يتفقد ويتمعن على أنوار المشاعل، يمكن القول إن شغله كله صار محوره وبؤرته، كان موقنا أنه عند لحظة معينة سوف يحيط بها، يمتزج بها تماما، وأن شرودها هذا سينتهى عند حد معين، لن تستمر بعيدة فى قربها منه، غريب أمرها حقًا، فلماذا لم يتفق هذا لغيرها من قبل؟

ظهورها جالب لحين موجع، آسر، يستولى عليه، ويرقق سائر الموجودات، ألف نظراتها وعد فى حد ذاته، بقدر سعيه نحوه ينأى عنه، عند لحظة محددة اختلط عليه الأمر، حتى إنه لا يجد إجابة شافية إذا واجه نفسه بالسؤال، لماذا سعى إلى تشييد الهودج؟ لماذا أقدم على استحضار مفردات عالمها بمكانه وزمانه رغم أنه غير قادر على استعادة قبس من لحظة مولية من أيامه هو؟ لم تطلب ولم تبد أى رغبة، إنما سعى إلى إرضائها، هل أراد الفرار من مستحيل يصعب بلوغه إلى مستحيل لا يمكن إدراكه؟

إجابة شافية مع أن البنيان على وشك.

طلب المحسنى شاد العمائر إيقاف مرور الإنسان والسراب وسائر ما

يسعى ويتحرك عدا الطير فى الهواء، والأسماك فى النهر، إبطال المشى فى كافة الطرق القريبة التى يمكن منها رؤية ما يجرى ولو من بعيد، كما صدرت أوامر إلى القوارب التى تسهل عبور النيل، وأبطل صعود المؤذنين إلى المنائر، وأصحاب أبراج الحمام المتابعين لحركة أسرابهم، الملوحين بأعلامهم. منع تسلق الأهرام من القادرين عليه أو الزائرين من بعيد، كذلك طلوع النخيل. المشرف. أو بلوغ ذرى الأشجار.

فى اللحظة المحددة بعناية المنجمين المهرة طارت أسراب الحمام بالبطائق الحاوية للرسائل إلى الشام والجزيرة وبلاد الغرب، مخبرة باكتمال الهودج. بظهورعجيبة ثامنة لا يمكن تجاهل سريانها ومثولها. من مقر الإقامة خرج بصحبتها يتقدمه الحرس المقرب. الملازم له فى اللحظات الحميمية، وعدد قليل من الوصيفات، والقائمين على الخدمة الضرورية، كان الصباح الحال بالكون مبشراً ومشيراً، مس من برودة، لكنها منعشة مبرزة للمطلع، للبدء الكونى، أول أمس دخل عليه الوزير المختص بالدقائق وهذا منصب لا مثيل له فى سائر الدول والممالك. حيث يقع الاختيار على رجل كبير السن. حاضر الذهن، وافر العزم، يمكنه الدخول على الخليفة فى أى وقت ليلاً أو نهاراً، وإذا كان ما لديه حرج يحق له إيقاظه من السبات أو إنهاء خلوته مع من يهوى، إنه الوحيد فى الدولة الذى يمكنه إبلاغ الخليفة بأخطر الأمور وأدقها وأرهقها، ما لا يجرؤ البعض على مجرد التفوه به سراً إلى ذويهم وآلهم.

جاءه طالبًا الخلوة فأمر بها. مال عليه لينبئه أن العيون والأرصاد تمكنوا من تحديد الشخص الذى تهواه البدوية.

من؟

ابن عم لها.

اسمه؟

المياح.

صفاته ؟

يماثلها عمراً، مشهور عنه قدرته على تلقيح النخيل فى زمن السفاد، له إحاطة بكافة ما يتعلق بالنخيل، يرسلون فى طلبه لمداواتها إذا ظهر عطب، أو حل داء خفى؟

أين الآن؟

طافش، هائم على وجهه، ربما فى الواحات القصية، أو لاجئ مستجير بأهل النوبة، وربما يجوس بالقرب من القصر، لا مكان يعرف له، اختفى منذ خروجها تلبية للرغبة العلوية التى لا يمكن ردها أو منعها، أدرك أنه مطلوب يومًا ما.

لم تكن مهمة المبلغ مقصورة على الإفضاء بما عنده فقط، أحيانًا يبدى المشورة، ولأنه أول من تحدث فى الشأن أصغى الآمر إليه وباح بقليل من كثير عنه، لم يعرف الوحدة والعزلة فى حياته كما كابدها منذ أن وصلت تلك البدوية الفارهة، إنه محاط بالخدم والحرس وأركان الدولة والندماء على أهبة التلبية، لكنه بعيد، وأصعب الوحدة ما كان بين القوم، يراهم البصر والخواطر تحول وبعض الإنسان يعوق بعضه، العاشق لابد له من الحديث، خاصة إذا لم يقع التوحد بالمحبوب، لاحت الفرصة فلم يضيعها، تطلع إلى المبلغ بوهن مستفسراً عن الممكن، خاصة أن الهودج أوشك على التمام وبعد الزيارة الأولى لاحظ فتورها واستئنافها الرحيل غير المرئى، واستحالتها.

قال المبلّغ إن ملكا من ملوك الهند استعصت عليه جارية لتعلقها بعاشق يقيم فى مدينتها، أرسل فى طلبه، وأتاح لهما الخلوة، غير أنه دس السم البطئ للحبيب المتيم، المرغوب، شيئا فشيئا فشا المرض فى ظاهره وباطنه، راح ينطفىء على مرأى منها ومسمع، إلى أن استحال إلى عبء ثقيل بعد أن كان جسراً متينًا وربوة زاهية. وعندما ذوى تماما كان التعلق قد تقلقل، والمحبة رغم الحزن تهن. شيئًا فشيئا، وفى اللحظة المواتية نفذ الملك بلفظه وجميل عنايته فتمكن وأرسى.

قال المبلغ إن أميرا من رجال الصين، كان متوليا على ناحية شاسعة استعصت عليه مغنية، ضاربة للدف، عازفة على الجنك، ولما أدرك تعلقها بمغن من ناحية أخرى، أطلق الأعوان فى إثره، رصد الجائزة المغرية للإيقاع به، وبعد أربعة عشر شهرا أوقعوا به، وأرسلوه إليه محبوسًا فى قفص من حديد، لكن البنية الهيفاء ناحت عليه ولم ينفع معها جهد أو سعى.

قال المبلغ إن ملكا فارسيًا قديمًا، تأكد من عشق امرأته المحبوبة، المقربة لغيره، خلا بها فى مكان قصى، وأجهز عليها وهو يرثيها ثم قال فيما تلى ذلك إن امتلاك الشىء يكون أحيانًا فى فقده!

ليس لها أن تبدى عذراً.

تعرف الأخبار الأولى والوقائع المتينة وغرائب ما جرى فى الأزمنة القديمة، ما شيده الآمر من أجلها مؤثر، جليل وعجيب، من أجلها هذا الهودج. ليس من قماش وإن كان يبدو من بعيد كذلك، معلق فى الفراغ، هكذا يراه القاصى والدانى، ما يستند إليه خفى، أساسه بعيد، حساباته لم تطرق من قبل، كل ما فيه متعلق بها فإذا رغبت فى خلاء امتد أمامها فسيحًا، طليقا، لا يحده حتى أفق، وإذا اشتد القيظ أو

البرد تتبع الحرارة ما يريحها ويهدئ أحوالها، كذلك درجة الضوء، إن شاءت توهج حتى ليلغى الظلال وإن ضاقت خفت وبهت، وإن أرادت أعتم فى ذروة النهار، تتعاقب الروائح طبقًا للأوقات التى عهدت والمصادر التى اعتادت، بدءا من خواص الرمال فى الأحوال المتعاقبة. راكدة أو سافية. ذارية أو . . . إلى رائحة الخبيز من دقيق مخلوط بماء، وخميرة وما قبل دخول الفرن، مراحل الوقيد وخروج الأرغفة زاهية، متفجرة بالمذاق الشهى، هبوب النسمات قبل الغروب وسرحات الرياح بين المضارب، وعبق المياه فى قاع البئر، أو الأريج المصاحبَ لتدفقها من العيون الباردة أو الساخنة، يسرى هذا على الأصوات، كافة ما عرفته من هديل حمام أو ثغاء شاة أو حنين نوق أو عواء ذئب فى الليالى أو هسيس جراد عابر.

يهتز الهودج إذا شاءت، ويثبت عندما تريد. يستقيم إذا وجدت راحتها فى ذلك ويميل لحظة رغبتها فى الانتقال القديم. فكأنه واقع الآن.

كيف تم تدبير الأمر ؟

كيف جرى هذا كله؟ من أين أمكنهم توفير اللبن والعسل وماء الورد للخلط بمواد البناء بدلا من المياه، كيف جهزوا تلك الأسقف التى يمكنها أن تتراجع بمجرد ورود الخاطرة. بحيث ينفذ بصرها إلى السماء مباشرة.

الألوان طوعها، كافة درجات الرمال الصفراوية فى لحظات النهار المختلفة، صيفية خلو من الغمام أو شتوية رمادية أو ربيعية جاثية تحت الخماسين، فى لحظة تختفى ألوان الأشجار والأطياف وأمواج النيل والضفاف وأطياف السعف فى الأعالى. تبدو الكثبان والتلال

والأمواج المتوالية من الذرات المتجاورة، تحتوى الصحراء، تطاوعها اللانهاية التى يصارعها قومها منذ حقب لا نقدر على تحديدها هذا ما لم يجل ربما فى خاطر المصمم المبهر لهذا البنيان الأعجوبة، لم ترغب إلا فى خلاء ممتد بدلا من جدران القصور الشاهقة، ونوافذ الغرف التى تحدد وتقيد أكثر مما تكشف وترشد. لم تتصور قط أنها ستحتوى الفراغ عينه، لكن..

يستعد الآمر لمغادرة القصر الشرقى، ميممًا صوب الهودج القائم عند الحد الغربى، يفضى إلى مدبر القصور بأمره، ما يرغبه ألا يوجد أى إنسان لحظة وصوله، حتى الخصيان الملازمين له. الواقفين بأبواب الغرف المخصصة لنومه. لا يريد وجود أى إنسان ،ذكر أو أنثى فى الجزيرة. يخرج عند الأصيل، بمجرد عبوره الخليج، ينبسط الخلاء منطلقًا، فسيحًا، يلوح الهودج للمحدق، المدقق عبر المسافة الفاصلة، معلقًا، ما يحيطه فراغ، لا صلة له بما فوقه أو تحته، متكوكب فى ضوء الأصيل السارى.

مصطلح

أســاس



لا تقوم عمارة بدون أساس .

حقيقة مدركة من قديم ، وإن غاب عن الغارقين فى التفاصيل

جوهرها ومعناها .

كل بنيان ظاهر ، لكن أساسه مدفون ، غائب .

إذن شرط السفور والامتثال والقيام هو الغياب ، وإن لم يدفن الأساس جيدا لما علا البنيان ، وعلى قدر متانة الغائب يكون مقدار الظاهر .

الأمر بسيط ، ميسور ، فإذا أردنا إقامة بنيان من ستة طوابق ، يكون الخفى منه محتويا لقدرة وطاقة توازى ما ينتصب فى الفراغ ، فإذا اختل التوازن الدقيق بين ما هو هناك ، وما نراه هنا ، يخيب المسعى ويجرى الانهيار فى اللحظة غير المقدرة ، غير المتوقعة ، والتى يصعب التنبؤ بها .

إذن . كل ظهور يقتضى غيابا ، كل مثول لابد له من قرين لا يمكن الاطلاع عليه إنما يمكن تقديره ، أو التنبؤ به ، أو تخيله ، فإذا أقدم الإنسان على المحاولة وحاول نبش الأساس لابد من انهيار البنيان أو إزالته أو إضعافه ، هتك المخفى يعنى إذلال الماثل المرتبط به وتوهينه . كل بنيان مأوى إما لبشر يسعون ، أو ماضين ، أو رحلوا ، أو لمعنى مثل النصب التذكارى ، والشواهد ، والأبواب الوهمية ، ولا يأوى إلى الحيز المحدود إلا كائن وإنما المعنى هنا الإنسان فلا طاقة له على إدراك تفاصيل ما ظهر وما خفى من صلات الحيوان والطيور والحشرات بالموضع .

ربما يمضى الإنسان عمره فى بناء يرى يوميا جدرانه ويستظل بسقفه، ويؤدى الطقوس أمام الأبواب الوهمية، يقدم على أداء هذا كله ولا يفكر لحيظة فى الأساس المخفى الذى يسند ويحمى ويبقى!

ليس الأمر مقصورا على العمارة، إنما يشمل الأمر سائر الكائنات والإنسان منها طبعا، ذلك أن كل عمارة تكوين، أى تركيب، كذلك من يسعى إلى حين، ذكرا كان أو أنثى، الإنسان تكوين وتركيب أيضا، وكل عمارة لاتقوم إلا على أساس ولا يتم مثولها وسعيها فى الفراغ إلا بإشباع الجذر وتجهيزه للتلقى وتحمله بعد تمام غيابه، تلك العمارات الظاهرة وطيدة، إنما ترحل فى ثباتها، وترى الجبال ثابتة، لكنها تمر مر السحاب، فكل مكون ومركب مصيره إلى انفراط.

الإنسان تكوين، هذا مفروغ منه إذن. . أين أساسه؟ إنما نعنى الأساس المتين المبدئى الذى انحدرت منه الخلايا وسائر المكونات، وإذا تمكن الإنسان فى مرحلة ما من مسار وجوده من التوصل إلى معرفة أصله ومنبته، إدراك أساسه فهنا ينهار ماهو ظاهر، هل ثمة شرط أبدى، إجبارى، إذا أدرك الظاهر منبته توارى وجوده كافة.

هل بالإمكان إدراك أساس الإنسان؟ أصل العمارة الكبرى التى يسعى فيها، وتتحرك فيها الكواكب والنيازك والشهب والنجوم والمجرات، وكافة ما يدفع الإنسان فى مراحل عمره المختلفة، من طفولة وصبا وكهولة إلى التطلع أو تفحص ما يدب عليه، وترديد الاستفسارات الحائرة والأسئلة الميسرة فكل سؤال نطق وكل نطق باعث على الراحة وإن لم يتلق الجواب، لذلك نكتفى بالترديد: هل تحين لحظة تجمع بين ما يخفى وما يظهر؟

حكايـة

جهـات



قمرى يهدل.

صوت قديم وافد من خبايا الذاكرة، سطح البيت القديم، أفق المدينة الفسيح، زرقة السماء المنطلقة، وقفة اليمامة الآمنة عند الطرف القصى، صوتها يؤطر المرحلة.

يفيض دهشة وسكينة مهدهدة بعد تمام الإفاقة، بعد اجتيازه تلك الممرات المصاغة من ضوء يمت إلى لون لازوردى وما هو بلون، تردد تلك الأصوات التى لم يعرفها، توارت كلها مفسحة الأفق لذلك الهديل المرتبط بلحظة نهارية، قاهرية، مستحيلة الآن، لكنها ممكنة بعمل الذاكرة الخفى.

مستحيل إدراك الصور والرؤى المتوالية، المتعاقبة عليه : الآن، تتدفق عليه مع كل لحظة تنقضى بعد تمام الوعى وإمكانية التلقى، لا يعرف أى إنسان ما يمضى عبره تماما كما يجهل ما يتدفق إلى الآخرين، المماثلين له من مواقف ولحيظات، لكل تراثه الخاص جدا، مستحيل اختراقه أو الوقوف على ما يحوى.

من رقدته يتطلع إلى من يمكنه رؤيته، ثلاثة من الزنوج الأشداء يحيطون به، طوال القامة، يرتدون القميص البنفسجى والبنطلون الأبيض، الزى الخاص بالمرضين المسئولين عن نقل المرضى.

إنهم مدربون، متخصصون، ثمة لحظات حرجة، ما بين انتهاء

العمليات الجراحية والاستقرار فى غرفة الرعاية المركزة، بدء نقل المريض من منضدة الجراحة إلى السرير النقال.

خلال تنقله من معمل إلى آخر، من جهاز فحص إلى جهاز، قبل إجراء الجراحة، كان يرى تلك الأسرة المتحركة، غرف عناية متنقلة على عجلات، خمسة أو ستة متخصصين فى النقل، يذكر أحدهم، كان ممسكا بقربة بيضاء منتفخة، يبدو أن لها صلة بالأنفاس وترددها، لابد أنه مر بمثل ذلك، انحنوا عليه، أحاطوه، دفعوه، مددوه وهو حاضر، غائب بوعيه.

سريره الآن مغاير، متنقل، لكنه أبسط، ما من خراطيم متصلة به، لوحة المفاتيح إلى جانبه بلمسات خفيفة يمكن الرفع أو الخفض، أو نداء الممرضة، جهاز صغير مثبت إلى صدره، متصل بأسلاك تنبعث منها الإشارات إلى عدة مراكز وشاشات ترسم ما يجرى داخل القلب الذى لا تزال جراحه طرية.

مصعد فسيح بطىء الصعود، مستطيل، حركته أقرب إلى الهدهدة، يدفعونه عبر الممر المؤدى إلى الغرف، حجرة فسيحة، ستارة تقسم فراغها، مريض آخر لا يعرف عنه شيئا يرقد خلفها، يلمح قدميه فقط.

يتعرف إلى مفردات الوجود من جديد، هذا تليفزيون مثبت إلى الجدار، مرتفع، يمكن للراقد رؤيته، تلك باقة ورد، منضدة صغيرة عدادات مستديرة، أخرى مستطيلة، مؤشرات، أزرق فاتح لون الجدران، سقف أبيض حليبى، ضوء النهار يتخلل النافذة العريضة يتسرب إلى الفراغ خافتا، ناعما، ناشرا السكينة.

منذ ثلاثة أيام وقف أمام المبنى الذى يغلب عليه اللون البنى من

الخارج، أشارت المرافقة إلى الطابق الأخير، إنها غرف الإقامة خلال الأيام التالية للجراحة، تطول المدة أو تقصر طبقا لكل حالة بعد اجتياز ساعات الخطر والفترة الحرجة التالية مباشرة.

إنه مغمور بالضوء النهارى المطمئن، الباعث لرضا غامض لم يعرفه من قبل، ممتن لكافة ما يسعى حوله أو داخله، للوجود كافة، يود لو عانق المحسوسات واحتوى المعانى مرحبا.

إنها وفادته الثانية للكون، لكنه هذه المرة قادر على تمييز الأشياء من النظرة الأولى، لا يحتاج إلى تلقين أو إيضاح لما يفرق الأبجدية عن بعضها، لكنه حائر بدرجة ما، ، ثمة شىء مقض لا يمكنه تحديد مصدره، كأنه راحل بوسيلة لا يعرفها، مار بمحطات لم يخطر بها من قبل، لم يتضمنها دليل.

تقبل الممرضة.

تميل عليه، تقول إنه لن يمكث فى هذه الغرفة طويلا، إنهم يجهزون غرفة أخرى مجاورة، إنها مفردة، له فقط.

هذا أفضل.

يجول بعينيه، يتلقى الضوء النهارى الرائق، الصافى، يستوعب المرئيات وأصوات المكان، ملامح مبتسمة، معنية به، يعانق الجميع بالصمت، يتودد اليهم بغير نطق، هم عنده طلات وملامح، لايعرف أصحابها، غير أنه ممتن، راغب فى القربى والتلقى.

رغم الستارة التى تقسم الغرفة، إلا أنه ألم بمساحة من النافذة، ليست نافذة بالضبط، إنما جدار زجاجى، يبدأ بعد حوالى متر من

الأرضية، يستمر إلى السقف، زجاج شفاف، يعبر بالبصر إلى الفضاءات البادية.

أشجار كثيفة، خضرة كاسية، مرتفعات متوالية، أزهار فى مستطيلات محددة ومربعات ودوائر، بيوت خشبية، سقوف القرميد المحدبة، تفد إلى ذاكرته ناحية عتيقة من مدينته القصية، النائية، أحجارها رمادية، معتقة، مثقلة بالحنين، إنها الضلع الجنوبى من مسجد وضريح سيدى مرزوق الأحمدى، تحدد بداية شارع قصر الشوق ومدخل الطبلاوى، لا يمكنه تعيين الوقت المؤطر لها، الذى يتخللها، إنه الصباح، إنه العصر، إنه الضحى والأصيل معا، نهار، بأكمله مختزل هذا أول توق يلى الإفاقة وإنه لنافذ!

ممرضة تمشى على حواف قدميها، تمسك أوراقا، تتطلع مبتسمة، يتقدم اثنان، لكنهما ليسا من جاءا به، لا يرتديان قمصانا بنفسجية اللون، إنما خضراء، أحدهما أصهب الشعر، الآخر سمرته داكنة، ربما من الكاريبى، أو أحد بلدان أمريكا اللاتينية.

يسحبان السرير برفق ودربة، طقطقة العجلات، يلمح قدمى المريض الراقد خلف الستارة، لم ير وجهه، لم يعرف شيئا عنه، باقة زهور، فى المواجهة ممر عريض، أبواب الغرف مفتوحة، سقف أبيض متأثر بالأزرق.

هل ثمة صلة بين الممرات الزجاجية اللازوردية وهذا الضوء الناعم الوثير الخالى تمامًا من الظلال؟

كيف يمكنه القطع؟

كيف وهو يتعرف إلى أبجدية الوجود ومفرداته من جديد، إنه فى

حاجة إلى استعادة متمهلة لما علق بذهنه عند عبوره من الغياب إلى الحضور، تفحص ما عاينه، ما وقف عليه، ما أصغى إليه، أصوات أقرب إلى صلصلة المعادن، أصداء أجراس بعيدة.

يستديرون بالسرير، يغير باب الحجرة المفتوح، مجاورة، لكنها أقل حجمًا، لا يوجد بها إلا سريره، يتأكدون من وضعه، يصل الأصهب أسلاكًا بأخرى، إلى الخلف شاشة معلقة، مثبتة، عليها خطوط متعرجة، تتقدم لتتراجع وتبدأ من جديد، سطور بادية، أرقام، علامات، لابد أنها ذات صلة بالجهاز الصغير مربع الشكل المثبت إلى صدره، موضع الجرح يغطيه شريط أبيض لاصق، عريض، خفيف، لايشى قط بحجم ما جرى.

يقول الأسمر إنه يمكن الضغط على الزر لاستدعاء الممرضة المسئولة، ابتسم، قال إن اسمه «ليتل» يتمنى إقامة طيبة وشفاء سريعًا، يومئ مسرورًا، موجها امتنانه الشامل إلى هذا الإنسان الذى أبدى ودا واهتمامًا فى تلك اللحظة، ربما لن يراه مرة أخرى!

الجدار النافذة

لكن.

هل ينزل الليل بهذه السرعة هنا ؟

كم استغرق انتقاله من حجرة إلى أخرى، لم تنقض سوى دقائق، هناك نهار مكتمل، هنا ليل أتم، يغمض عينيه، يفتحهما، أضواء متناثرة، المؤكد أن الغرفة على نفس الجانب، إنه يرى ترقرق أضواء، بحيرة ممتدة، هل فقد الإحساس بالوقت أثناء دورانهم بالسرير؟ ربما.

ليل ساج، كأنه ممتد، لا يسبقه نهار ولن يعقب صباح، يلمح ضوءًا أحمر يعبر الأفق.

طائرة؟

ربما .

أنفاسه موجزة، متسارعة، أحيانا تقفز دقة معينة كأنها تحاول اجتياز الأخريات، كيف يبدو قلبه الآن داخل صدره؟ كيف تبدو الجروح والخيوط الماسكة ؟

يلتفت إلى النافذة، لا . إلى الجدار الزجاجى، إلى الليل المحير، يقابله مستلقيا، متسقا مع وهنه، راضيا تماما بما جرى، مطلعا على ندرة لحيظاته تلك، محاولا وصل ما كان، لكن . .

نهار هناك، ليل هنا . .

إنها الحيرة الأولى فليتلقاها هادئًا، منبسطًا، مؤكدًا أن الحجرة محاذية للأخرى، نفس الجانب هل فقد الإحساس بالاتجاه والوقت خلال دورانهم بالسرير؟

ربما .

يستسلم إلى الرقاد، لكم احتاج إلى هذا الخلاء الممتد، إنه واهن، لكنه هادئ، متودد لكافة ما يراه، ما يقع عليه بصره، البشر، الأشياء المتموضعة والمتحركة، النبات، الفراغات، أما الألوان فكأنها تخرج مكتملة من عنده .

أزيز خافت لا يدرى مصدره، يغمض عينيه، ويفتحهما . .

بالتأكيد غفا .

ضوء خافت يغمر الخارج، ليل مقبل أو مدبر، لا يمكنه القطع، فى يوليو يتأخر الغروب فى تلك المناطق الشمالية إلى الحادية عشرة ليلا،

سحابات خفيفة فى السماء، متفرقة، متباعدة، لا تنبئ، خلال لحيظات يبدأ توافد النجوم، تكاثفها فى وقت وجيز، يرى ما قرأ عنه، عندما أراد الإلمام بأحوال المكان، تعاقب الفصول الأربعة فى يوم واحد لاضطراب الطقس.

تتكاثف الغيوم، تدنو من الأرض، رماديتها غامقة، تطوى ما وهن من ضوء، لم يفكر فى تحريك الستائر الخفيفة أو الثقيلة، يمكنه بضغطة يسيرة، خفيفة على مفتاح ملون باللوحة المثبتة فى كلا الجانبين، إنه تواق إلى احتضان الكون، بهدوئه وعواصفه، يكفيه الآن. . النظر، المبنى متين، مقاوم للصواعق، معزول عن كافة المؤثرات الخارجية غالب عليه اللون البنى. قبل دخوله لإجراء الجراحة تأمله مرارا، حفظ اتساعه، الطابقان الأول والثانى للفحص، الثالث والرابع مندمجان، يضمان غرف الجراحة المعدة، المرتفعة، تنظيمها يقتضى هذا، الخامس للفحص النهائى، السادس والسابع للرعاية المركزة، الثامن والتاسع والعاشر، لإيواء المرضى، مرحلة تلقى العلاج والتأهيل للخروج إلى الحياة اليومية، الطوابق العشرة مخصصة كلها للقلب، ثمة مبان ملحقة يتم الوصول إليها من خلال ممرات وجسور صغيرة مغطاة، مراكز بحث، معامل، مكاتب لا يعرف محتوياتها، كان يرقب ما يمتد إلى المكان برهبة وحذر خلال تنقله من قسم إلى آخر من موضع إلى موضع، كافة ما يطلع عليه له علاقة ما به، صلة، المبنى يومئ ألوانه بالعتاقة رغم حداثته البادية، لا يوحى من الخارج بما يضمه من ممرات طويلة وصالات متعاقبة وأقسام ومعامل تحليل ومطاعم عديدة، يبدو لمن يراه من الطرق المحيطة صغيرا، مجرد بناية لاتفصح عن ضخامة أو تعقيد. هنا فى الطابق العاشر، الأخير يشعر بارتفاع سامق، كأنه تجاوز المائة طابق، أحيانا يخيل إليه أنه مجاور للأرض، إنه يستعيد واجهاته

التى توقف ليتأملها مرارا قبل ولوجه للجراحة، لكم توقف، وتطلع، وتأمل.

«فى غرفة ما سيشق صدرى، ويمسك الجراح قلبى، يخرسه وينطقه.. فى غرفة أخرى سأغيب عن الوعى فترة لا يمكننى تعيينها.

فى حيز لا أعرفه سأولد من جديد، كم ستمتد إقامتى.

لا أعرف».

ها هو يستعيد ما كان منه فى مواجهة العاصفة التى تتكون بمحاذاته، على مرأى منه، لينعم بالرقاد مهما بلغ الوهن، ليتمدد راضيا، مرضيا، مهما قصرت الأنفاس أوتعثرت أو اشتدت تلك النفرة المفاجئة والتى تجيئه من حيث لا يتوقع، مباغتة، مبرقة، غامضة.

الغمام القاتم يتجاوز الزجاج، عتمة، يندلع البرق، كرة نار مدغومة، صفرتها كونية، أبدية، أين كمونها؟ ما مصدرها فى الفراغ؟ من فوق الأرض يراه الماشى برقا، لكن فى الخضم يبدو الانفجار متجاوزا كل قدرة وأى طاقة، إنه مواجه مباشرة بما يجرى فى رحم الكون، تكون العاصفة وانفجاراتها، تتدافع الغيوم، إلى أين بعد تجاوز الغرفة؟ غير أن الفراغ الداخلى هادئ، درجة ثابتة من ضوء غير مباشر، سيالة تفيض بلا انقطاع، مجهولة المنبع والمصب، تتصادم كرات اللهب، يندمج بعضها، تتفجر على بعد يسير من حافة النافذة حتى ليتراجع إلى الخلف، لكن.. لا شىء يميل أويهتز، ترى.. أين قرأ تلك الجملة؟

«تكون العاصفة جميلة ورائعة إذا كان البيت متينا..

المبنى ليس متينا فحسب، إنما يبدو صنواً للطبيعة ونقيضا لها،

كينونة أخرى فى مواجهتها، بثباته، برسوخه، بما يحوى، الزجاج عريض، متين، يتلاشى البرق عند سطحه وتتناثر الصواعق، يرشح كافة الأصوات حتى لو كان ميلاد الرعد عند حافته.

يهدأ تعاقب السحب، وتواجها وانتحار بعضها فى بعض، تصفو السماء، تنجلى الرمادية، لكنه الليل باد، ليل تتشابه فيه الجهات والأشياء، تفسح المكونات المسالك للذكريات واستدعاء كل ماهو بعيد أضواء قريبة.

أخرى عند الأفق، متناثرة، متباعدة، إشارات واهنة دالة على حيوات يجهل وجودها أو مساراتها، إنه يمت إليها بدرجة ما، الآن يقترب النهار من الطلوع فى القاهرة، ثمانى ساعات فارق التوقيت، احتفظ بزمن مدينته، لم يحرك مؤشرات ساعته، ينقص الفارق بذهنه، تجىء الممرضة حانية، باسمة، تحملها إليه، تساعده فى إحكام إغلاق قفلها، يبتسم راضيا، شاكرا.

العاشرة إلا خمس دقائق.

يصل الطبيب إيرانى الأصل، المتابع لأحواله بعد الجراحة.

السلام عليكم..

ينطقها تماما مثل تجار العجم الذين أقاموا على مقربة من مسجد سيدنا الحسين، كانوا متخصصين فى تجارة التنباك والمكسرات من عين جمل، وبندق ولوز وفسدق، كان لهم موكب صاخب حزين فى عاشوراء، يقول الطبيب أصفهانى المولد، أمريكى الإقامة.

لابد أن تمشى من الغد.

يلوح بأصبعه

الفراش باستمرار . . لا . .

يكرر .

مفهوم .

يومئ مبتسما ، بمغادرة الطبيب للغرفة ، يبدأ ليله الحقيقى ، يغمض عينيه ، ظلال خضراء لحركة الخطوط المتعرجة كموج البحر ، الثانية صباحا يطل عم مايك الزنجى ، الثانية والنصف تدخل ممرضة ممتلئة ، توقظه برفق ، تقدم إليه قرصا صغيرا ضئيلا مثل حبة العدس ، لا يخشى إلا مثل هذا الدواء المدغم ، المعد بعناية ، يستأنف نومه ، فى السادسة تدخل ممرضة شابة ، ترتدى كنزة خضراء ، وبنطلونا أبيض ، صدرها محرض وردفاها منعمان ، يحرضانه على الخطو مرة أخرى ، يومآن إلى روعة الوجود وجلال الاعتلاء وثراء الفروق وشدة سريان الحياة فى الموجودات كافة .

يتهلل ممتنا لأنه يرى مثلها مرة أخرى . تقابله بمثل ما قابلها من بشر ورحابة ، نظارتها الطبية تبرز بضاضة وجنتيها وارتواءهما ، تلاقحت نظراتهما ، عندما أدارت ظهرها تعلق ورفرف ، أيقن من سلامة الخطة وقرب اكتمالها ، تكتب اسمها على اللوحة الصغيرة المواجهة .

كاترين ؟

نعم .

تستدير ممسكة بالطباشير الأزرق الفاتح ، تقول إنها تعيش مع أبويها فى منزل متوسط ، أقل حجما من تلك البادية عبر النافذة ، تحيط به أشجار مثمرة ، إحداها تحاذى نافذتها فى الطابق العلوى ، لو مدت يدها تقطف الكمثرى ، نعم . .

لديها صديق، سافرا معا إلى جامايكا الشهر الماضى، يقول مبتسما.

صاحبك محظوظ.

تقول إنه لطيف جدا، لم يتشاجرا مرة واحدة يعمل فى مطعم للوجبات السريعة، تقول فجأة.

لا بد أن تمشى.

يقف.

هل تتغير المشاهد بعد وقوفه ؟

هل يختلف الأفق ؟

يلاحظ المستويات المتوالية للأرض، أين البحيرة إذن؟ ألم ير ترقرق سطحها المائى الساكن المستسلم للظلمة، يلمح محطة للقطارات، عربات واقفة، يستدير متجها إلى الممر الذى تطل عليه الحجرات المتجاورة، المتواجهة تقول كاترين.

رائع.. يمكنك أن تمشى حول الطابق..

تتابع بسرعة.

«فى أى لحظة يبدأ التعب قف فورا..».

يتقدم بطيئا، أنفاسه قصيرة، متوالية، الخطى الأولى لا يمكن نسيانها، خاصة إذا بدأت مع اكتمال الوعى، إنه واهن غير أن طاقة متصاعدة من نقطة ما داخله، لكنه منضبط فى تقدمه، الممر أعرض مما رآه عصر أمس، على مسافات متساوية صالات فسيحة تنتظم فيها

المكاتب، حواسب آلية عديدة، ماكينات قهوة مفرغة من الكافيين مثبتة إلى الجدران، مباحة للكافة، أجهزة اليكترونية، ممرضات يسعين برشاقة، إنه يرى اللحظة التى يفارق فيها المبنى، يتأمله من الخارج عند مضيه إلى الفندق، بعد عودته إلى الوطن يستعيده كذكرى.

الوقت يمضى. هاهو يخطو منفردا رغم أن الرباط اللاصق مازال مثبتا إلى صدره، كافة الأبواب مفتوحة، حجرة خالية من الأسرة، تجهز لاستقبال مريض، ربما يجيئون به الآن من الرعاية المركزة، يمر بلحظات الإفاقة الأولى.

يتطلع إلى النافذة التى يبدو منها جزء كبير، مساحة كافية.

بحر؟

مرج وشاطئ ورمال محاذية، زبد أبيض.. صخور، أمواج تتقدم، تصطدم، تتراجع، تتقدم.

إنها عين الجهة التى تطل عليها غرفته، لم يبتعد إلا خطوات، الباب قريب، الغرفة التى صعد إليها أمس فى نفس الجهة، لم يكن يبدو منها هذا الموج المتلاطم، هذا اليم الخضم، قوافل الحركة المستمرة. الزبد الأبيض الذاهب، المرتد فى عين اللحظة.

بحر يبدو هنا وبحيرة هناك، نهار وليل يتجاوران، غابات تطالعه من غرفته، مساحات الغرفة متقاربة، كافة الأبواب تطل على الممر المستقيم، يصل إلى الفسحة التالية. لافتة صغيرة تعلن عن قسم العلاج الطبيعى، لم يحن الوقت بعد للالتحاق به، يتم ذلك بعد مغادرة المبنى والعودة إلى الفندق، إنها المرحلة الثانية باتجاه الحياة اليومية، ثم... الرجوع إلى الوطن، عندما يأذن الطبيب ويسمح بعبور المسافات الفاصلة.

يتوقف، تتوالى عليه لحظات منقضية، مقترنة بأماكن نائية الآن، لكنه يستدعيها ويحتويها بعد أن ضمته حقبا، نواص ومداخل وشرفات ونوافذ، واجهات سوامق وممرات مؤدية وأركان مظللة، التماعات الضوء على النبات والأهرام البادية عند الأفق الغربى، الرمال والتلال، حدود الوادى، تقترن اللحظات بالمواضع التى يثير استرجاعها الحنين الممض.

يلتفت مقطبا، متعجبا، نافذة صالة العلاج الطبيعى عريضة، مكشوفة، ما من ستائر، آلات مشى، مران، قياس الضغط والنبض ومالا يدريه، إنها فى نفس الجهة، لكنه من حجرته لايرى تلك الناطحات الشاهقة، إنه فى مواجهة مشهد أمريكى تماما، مبان نحيلة، سامقة، أعمارها متفاوتة، أحدثها هرمى القمة، مدبب، معدنى الطلاء، أربع أو خمس ناطحات سحاب، هل رأى صورة مماثلة من قبل؟

مؤكد.

هذا مشهد غير طارئ عليه، إنه مألوف بدرجة ما، ربما لتشابه تلك البنايات ،لكن. . كيف لا يمكنه رؤينها من غرفته؟

هل من المعقول أن تطل كل حجره على جهة مغايرة تماما؟

خطواته حذرة، قصيرة، لكنه يتقدم، كاترين تتحدث إلى شخص ما عبر هاتف مثبت إلى الجدار، فى وقفتها يبدو تكوينها الأنثوى، يفاعتها، يبتسم متسائلا :

«صديقك»؟

تومئ، يكرر :

«إنه محظوظ».

يصل إلى نهاية الممر، إنها المرة الأولى التى يقطع فيها المسافة كلها، يتوقف حتى تهدأ أنفاسه المتلاحقة، يتوسط صالة مستطيلة، مقاعد وثيرة مصفوفة، جهاز تليفزيون مغلق، نافذتان متقابلتان، الأولى ناحية الجهة التى تصطف بحذائها الغرف، الثانية متعامدة عليها، نهاية الممر، ما يراه من خلالهما متشابه، لكن لا علاقة له بالمشاهد الأخرى.

طريق عريض، مقسم بخطوط بيضاء، تتدفق عبره السيارات، نقل، ملاكى، مقطورات، كلها فى اتجاه واحد، مماثل لمشيه فى الممر، أشجار كثيفة على الجانبين، غابة مشطورة، كثيفة الحضور، من خلالها يبدو مبنى سامق عند الأفق، كأنه يرى قبة ومئذنة، تكوينان منفصلان، متصلان، كل منهما يتمم حضور الآخر.

معقول هذا ؟

أن يكون فى مواجهة المسجد الذى بناه الزنوج المسلمون قرب المستشفى، لا يذكر من وصفه له، لكن تبدو هذه المئذنة مألوفة عنده، كأنه احتراها من قبل بالنظر، ألا تشبه منارة قايتباى، خاصة التناسق والتفاهم مع القبة ؟

يميل إلى الأمام.

ولماذا مسجد؟

ألا يشبه البرج؟

لكنه لا يرى صليبا يعلوه، إما لبعد المسافة أو لتصاعد ضباب خفيف عن الغابة، ربما يؤدى غرضا رياضيا أو علميا، يضيّق عينيه، لكن الرؤية تظل محدودة.

العربات لا تزال تتدفق، تمضى متجاورة، تفصل بينها تلك الخطوط المرسومة، سرعاتها مختلفة، طرز شتى، ألوانها متعددة، تتكرر طرز وألوان، أحمر، أبيض، بنى، أحمر مرة أخرى، درجة من اللون القانى يفضلها، تقترب من الياقوتية، يتوالى مرور السيارات، كم عدد الحارات الوهمية. يخطىء العدد لبعد المسافة، ثمانى، تسع، ينبغى التركيز، غير أن إجهادا يتصاعد، ونفرة قوية ترغمه على الإصغاء إلى قلبه، يتراجع عن النافذة، يستأنف المشى، يعبر الزاوية القائمة، يبدأ ممر جديد واستئناف أيضا للسابق.

المرضات شابات، أعمارهن متقاربة، يفضن حيوية، يبدين مودة بلا تكلف، أحيانا يفاجأ بحنو، بعضهن يرتدين ملابس بيضاء بما فى ذلك الأحذية، أخريات مثل كاترين، قمصان خضراء، بنطلونات بيضاء، إنهن أقل مرتبة، لكن ما من شبه يقربهن منها، يدرك أن النبر بدأ، وأول القطر حل، إذا قدر له استعادة تلك الأيام بعد إيابه إلى دياره فسيمثل منها كاترين، لابد من أنثى للتعلق بموضع أو لحظة، وإلا . . فإنه العدم، لكم يود أن يرى دخولها الهادئ عليه ليستفسر منها عما يراه، ليسألها عن الجهات، تغير ما يطالعه من نافذة إلى أخرى، يتوقف . .

قرب نهاية الممر يلمح امتدادا صحراويا وكثبانًا بادية وتجمعات متفرقة من النخيل.

إلى هذا الحد؟

نعم . . ليس عنده شك الآن، كل نافذة لاتشرف على جهة، إنما تطل على عالم، حضور مغاير تماما لما يجاوره، يتوقف، هل يرى حقا ما يوجد ؟

أم يوجد ما يراه؟

لو عبر النافذة، أى نافذة، لو نجح فى فتحها، ماذا سيرى ؟

هل سيرصد أسباب الاختلاف؟

يتحسس الحواف، كلها مصمتة، جدار زجاجى مثبت، لايمكن فتحه، لابداية ولا حد مؤطر، مثبت، طائرة مروحية تعبر الأفق، سماء فيروزية صافية، نقية من كل غيم، كأنها لم تعرف السحب منذ قليل، يستعيد انفجار البرق قرب النافذة، توالى العاصفة، هل ماراه حقيقى. ، هل يخص نافذة غرفته فقط أم رآه بقية الراقدين ؟! لكن الوهج بدا كونيا، لا يمكن محاكاته، ترى، أين مصدره؟ هل يمكن أسر البرق؟ هل بالإمكان إجبار العاصفة على التوجه إلى مكان دون الآخر.

أين قرأ مثل ذلك؟ أين ؟

ربما فى نص فرعونى عتيق، أى كتاب؟ لايدرى، لا يمكنه القطع ! خشية مفاجأة تبدأ عنده.

هل يطل على نفس الجهة التى رآها أول مرة من غرفته، فى الداخل لم يتغير شىء، السرير، الأسلاك، الكتب التى طلب الإذن بإحضارها إليه، الشاشة، العلامات، لكن. . ثمة شيئًا: تغير، لايقدر على. تحديده، لا يمكنه تصنيفه.

يلتفت حوله.

غرفته ؟

يلفظ التساؤل بصوت مرتفع، هذا سريره، الأجهزة المتصلة

بمسارات الدم داخله، بنبضات قلبه، اللوحة فى المواجهة، أسماء المرضة ومساعدتها والمسئولة عن النظافة، لكن ثمة شيئا ما يباعد ما بينه وبين الحيز الذى أوشك على ائتلافه.

يستعيد المكونات كافة، الضوء مغاير، درجة لم يألفها، باردة تلغى الظلال، لم يعرفها حتى عند تراوحه بين الإفاقة والغياب، تتقارب الجهات، تتضام، تتداخل التفاصيل التى رآها عبر كل نافذة، بحر ممتد، موج متوال، صحراء متموجة الرمال، عاصفة عابرة، عربات تتدفق، تختفى لتكر من جديد، الطرز عينها، الألوان ذاتها، السرعات المختلفة، المتماثلة، دخول كاترين الهادئ، المترفق، مرسلات الإثارة منها إليه، أو . . منه صوبها، لايدرى . . هل عبرت الباب صوب مرقده أم خرجت من عنده إليه؟



حكاية

ممرات



صباح اليوم الثالث لاسترداده الوعى واكتمال إفاقته، الرابع على إجراء الجراحة جاءوا إلى الغرفة، ثلاثة أشداء، طوال القامة عراض الصدور، وكأن مقاييس متقاربة روعيت عند اختيارهم، إنهم المكلفين بنقل المرضى، مدربون، مؤهلون لمواجهة أى طارئ خلال المرحلة الحرجة التى تلى انتهاء الجراحة وتسبق انتقاله إلى غرفة الرعاية المركزة، إنها الفترة الصعبة حيث تخطو خفقات القلب العائدة قاطعة أول المسافة بعد التوقف وتلقى الصعقات المحركة، الجراح فى بداية طراوتها، وأى اهتزازة زائدة عن الحد ربما تؤدى إلى وقوع ما يتجنبه الجميع، الأنابيب المتصلة بأجهزة القياسات والمحاليل والأدوية العاجلة اللازمة تعلق إلى أعمدة متصلة بالسرير المتحرك، هذا مشهد رآه قبل إجرائه الجراحة خلال أيام الفحص السابقة، كانت الحركة بطيئة جداً، عددهم يتجاوز الخمسة، أحدهم ينحنى على المريض ممسكًا مايشبه القربة المستديرة البيضاء، فى هيئتهم عناية وحنو وحرص زائد، يتطلع إليهم مبتسمًا، ساعيًا إلى المودة، انتهى من تناول طعامه منذ نصف ساعة، الأطباق مظهرها شهى لكنها مفرغة من مضامينها، شكل لاغير، الجبن مفرغ من الملح واللبن، البيض بدون دسم على الإطلاق، حتى اللحم يخيل إليه أنه من مادة محايدة. يقول الأوسط، بشرته غميقة، أفريقيتها صميمة، يمسك بمقعد متحرك، يشير إليه، يتساءل بالنظر، لكنه لايتلقى إجابة محددة، يقول إن بوسعه المشى، يمكنه أن يصحبهم، لكنه يهز رأسه مومئًا إلى المقعد، لامفر.

تبدأ الحركة، يمسك بحافتيه، يدفعون به إلى المصعد، ثلاثة متجاورة، ستة متواجهة، اثنان مخصصان للمرضى، للطوارئ، يدخلون به إلى أحدهما، يتطلع إلى عامل المصعد، ملامحه شرقية، ربما من أمريكا اللاتينية، الجميع صامتون، لا يتبادلون الحديث، ولا يستجيبون لأى مداعبة أو إيماءة، يرتدى حلة بنية، لماذا ثلاثة إذا كان واحد فقط قادر بالتأكيد على دفع المقعد ؟

كم طابقًا نزل المصعد؟

يخيل إليه أنه استغرق وقتًا أكثر من المعتاد، مرقده فى العاشر، الطابق الأخير، فوق السطح مباشرة، ممهد لاستقبال طائرات الهليكوبتر التى تنقل الحالات الحرجة، ثمة شىء يتحرك من السطح متصل بغرفة الطوارئ مباشرة لكنه لايعرف موقعه تمامًا، مازال المصعد يهبط، صوت خافت، ناعم، رائحة غامضة، جديدة على حواسه، لايمكن نسبتها إلى مرجعية محددة، لكنها ليست مزعجة، إن مرحًا خفيًا ممتزجًا بإعياء يعبره، لا يقلق، لا يتساءل، لم يخبره أحد بقدومهم المفاجئ، ربما لاحظ الأطباء أمرًا عبر الأجهزة العديدة المتصلة بجسده عبر أسلاك ومعدات مساحة مثبتة إلى السرير، لابد أنهم رصدوا شيئًا ما خلال نومة أو صحوة، إلى صدره مثبت جهاز صغير متصل بقلبه مباشرة، هذان السلكان المتجاوران، النحيلان، المبرومان، قطنة بيضاء تغطيهما، إنه جهاز إرسال تقريبًا أو هكذا خمن، لمن يرسل؟ لايدرى، يصغى إلى ما يفضى إليه بفضول بكر، كأنه يقف على الحقائق الأولى بذهن لا نقش فيه ولا أثر لشىء سابق، بقدر رغبته فى الاطلاع على ماجرى له، بقدر صمته عن السؤال أو الاستفسار، إنه متلق لاغير، يؤدى بدقة ما يطلب منه.

المصعد بدون لوحة علامات. لاشيء يدل على الطوابق، محايدة تمامًا، لم يعرف بتوقف المصعد إلا مع فتح الباب، يكتشف أنه كان يتوهم حركة ما، لا اهتزازات على الإطلاق، لا صوت، إلى أى أزير ناعم أصغى إذن؟

أى مثير للدهشة بعد وقوفه على تنوع الجهات بتعدد النوافذ وحيرته فيما يرى، ماذا يمكن أن يستفزه بعد عبوره الخط الفاصل بين الكينونة والأبدية وعودته مرة أخرى.

درجة الحرارة أقل، برد يدركه، ربما لرطوبة الممر الطويل الذى بدأوا دفعه عبره، وربما للتكييف الضرورى، اللازم لصيانة بعض الأجهزة المستخدمة، لايدرى من قال على مسمع منه إن مثلها يحتاج إلى درجة حرارة منخفضة لذلك يستحسن التزود بملابس ثقيلة إلى حد ما، لكنه لم يصحب أى رداء إضافى، على أى حال البرد محتمل.

إنه يمضى بسرعة، خطواتهم أفسح مما كانت عليه فى المسافة الواقعة بين حجرته والمصعد فوق، ربما لأن الممر هنا مشجع بخلوه وطول مسافته لكم يبدو الممر طويلا بالقياس إلى حجم المبنى كما يذكره من الخارج، لا أبواب على الجانبين، جدران مصمتة، لون الطلاء ينتمى إلى تدرجات البنى الفاتح، مستو، لاظلال، لاصوت لخطواتهم أو تقدم العجلات، اهتزازات خفيفة لا تلحظ، لا يدرى هل يمر بالمكان أم أن المكان يمر به؟ ينتهى الممر إلى آخر متعامد عليه لكنه أضيق قليلاً، جدرانه مرتفعة أكثر، رغم أنه يبدو طويلا للناظر أول الخطو لكنه ينتهى بسرعة إلى صالة مربعة تتفرع منها ثلاثة ممرات، كل إلى جهة مغايرة.

يلمس الأوسط كتفه، ينطق لأول مرة.

«حظ سعيد».

يومئ، يستدير مع الآخرين، اختفاء عند المنحنى، إلى أين. لماذا تركوه وحيدًا هنا؟ لابد أن شيئا سيحدث فجأة، لابد أن أمرًا سيبدأ أو إجراء سيتخذ، لأول مرة منذ بدء تردده على هذا المبنى المخصص بأكمله لمرضى الطب وجراحاته يجد نفسه وحيدا تمامًا، باستمرار كان بصحبته مرافق أو ممرضة ،عناية بادية خاصة بعد تمام العملية وصعوده إلى العاشر، يستعيد وجنات تلك الشابة، وعينيها الطفوليتين، الأصوليتين فينتشى، مادام القلب قادرًا على الرصد وإبداء المجاوبة فتلك نبوءة بالشفاء، بدء اكتماله. أى برد هذا؟ صمت ثلجى ثقيل، ممرات معقمة من الضوضاء وسائر مايمت إلى مزعجات أو منبهات الحواس.

كم انقضى؟

ليس لديه ساعة حتى يقيس الزمن، سلمها إلى الأمانات مع مفاتيحه وحافظة أوراقه ونقوده وبطاقة الطائرة وخطاب إلى زوجته فى القاهرة، وآخر إلى ولديه.

أى جزء هذا من البناية ؟

يذكر أنه طالع خريطة تدل المترددين فى المدخل الرئيسى، لكنه لم يلمح فيها أى تفاصيل حول تلك الممرات الطويلة، أهو الآن فوق مستوى الأرض أو تحتها، لايمكنه القطع، ينتبه إلى سكينته، إنه هادئ، منبسط لذاته، راض بكل حال يمر عليه، هذا اللون الخالى من أى تموج، الممتد، غير المستقل للظلال، وغير المرسل لها، كأنه يبدأ من نقطة ماعنده، عناصره داخله، لايفكر فى الانتظار، لابد أن لكل شيء مقدارا، هم بدأوا الأمر، وهم سيتولون نهايته، ماذا يمكن أن يطرأ أو يجرى؟

يظهر اثنان، حجمهما أقل لكنهما فارهان بالنسبة له، الأبيض حليق الرأس تمامًا صلعة يول برينر، وبعض أولئك الشباب الذى رآه أثناء أسفاره وأضمر ناحيتهم الحذروالخشية، الأسود بارز العضلات، غليظ الساعدين، لم يسأله، إنما أمسك يده وتأمل السوارين المحيطين برسغه، كلاهما من البلاستيك، الأول أبيض خط عليه اسمه بحروف الحاسب الآلى، الثانى أحمر كتب عليه بحروف لاتينية: السلفا ومشتقاتها « يعنى ذلك تحذيراً حتى لا يتم إعطاؤه أى أدوية تتضمن السلفا لحساسيته ضدها، هذا ما دونوه فى اللحظات السابقة على حلاقة شعر صدره، أثناء تجهيزه للجراحة، ترى. . أين الحلاّقة الممتلئة، القادمة من الكاريبى؟ أين؟ هل سيراها مرة أخرى؟

يقف الأبيض الأصلع خلفه، ينحنى ممسكًا بالمقعد، كأنه ينتظر شيئًا ما، إشارة خفية، لابد أنهم متصلون بمركز، بجهة ما فى هذا المبنى، يثق أن أشخاصا لايعرفهم ولن يلتقى بهم يرصدون أحواله، يتفحصون دقات قلبه وما يصدر عنه من إشارات، كذا ضغط الدم وأمور أخرى لن يقف على تفاصيلها.

يدفع المقعد، الزنجى يمشى إلى جواره، كان الثلاثة خلفه وعلى خط واحد تقريبًا. إنهما مختلفان، الإيقاع مغاير، خطوات أقصر لكنها أسرع، يلجان الممر المحاذى لذراعه اليسرى، لاينبئ مدخله بمدى طوله. إنه ممتد، ممعن حتى ليبدو أضيق الطرق التى تنبسط إلى مالا نهاية.

باب.

مستطيل، كأنه مرسوم، مجرد خطوط.

باب آخر.

مصراعان متضامان، أبواب حقيقيًا تؤدى إلى فراغات تالية محددة أم وهمية تفضى إلى معان مجردة ؟

لا يمكنه الإجابة. الخطوات أسرع، يركضان، تتوالى لفات العجلات، فى لحظة معينة تبادلا دفع المقعد، يمسك بالمسافة الضئيلة التى مضى فيها بقوة الدفع الذاتى، يمتد الممر مسافة تتجاوز ما رآه منه فى بدايته، كأنه يتمدد، أو تولد منه مرحلة إثر الأخرى، تهدأ الحركة تدريجيًا، صالة مستديرة، يوقفون المقعد فى المنتصف تماما بعيداً عن أى جدار، ضوء أغمق، تكتمل الظلال مندمجة ببعضها فى المواجهة، لايمكنه اختراقها بالنظر، لايعنيه مفارقتهم له، يثق أن ثمة من يتتبع أحواله، من يراقبه من مكان ما فى البناية، موضعه معروف، حيزه محدد فى الممر، لايعنيه الزمن المنقضى هنا، وإن تمنى العودة إلى غرفته، كل البناية غريبة عنه، وأيامه فيها محددة، مؤقتة، أيام دقيقة، بعضها حرج، فى موضع ما شقوا صدره، وأمسك الجراح بقلبه، أعاد وصل شرايينه، لايعرف شيئا عن الغرفة التى احتوته طوال الساعات الست والثلاثين التالية، لم يرها، مايذكره ألوان تتوزع داخله وليست حوله، كلها تنتمى إلى اللون الفيروزى، يستعيده بدهشة، بخوف ما، إنه لون الأبدية، الزرقة المصهورة، المتساوية، المؤدية، يوقن بوجود مالا يمكن تعيينه أو تحديده، فى الأمر شىء! فى الأمر شىء!

متى يعود إلى غرفته؟ إلى نقطة ارتكازه التى أفاق عندها، يجثم عليه ثقل، يضطر إلى إغماض عينيه، لايذكر من قال إنه سيمضى زمن يغفو فيه فجأة، يدركه الحذر بغتة، تأثير المخدر طويل المدى، إن توالى الساعات مع فقدان الوعى أمر وعر.

يفتح عينيه على تحركه مدفوعًا بيسر، بلطف إلى الأمام، يلتفت

يقابل بابتسامة حانية. مترفقة، أنثوية، شابة، طويلة، نحيلة، لاتشبه كاترين الربرابة، طفولية الوجنتين، له مرجعية أنثوية هنا أيضا، أليست أول من تعلق بها بصره بعد إفاقته؟ حقًا. . ما أجمل حضور المؤنث فى سائر الأحوال، داخله مغاير الآن لمجرد أن مرافقته امرأة، لايعرفها، ربما لن يلتقى بها أبدًا، لن يحتفظ بملامحها، لكن يلفحه أريجها، ينعمه ويدلله، إنه فى حبور وتأهب.

الممر أضيق، حوافه أميل إلى الشكل الدائرى، مع تقدمه تتضح أسطوانيته، لم يلحظ تحوله من مربع إلى أنبوبى، لكن. . كيف تتزن العجلات؟ كيف تحافظ على توازنها. لابد أنهم أعادو لكل شىء عدته، ما يلائمه، لكن عنده حيرة، تلك المسافات المتوالية. فى أى حيز تقع؟ هل يتحرك فى إطار البناية أم خارجها؟ ما رآه منها قبل إقامته بها لايتسق مع طول الممرات، وتعاقبها، هل يمضى فى خطوط متوازية؟ لكنه لم يشعر بذلك، إنه مدرك للاستقامة الطولية، : لمسافة خلت من الانحناءات، يتوقف المقعد فجأة عند مساحة مستطيلة، ضيقة لكنها محددة، مرتفعة السقف، ينتهى عندها الممر ويبدأ آخر من الجهة الأخرى، تستدير الحكيمة أو الممرضة، تواجهه ملامسة خصرها بيديها، تشير إلى باب فى مواجهته، عند اقترابها منه يفتح على مهل، تدخل، يتبعها، ترتدى معطفًا خفيفًا لكنه من مادة تشبه الجلد.

جهاز للتصوير لم ير مثله، تتحرك أطباق معدنية متصلة به مع ضغط أصابعها على أزرار صغيرة، لوحة مضيئة، أرقام صغيرة، إشارات لامعة موجية.

تشير إليه أن يتجرد من الرداء الأزرق المنقوش بوحدات هندسية بيضاء، بعضها مستدير والآخر مثلث، ما من ملابس داخلية، مجرد قميص خفيف أبيض، بحركة سريعة يفك الرباط الملامس لعنقه.

إنه تماما فى مواجهتها، لا يداخله أى خجل، ولا يغطى عورته بيديه، ولا يسرى بينهما ما يمكن أن يتصل بين الرجل والمرأة، جرحه مازال طريًا وقدرته واهنة، مسرور بحضورها ممثلة لجنسها أكثر منها حالة خاصة كتلك التى اتصلت بينه وبين كاترين لومضات مفلتة، فلتطلب منه العرى، الالتصاق بالجهاز، الانحناء قليلا، نفس عميق التوقف، إطلاقه، التطلع إلى الأمام، تلامس كتفه، تبدى حزمًا، إنه موضوع للفحص، يجرى التأكد من شىء ما لايعرف كنهه بالضبط. يتزايد البرد، ثمة مصدر خفى يبث القشعريرة، تكتكات متعاقبة، صمت، تشير إلى الخارج، يتناول الرداءين، يلتحف بهما، لابد أنها ستلحق به، يقعد فوق الكرسى، الضوء أخفت، يتحرك مدفوعًا، يتجاوز الصالة المستطيلة، يلج النفق الأسطوانى، الفراغ مكتمل الاستدار، لابد أنها مضطرة إلى الانحناء.

يلتفت

لا أحد.

من يدفعه إذن؟

إلى أين؟

يتداخل فى بعضه، سكينة سارية وخشية مستعدة وقناعة بضرورة عبور هذه الوحدات المتعاقبة، المتوالية، الضيقة، أصداء بعيدة، تعمق الصمت أكثر مما تبدده، يضيق الممر، يكاد يلامسه، لايمكن مرور شخص آخر، واحد.. لاغير.

مصطلح

قبو



القبو صون وستر وخباء. لذلك فيه الحفظ، الرحم قبو، تستقر بذرة الحياة ومصدر نموها بعد تمام وفادة العنصر الملقح، من ينجح فى قطع المسافة وسبق الملايين من أقرانه حتى إذا امتزج بالبويضة الكامنة المتوقعة، فنى فيها، تتغير أحوالهما ليبدأ فصل جديد، لا يمكن تمامه إلا بداخل حيث محل التكوين به تتميز الأنثى وتزهو فلها الحق.

للإنسان بنوعيه أقبية شتى، منها ما نعرفه ولا نقدر على رؤيته، مجرد مشاهدته هلاك له. مثل المخ والقلب والمعدة والرئتين وما بين الصلب والترائب عند الذكر، والبويضة التائقة، المنتظرة المتحرة بخروجها إذا طال انتظارها. كذلك مسارات الدم وما لا نعرفه من سوائل حافظة، حيوية. ومثل ذلك كثير.

أما مالا نعرفه، ما لم نقف على محله وعناصر تكوينه ودعائم كينونته فتلك الأقبية الخفية القابعة فى الروح حيث بواعث الذكرى وعوامل الانتقاء المؤدية إلى استعادة لحظة دون غيرها، أو رائحة معينة دون مثيلاتها، وهبات الحنين المؤدية إلى بث الحيوية فى الصبوات العتيقة، بواعث الآلام المجهولة أو المألوفة وتلك أيسر وأسهل على المرء إذ إنه يتوقعها، لكن المخيف كل جديد، طارئ.

ما لم نقف عليه من قريب أوبعيد فإنها أقبية الكون، حيث تتوالد النجوم وتفنى المجرات وتلتهم الثقوب السوداء كافة ما يقترب منها، ما تطاله أو ما يصدر عنها حتى الضوء وكل خافت نمنام همَّاس من يدرى؟

ربما كان هذا الكون الظاهر للحواس مجرد قبو يخفى ويحفظ سائر ما يضمه لغرض ما. كل مايتعلق بالوجود جائز طالما أننا لم نقف بعد على بدايات المسار وغاياته، وأسباب سموه وخفقه، أى بداية تعنى نهاية مهما امتد الأمر فى الزمان والمكان.

الأقبية أمرها قديم منذ أن حفرتها الرياح وتوالى قطرات المطر، ومسارات النسمات والهزهزات الخفية وإدراك الإنسان ما يطرأ على جسد مثيله بعد التمام وضرورة إخفائه، مواراته.

الأقبية أمرها قديم سواء لإقامة الحى أو دفن الميت ومنذ أن بدأ المهندسون الفراعنة الأوائل خططوا أوضاعهم وحددوا مسارات الأشياء، قبل مجىء أمنحتب (توت فيما تلى ذلك من قرون) وإليه ينسب تركيز الأمور وإقرارها، وإظهار قبس منها فى هرم زوسر المدرج.

هو القائل لكل بناء قبو، وفيه يكون السر وهو الذى قرن بين جسد الإنسان وأبعاد العالم، ومنه استلهم البداية والنهاية، والخطوط الفاصلة وما خفى وما ظهر، فثمة أمور معينة، مبثوثة، متاحة داخل البناء، مغرية، جاذبة بما تحوى، لكنها ليست إلا وسائل تمويه على أخرى أهم.

ليست الأقبية إلا إشارات على الحضور والغياب، المصير والذهاب، الحقائق الجلية والأخرى التى لم تدرك بعد، لذلك عد توصلهم إلى الباب الوهمى ذروة ولحظة فاصلة، دالة تماما كذروة الهرم، الأمر فيه ماثل أمام البشر كافة حتى وإن لم يدركوا مغزاه، يتخذ أشكالا شتى من مستطيل أو مقبب أو محراب لكن الدلالة واحدة.

القبو ضد الباب، لكنها وجهان لأمر واحد، الأصل فى كل منهما الخفاء، لو ظهر لانتفت صفته، لذلك كان التخمين أيسر الطرق لإدراكه، عند تمام بلوغه ينتفى كل شىء.

القبو سند الباب ومستودع أسرار العمارة. ليس ضروريًا أن يكون تحت سطح الأرض. ربما كان معلقًا كتلك الأقبية الداخلية الموزعة على مستويات متعددة داخل الأهرام، أو على جوانب الممرات المحفورة فى الصخور، المؤدية.

كافة ما خفى يعد قبوا حتى وإن ظهر، كل خفى غائب القبو مستتر طالما أنه قائم بمهمته التى صمم من أجلها، أن يحفظ، أن يصون.

ما يطول احتجابه يزداد قيمة رغم غيابه، وأثمن الموجودات ما انقضى عليه الوقت، كل بناء يحتاج إلى قبو ،لكن كل قبو لايحتاج إلى عمارة، إنه ملموم، مضموم، وفى معظم الأحيان يتبدد سره إذا خدش أمره.

الأمر دقيق. لكننى سارد واقعة ذكرها واحد ممن تخصصوا فى علوم الأقدمين، وكشف عن أقبية لم تفتح منذ آلاف السنين، وخطا داخل ممرات آخر بشر تنفسوا هواءها مضى عليهم أكثر من عشرين قرنًا، أعنى العالم العلامة سامى جبره، وهو مكتشف مقار عبادة إله المعرفة توت فى الأشمونين بمصر الوسطى. وليس الإله توت إلا نسخة من المهندس أمنحتب بعد ألفى عام. أمنحتب هندس وخطط وجمع فأرشد وصاغ، ولغزارة فيوضاته المعرفية وجمعه ما يتعلق بعمارة الإنسان وأسرار البنيان ومعنى مزاوجة الحجر بالحجر، والتمييز بين العلو والسفل، هنا لابد من توضيح انطلاقا من قول الشيخ الأكبر فى كتابه التدبيرات الإلهية فى إصلاح المملكة الإنسانية، أن الإنسان نسختان،

نسخة ظاهرة ونسخة باطنة فالنسخة الظاهرة مضاهية للعالم بأسره، والنسخة الباطنة مضاهية للحضرة الإلهية، فالإنسان هو الكلى على الإطلاق والحقيقة.

هذا ما أدركه أمنحتب، فليست النسخة الباطنة إلا قبو المعارف والإدراك، غير أن ما ظهر لنا وقت هذا التدوين أن الإنسان ليس نسختين فقط، إنما نسخ، فإلى جانب ما خفى وما ظهر تتجسد أحواله منذ الميلاد وحتى الفناء، كل انتقال من لحظة إلى أخرى يتجدد النسخ، ومن نعرفهم وندركهم ثم نلقاهم بعد غيبة، يختلف أمرهم ويتفق، فهم هم من الظاهر، ولكنهم ليسوا كذلك فى الجوهر. كذلك المكان، وبالأخص البناء، نمضى إلى المواضع التى ارتبطت بها أيامنا الآمنة، الحميمة. فلا نجدها رغم مثولها، وتغترب عنا رغم أنها قائمة، جلية، متصلة الجدران، لكل امرئ قبوه. داخله أو مصاحب له من خارج، وأوضح الأمور ما جرى تلخيصها فى الحروف والأرقام، والخلاصة منها ما قام به البنيان، مثل الأساس، والحامل والمحمول، والفناء والدرج، والباب ما سمح بالاجتياز أو اكتفى بالإيماء إلى الخبايا الكامنة فى أقبية الآفات غير المرصودة، التى غشاها ما يغشى، فاستعصت.

الأمر كما ألمحت دقيق، والوصل يبدو قائمًا بين الأعمدة وظلالها، لكن الهو الفاصل سحيق وعبوره مستحيل بما نعرف من وسائل، لا يتوقف توالد النسخ البشرية بعد الغياب الأبدى، فمنذ القدم أدرك الفراعنة أن الإنسان ذكرى، ولذلك توصلوا إلى الأسماء فحددوا النغمات والمقامات، وتفننوا فى حفر الأسماء على الجدران وإخفائها عن المتطفلين، اللصوص، الساعين إلى انتهاك المقدس، طالما أن الاسم يتردد فصاحبه لم يرحل، يكون ماثلا بشىء ما. لكن التغير يلحق

الاسم أيضًا، من هنا لا علاقة للحكيم ، العلامة أمنحتب الذى كان جوهر وقته بالنسبة لما نذكره الآن أو ما اعتقده القوم بعد أكثر من ألفى عام على تمامه، حتى ملامحه تبدلت، وشمل ذلك اسمه أيضا، عبده القوم باسم الإله توت ونسبوا إليه كل معرفة، وأصل العلوم كافة، فى لحظة ما تتبدل النسخة المتداولة بأخرى وربما يلحق التغيير الاسم أيضا فتنقطع كل صلة فى الظاهر ولاكتشاف الأمر لابد من إلمام وفحص طويلين دربة ودراية.

يطول الحديث إذا فتحنا الكلام فى النسخ الخفية ومنها ما يدرك بعض منه فى الأحلام وكل حلم إنما يجرى فى قبو، واليقظة تعنى تبدده وتذريته وقبل أن أذكر ما عاينه الأثرى المنقب أنثنى إلى الحجرة المغلقة فى قصص ألف ليلة وليلة إنها الحادية عشرة أو الثالثة عشر، عندما ينزل حسن البصرى فى قصر بديع ويكون من شروط الإقامة التمتع بكافة ما يحويه عدا الغرفة المغلقة، قبو الأسرار ويستجيب فى البداية، إذ يكون بلوغ القصر بعد عناء شديد وصعاب جمة. لكن بعد مضى بعض وقت يبدأ الفضول عمله، ويقاوم النزيل، المقيم، غير أنه بعد تردد يقدم، فتكون النهاية مع هتك السر بعد فتح الباب، إما أن يقوده القبو إلى مهالك شتى، أو يلقى حصانا مجنحًا فى انتظاره يعود به إلى نقطة البداية. حيث الشقاء والهم وسريان المشقة.

غير أن ماجرى للعالم المنقب سامى جبره يفوق هذا كله، إذ جرى الاستنفار يوما وبلغ الاستعداد أقصاه، ذلك أنه كان مقبلا على لحظة يتمناها كل عامل فى البحث عن آثار القدامى أن يقدم على رؤية ماطال حفظه فى قبو مغلق، محكم، وهو من سيفضه ، هكذا مشى وئيدا فى الممر المنحدر المؤدى يتنسم الهواء المعتق المعطر ببقايا زيوت مندثرة

وهبوب مجهول المصادر، إنها الأسرار التى لن تفكها لغة ولا تكشف عنها رموز.

لا بد لكل قبو من مسافة مؤدية. ممر أو درج، القبو مؤجل حتى اللحيظات التى يقع فيها الفض.

كل المعلومات والإشارات السابقة تدل على مرقد لإناث من القوم، لكن بعد إنهاء المغاليق، الإصغاء إلى صرير الباب الذى يفتح منذ ألفى عام على الأقل.

سرى شعاع الضوء فمس الرقدة الأبدية، انتهت رحلة الأشعة الشمسية المنبعثة من الأوار الملتهب إلى الحيز المكنون وكانت مفاجأة.

فقط تابوت واحد من حجر جيرى أبيض مائل إلى الوردى، مفتوح بدون غطاء، تتمدد داخله كأنها أغفت منذ لحيظات لاغير، مكتملة البهاء، إغماضة عينيها تحديق وطلة إلى الماوراء، إلى ما يصعب رصده بالبصر، سلام ملامحها مطمئن. مهدئ، أما فتنتها الصابرة فضارية ثدياها مقببان لهما استدارة الكون وبزبزة الحلمتين، المدرتين، كأنهما سيتفجران بالغذاء السخى. بطنها مخمص مؤد بانحداره إلى قبوها المتين، المصون، ومبرز لنهوض وانبساط فخذيها، يغطى هذا كله رداء رقيق من نسيج طيفى شفيف، للأزهار المصطفة على حافتى التابوت زهوة، أما رائحتها الأنثوية الخاصة، فلكل امرأة عبير يخصها ولايتكرر أبدًا فكانت تعبق الموضع كله.

كل ما ينبعث منها حاض، محرض مستفز للكوامن، بدت متأهبة متطلعة إلى القدوم، حتى إن الرجل بدأ يدنو منها حذرًا. منتشيًا بتلك البواعث الغامضة، ومضت إليه قشعريرة لا يمكنه القياس على مثيل لها.

لم يخطر بباله قط أن يلمسها رغم الأحاسيس الغامضة التى أمضى عمره يخشى مجرد استعادتها مع طوافه دائما بذلك الوقت القائم بذاته، بدأت أصوات العمال فى الظهور. قدر أنهم عند بداية الممر. مد يده للإمساك بلفافة البردى البادية فوق إكليل شعرها المصفف لكنه كف، بل تراجع، كأنها توشك على الحركة، لكنها نبضات ذاهبة. آفلة.

مع اعتياده على الرؤية، مع تدفق الضوء إلى القبو الضام الحاوى، يتغير لونها، بدأ تدريجيًا على مهل لونها يتحول إلى قتامة، بقدر مجىء النور من الخارج تتحول إلى كائن معتم، تتداخل معالمها، يذوى شعرها، جبهتها، عيناها، عنقها السبسابى، صدرها، خصرها عمارتها اللدنية.

يكتمل الضوء.

لا يبقى منها إلا رماد هش، لا يمكن جمعه أو الإمساك به. هنا أنقل عن سامى جبره نص ما دونه بالإنجليزية، وترجم فى كتابه المطبوع بالعربية.

«حاولت أن أبرئ نفسى. فلم أجد هناك من سبيل سوى أن أعاهدها على ترديد ذكرها، وذكر قصتها على سمع كل زائر، متمنيًا أن يحقق الله ما كانت تتمنى ويتمنى أهل زمانها من وراء الموت، ولقد ظل خيال تلك المسكينة يطاردنى دهرًا، خاصة حين يقبل الليل، ولسوف أذكرها وأعتذر لها ما حييت..».

رغم علمه ودرايته وندمه الذى لن ينفعه أو يفيده، إنه هو نفسه بدأ تلاشيه مع تمام اختفائها، وأن الضوء الذى فض عزلة القبو وصيانته دفع به أيضا إلى حيث لا يمكن الوقوف عليه الآن، لم يحط علما بأن لكل سر، سرا!



حكايـة

قصـر



بعد ذيوع ما جرى فى القصر وتناقله عبر الأفلاك، وانتشاره بلغات شتى شغل كثيرون بأمر البارون والقصر، معلومات بلا حصر وأحاديث واهتمام واسع، لكن ما من صورة واحدة نشرت للبارون، وما من معلومات موثقة، لها صفة المرجعية، أما الخفير فلم ينطق!

الشائع من أمره أنه جاء من بلد أوروبى، اختلف فى أمره، قال البعض إنه فرنسا، وقال آخرون إنه بلجيكا، ودللوا على ذلك بتسييره أول خطوط للمترو عرفتها مصر قبل بداية تشغيلها فى أقطار أوروبية، كل عرباته بلجيكية الصنع، أطلق عليها الناس صفة الأبيض بسبب غلبة اللون على جوانبه ومقدماته، وكانت العربات تقوم من مصر الجديدة كما أطلق البارون على الضاحية فارغة، وتقطع المسافة حتى العباسية آخر حدود القاهرة العامرة وقتئذ. ويؤكد كمسارى معمر أنه أمضى ثلاثة شهور كاملة بدون أن يقطع تذكرة واحدة، كانت العربات تقوم فارغة وتعود كذلك، أما المبانى الفسيحة، المشيدة على الطراز العربى، ذات الأبراج والممرات الفسيحة التى تظلل المارة من حر الصيف ورياح الشتاء الباردة. فبقيت سنوات عدة لايقربها أحد، ولا يقدر على تأجيرها إنسان، حتى اضطر البارون لإنجاح مشروعه وإغراء الناس بالتردد على الضاحية الجديدة أن يستقدم فرقًا للألعاب من أقطار مختلفة لتقديم عروضها فى أول مدينة ملاه تقام فى الشرق كله، وكان اسمها «لونا بارك»، المعمرون يذكرونها جيداً، أثناء تقديم العروض المبهرة يتم توزيع الإعلانات الداعية، موضحة بالصورة المبانى

وأقسامها ومساحاتها ونظم تسديد أسعارها على سنوات بسبل ميسرة، شقق فسيحة، قصور باذخة، تحيط كل منها حديقة فسيحة متعددة الطرز، زخارف قوطية، عناصر أندلسية، واجهات عربية، أعمدة فرعونية، قباب قبطية، فضاءات منطلقة، حدائق سندسية، أطلق عليها البارون هليوبوليس، ولكن المصريين اعتبروها مصر الجديدة، هكذا سارت التسمية وشاعت وتجاوزت ما عداها.

لسنوات عدة بقيت الضاحية شاغرة تقريبًا، أقام البارون عدة مآدب كبرى حضر إحداها الأمير محمد على ولى العهد، لكن تلك الحفلات الناعمة لم يقمها فى القصر الشهير، ذلك أنه لم يكن قد استقر به بعد، إنما تمت كلها فى الفندق الفسيح، متعدد الطوابق، فاخر التأثيث. ثبتت فى ممراته وحجراته التحف النادرة والمرايا المؤطرة، والسجاد اليدوى شيرازى المنشأ.

كان الفندق من المعالم، تقلبت أحواله، وتبدلت معالمه مرات، قصده أثرياء الدنيا مباشرة خلال العهد الملكى، وأقاموا به فى الشتاء سعيا لاستنشاق هواء الصحراء الخالى من التلوث. كانت الأجهزة المعنية فى أوروبا تعتبر الضاحية من أنقى مناطق العالم وأبعدها عن التلوث، إضافة إلى قرية كرواتية تقع على الطريق المؤدى إلى مدينة موستار، وبحيرة جبلية فى مرتفعات كردستان العراقية.

فى الستينيات بعد تأميم الشركة الأجنبية التى أدارت الضاحية لمدة ستين سنة منذ أن أشهرها البارون، أهمل أمر الفندق، ثم تحول إلى مكاتب ومقر للحكومة الاتحادية، بعد وقوع الانفصال بين مصر وسوريا أصبح مقرًا للموظفين، ثم جرى تجهيز قاعة الرقص الدائرية وعقد فيها أول مؤتمر للقمة الإفريقية، أهمل أمره مدة، ثم جرى اهتمام

به وأعيدت صياغة أجنحته وممراته وقاعاته، وأصبح مقرًا رئاسيًا وقت هذا التدوين، فيه تدبر الأمور، وتخرج التصريحات المؤثرة.

كل ما خطط له البارون وجرى ازدحمت الضاحية، اتصل العمران بينها وبين العباسية، وتجاوزها من الجهة الشرقية حيث مدينة نصر، ومن الشمالية حيث المطار، كل شيء تحقق أمره كما تنبأ البارون عدا القصر.

لغز قائم، موضوع محير، بناء غامض، مرهوب الجانب، غير محرض على المغامرة رغم كل ما يقال عن كنوز خبيئة وأموال دفينة مضروبة من الذهب الخالص عيار أربعة وعشرين.

يقع القصر شرق الضاحية، في البداية كان منفردًا، غير محاط بشيء عدا السور الذي مازال قائما وتتخلله بوابة واحدة تؤدي إلى الممر الذي لابد من عبوره للوصول إلى أول الدرج الفسيح المؤدي إلى المدخل، هذه المسافة الفاصلة تهيئ الإنسان بشكل ما. هل يتعرض لمؤثرات مصدرها تلك النقوش الغامضة فوق الواجهات الأمامية والأبراج الجانبية أم توجد أمور أخرى لا يمكن تحديدها؟

اختلف القوم من عقد إلى آخر، بل من موضع إلى موضع، لكن من الثابت أن العمران لم يسر إلى الضاحية إلا بعد اكتمال القصر. إذن متى بدأ البارون في تشييده؟

ما من إجابة قاطعة، لكن المهتمين بتاريخ الضاحية يؤكدون أن التخطيط الأصلي لم يحتو على أي موقع لهذا القصر، وأن البارون لم يقض فيه ليلة واحدة. بل لا توجد وثائق تثبت ملكيته إلى شخص بعينه، حتى ولا البارون الذي خطط لإقامة الضاحية وبذل من أجلها الجهد وصفوة الابتكار.

حفلاته أقيمت فى الفندق، جميع الشخصيات التى استضافها نزلت فيه، أما هو فكان يتنقل بين ثلاثة أو أربعة أماكن للإقامة، بل كان يمكنه فتح أى بيت ودخوله وقضاء ما يريده من وقت، سنوات عديدة كان مقيما بمفرده فى الضاحية، غير أن الإقبال تزايد فجأة، قبل مد خط الترام الأبيض، السريع، وقبل أن تثمر أشجار الحدائق الفسيحة التى خطط لها بعناية، وكان يسقيها بيده صباح كل يوم. وبمجرد اكتمال القصر بدأ توافد الناس.

ما من إجابة محددة، ما من وثيقة مؤكدة، تؤكد أو تؤرخ أو تلمح للتاريخ الذى بدأ فيه بناء القصر، هنا يقول عمدة النوبيين الذى تخطى التسعين، وحاز ثقة البارون، حتى إنه أمضى سنواته الأخيرة لا يتناول طعامه إلا من يديه، ولا يشرب إلا ما يقدمه إليه. يقول النوبى العجوز الذى اتخذ من مقهى قديم مطل على الجامع مقراً له بعد تقاعده ومغادرته الخدمة، واحترافه أعمال سمسرة صغيرة تكفل له رزقًا يحفظه من مد يده إلى قريب أو غريب، يؤكد أن القصر بنى فى ليلة واحدة. نام القوم ولم يكن موضعه إلا خلاء لا يجرؤ أحد على الدنو منه لوحشة الناحية وبعدها عن الضاحية المهجورة أصلاً.

استيقظ الناس ليجدوا هذا البناء الفريد فى هيئته، الغريب فى قسماته، لايماثله بناء آخر فى القاهرة، أو أى مدينة أخرى، بمجرد ظهوره ومثوله فى الفراغ بدأ النحس يفك عن الضاحية الجديدة، حتى إن المساكن والبيوت المستقلة شغلت خلال ستة شهور فقط بعد أن ظلت ما يقرب من عشر سنوات فارغة مهجورة، رغم كل الإغراءات المعتادة والمستحدثة. ما العلاقة بين اكتمال القصر وعمارة مصر الجديدة وإقبال الناس عليها؟

ما من تفسير عند النوبى أو غيره، لكن لم يتوقف أحد من المهتمين أو ذوى الصلة ليحاول بحث الغرض من إنشاء القصر، الطبيعى أن الإجابه الفورية التى ستخطر على الذهن تدور حول اتخاذه مقراً للبارون، لكن المؤكد أنه لم يقض فيه ليلة واحدة، ربما شوهد يتجول بالحديقة التى حفلت بكل نادر من النبات والأشجار قبل أن تجف وتخرب فى الخمسينيات بعد انقطاع المياه تماما عن تلك الجهة لمدة عام، لم يتبق إلا بعض أنواع نادرة من الصبار، قيل إن مصدرها المكسيك.

النوافذ مغلقة، لم تفتح، الأبواب الرئيسية والجانبية كأنها مصمتة، ثبت من التدقيق الذى تم بعد الأحداث أن بعضها وهمى لايؤدى إلى شىء معروف، دائما مغلق، مشرف، باعث على الرهبة، جالب للصد، مرجف لكل من يخطر بباله أن يجتاز السور وأن يقتحم بحثًا عن مغنم سهل أو صعب، لذلك لم تسجل محاضر الشرطة واقعة واحدة طوال ما يقرب من تسعين عامًا تتعلق بمحاولة سرقة أو تسلل أحد الغرباء. ربما لعدم وجود من يبلغ أو يشكو، ولكن بعد ذيوع أمر الأحداث الأخيرة، تردد أن خفيراً من الصعيد يقيم بشكل دائم لحراسة القصر. يتخذ من غرفة صغيرة إلى يمين الداخل مقراً ومأوى، غرفة تبدو جزءاً من الجدار وردى اللون، نفس لون القصر، تلك الدرجة من اللون التى تبدو متربة، غابرة.

«من جاء بك إلى هنا؟».

«أبى..».

«وأين أبوك؟».

«توفاه الله منذ زمن..».

«ومن أتى به ليكون حارسا للقصر؟».

«البارون».

قال فى المحضر الرسمى إنه من أسرة خدمت البارون منذ مجيئه إلى القاهرة واختياره موقع الضاحية، لم يكن ثمة شىء إلا الخلاء والرمال، وكم من ليال أمضاها البارون فى خيمة صغيرة، لم يصحبه وقتئذ إلا والده الصعيدى المولود فى قفط. والمدفون فى حديقة القصر.

«أين ؟».

«لا أعرف.. لكنه هنا..».

«مع البارون؟».

«والله يا بك لا أدرى، أنا جئت من البلد لأتسلم ما تركه لنا الوالد. وعندما قيل لى إننى يجب أن أشغل مكانه كما أوصى لم أتأخر».

«من سلمك متعلقات الوالد؟».

«البارون.. رحمه الله».

«أين هو؟».

تطلع الخفير الجنوبى إلى القصر، ولم ينطق، إنه ذلك الصمت الرادع، الجرانيتى، لايشجع المستجوب على الاستمرار، وبمثله أخفى أهل الوادى الكثير من أسرارهم الحميمة وما يتعلق بخباياهم عن ممثلى السلطة، ورجال الدرك.

تحريات مكثفة حول الخفير وأقاربه، وفى أحد الاجتماعات الأمنية رفيعة المستوى طرحت فكرة اعتقاله طبقًا لقانون الطوارئ، أو إقصائه،

غير أن قيادة أمنية مهمة أكدت استغلال الخفير للقصر فى أغراض مشينة غامضة، وأنه سمح لبعض الرجال والنساء بدخول الحديقة ليلاً، الحديقة وليس مبنى القصر نفسه، وأنه تقاضى أموالاً طائلة من هؤلاء الشبان المضلَّلين، المخدوعين، الذين لم يلقوا من ذويهم رعاية، وأجرى آباؤهم الغائبون المال عليهم ظنًا منهم أن فى ذلك تعويضًا وتسديدا للذنوب الكامنة. لم تهتم القوى السياسية باستيعابهم وغابوا عن حسابات القيادة المركزية فوجدوا من يملأ عقولهم بالتضليل والإفك. استجابوا إلى الدعوة وصدقوا إفك المريبين من الوافدين والمقيمين المضللين واتجهوا إلى عبادة البارون، بدأ ترددهم على القصر سعيًا وفضولا ثم تبركًا، أدوا شعائرهم فيه. وأصغوا إلى من يتلو عليهم مقاطع من سيرته، كيف قدم عبر البحر إلى الصحراء القاحلة، لم يمض ساعة واحدة فى المدينة الساحرة، التى كانت مقصداً للرحالة والمغامرين والقادمين من الغرب والشرق، بحثًا عن الكسب والإثارة وللفحص والمعاينة، جاء مع النوبى وضرب خيمته، وبدأ يصيغ المكان على هدى من إلهام يتلقاه مباشرة عبر أشعة النجوم، لكن قبل الخوض فى تفصيل هذا كله يجب التوقف عند خصائص هذا القصر. ما ظهر منها وما بطن.

أما الظاهر فغرابة بنيانه، إذا لايمكن إرجاعه إلى طراز معين، لكن أساتذة العمارة يقولون بغلبة العناصر الهندية، ربما شجعهم على ذلك الأبراج المنقوشة بالأقواس المتدرجة، الصاعدة إلى تلاش مكين، غير أن أحد أساتذة العمارة بكلية ا الفنون معنى بتطور النواحى العمرانية للقاهرة والتأريخ لها. رصد ما لم يصدقه الأقربون منه، الواثقون به، عدا بعض تلاميذه، منهم ثلاثة رصدوا بين المترددين على القصر فيما بعد. لاحظ الأستاذ أن الصور الملتقطة عبر مسافات زمنية غير

متشابهة، كأن البناء مغاير تمامًا فى كل منها، الأبراج مثلا فى الصورة الثانية الملتقطة خلال الثلاثينيات كانت تبدو منفصلة عن المبنى الرئيسى، المسافة واضحة، يمكن لرجلين بالغين متجاورين أن يمرا من خلالها، هذه المرحلة تبدو الأبراج جزءًا من المبنى، تنطلق منه، أما عددها فازداد واحدًا لم يكن موجودًا فى الأصل، كذلك تختلف الزخارف والمنمنمات والنقوش وفى كل لقطة عدد مختلف لدرجات السلم الأمامى، سجل أيضًا اختلافًا للمسافة الفاصلة بين المبنى والمدخل الخارجى الذى يتخلل السور.

أعد دراسة تفصيلية ركز فيها على النقطة الأخيرة، خاصة أن بعض من ترددوا على القصر لأسباب مختلفة أكدوا ذلك، إذ تفاوت إحساس كل منهم بتلك المسافة، بعضهم قال إنها لم تستغرق أكثر من ثوان، آخرون قالوا وأكدوا أن تغيرات جرت عندهم خلال تلك المسافة القصيرة، حتى ليمكن القول إن أعمارهم تقدمت خلال هذه الخطوات سنوات بأكملها.

وهن، شرود، حيادية مفاجئة، أقوال عديدة تتعلق بهذه المسافة لذلك تجنبها كثيرون وخلال الحقبة الثورية لم يسع أحد إلى تأميمه أو وضع يده عليه، وخلال المرحلة الانفتاحية لم يجل بخاطر أحد المغامرين أو المتخصصين فى قنص العقارات التى اندثر ملاكها بالموت أو الهجرة أو الغياب الغامض، ثمة مبان تسقط من ذاكرة المدينة، قصر قديم، مدرسة استخدمت زمنًا ثم أغلقت لخلل أو خلاف، يمر القوم بالأبواب والنوافذ المهملة يوميًا ويتطلع البعض، وربما استخدمه البعض منهم فى أغراض عابرة، اختفاء من مطاردة، أو قضاء حاجة، أو خلوة دفعت إليها الرغبة المحمومة، وربما ينتبه بعض من لهم قدرة على النبش

والتحرى فيضعون لافتة تعلن عن ملكية غامضة وتحذر الآخرين من الاقتراب. جرى ذلك لمبان عديدة بعضها فى مناطق مختلفة، منها المزدحم، على مقربة من منشآت مهمة مؤمنة ويقف عليها حراس أشداء، رغم كل التطورات، لم يقترب أحد من قصر البارون، التفسيرات بعيدة ودانية معًا، ينحدر بعضها مما تردد حول الآثار الفرعونية فى الصعيد عن وجود حارس خفى، رصد، يلحق الأذى بكل مقترب، باذل للمحاولة. غير أن عدم المساس بقصر البارون له أسباب أخرى، عديدة، ليس من بينها الخشية، الأمر مازال يحتاج إلى فحص وإلمام، المبنى ليس مهجوراً تمامًا، أحيانًا يتردد عليه خبراء العمارة من المصريين والأجانب، أو زوار أو هواة آثار، يصحبهم الخفير، أو يدعهم يتأملون النقوش والأقواس والأبراج، لكن إذا رغب أحد فى الدخول يسرع إليه ليصحبه. لايسمح إلا بإلقاء نظرة من المدخل. خطوة أخرى يحتد ويغضب أيا كان الواقف إلى جواره، لكنه هو نفسه سمح بتردد أولئك الشبان، ليس نهاراً، لكن. . ليلاً أيضًا، هذا ما تردد عبر الصحف وأجهزة الإعلام المختلفة، عندما شاع الأمر وأصبح على كل لسان ومحور اهتمام لمدة ليست بالقصيرة، بل إن تحقيقات عدة أجريت معه قامت بها جهات متعددة، وأبدى خلالها تحملاً وجلداً وقدرة على المداورة، كما انتبه إلى فضول محققيه ورهبة بعضهم، أحدهم سأله خفية:

«أحقًا ما زال البارون مقيما داخل القصر؟».

طبعًا لم يجب بنعم أولاً، إنما تطلع صامتًا، بارداً، حتى خشى من يواجهه، فكف، اضطر إلى توجيه سؤال آخر سمعه الخفير أكثر من مرة بصيغ مختلفة.

«إذن . . أين أولئك الشبان» .

ليس المحققون فقط ، إنما المحامون المنتدبون من أهالى الشبان المرصود، الغائب، الأمر محير للجميع ، والخفير هو الشخص الوحيد الماثل أمام الكل ، بدأ ذلك عندما وردت معلومات إلى مديرية الأمن الخاص بظهور دعوة غامضة بين عدد من الشباب لـ البارون ، تدعو إلى تأمل خصاله ، وما انفرد به ، وتروى سيرته ، ومجيئه إلى الصحراء ، وخطوات عمارته لها ، وظهور هذا القصر فى ليلة ، وحيرة الخلق فيه وعدم ظهوره منذ دخوله آخر مرة إليه فى العشرينيات . وقيل إن الشبان المغرر بهم يسجدون أمام باب مصمت لايؤدى إلى شيء ، مرصع بالفسيفساء الملونة ، وتلك علامة الامتثال للبارون!

تفسيرات شتى أبديت . ومقالات ظهرت وكتب طبعت وراجت ، وارتفع توزيع بعض الصحف والمجلات . كما أعدت برامج إذاعية ودارت أسئلة حول الأسباب الدافعة ، ماذا جرى للشباب؟ ما سبب الفراغ الذى يعانون منه؟ كيف عرفوا الطريق إلى البارون وأفكاره؟ ما دور شبكة الاتصالات الدولية؟ كيف يمكن تحصين ا الشباب ضد هذه الأفكار؟ كما جرى كلام كثير حول الفراغ الروحى ، وهزال الأحزاب . وطالب مسئول أمنى كبير رفض الإفصاح عن اسمه بهدم القصر ، لكن أساتذة الآثار حذروا من ذلك ، وهددوا بطلب التدخل من منظمة التربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) ، وتردد بالفعل أن ثمة بحثًا بدأ لاعتبار القصر أثرًا يجب حمايته لكونه متفردًا ، لامثيل له ، ومن تجليات البناء الإنسانى .

كثير من الأمور المتعلقة بالقصر مسكوت عنها ، بدءا من تصميمه ومدة تشييده ، وحقيقة زخارفه وما يقع لعمارته من متغيرات ، وما

يوجد بداخله، إذ اختلفت الروايات بين قائل يتعجب من الفراغ الهائل الذى لا يسنده عمود واحد، وبين من يضع رسومًا للدرجات الصاعدة والأخرى الهابطة والمستويات المختلفة والغرف المؤدية إلى بعضها، والتى يمكن من خلال كل منها رؤية المساحات الفاصلة. جرى الصمت أيضًا حول حشد قوات من خلاصة الحراسات المدربة. وبعد أن تم التأكد من دخول عدد يتجاوز الأربعين بدءًا من العاشرة ليلاً، جرت عملية الاقتحام بدون ضجيج حتى إن نزلاء الفندق القريب لم يشعروا بأى شىء، كذلك المارة فى الطريق المؤدى إلى المطار. عند الفجر تم إحصاء القوة عدة مرات. والتأكد من خروج جميع أفرادها. عند انصرافهم اصطحبوا معهم الخفير. أسئلة عديدة وجهوها إليه، سمعها من آخرين توالى عرضه عليهم فى الأيام التالية، اختلفت الصيغ لكن المطلب واحد. ورغم كل ما تحمله لم ينطق، ولم يحد عن هز رأسه نفيًا..



مصطلح

درج



الدرج مرقاة، فهو توق، وهذا لا يكون إلا لصعود أو انتقال من سفل إلى علو، ومن هنا تكون المحاولة، فالانتقال من موضع إلى موضع مساو له في الأفقية يقتضي بذل الجهد، فما البال إذا كان مضادا للقوة الحافظة، الماسكة لكل ما هو حي أو نبات ينمو أو طير يحوم أن يفلت ويتوه في فراغات الكون. وتلك القوة القابضة لا نراها، ولا نلمسها، ولا يمكن تعيينها، أو وصفها، أو إرجاعها إلى عناصرها الأولى، تماما شأن كل ما يؤثر في مصائرنا، الزمن مثلا، نرى أعراضه ولا ننفذ إلى جوهره ولانقف على ما يجرى في مساره، ولا يمكننا تحديد أوله. وبالتالي آخره، فكل ما تدرك بدايته يمكن تحديد نهايته، وليس الأمر إلا بحثًا وتقصيًا وازديادًا.

للصعود زهوة، وجلوة، وما الدرج إلا مساعد، فالمسافة إلى أعلى تقطع بميل. كل درج مائل مع أنه مؤد إلى أعلى، لابد من ميل حتى وإن بدا للناظر المتعجل مستقيما كحرف الألف. وأول أرقام العدد، ذلك أن الوصول يقتضي الميل، والطريق الذى يبدو للناظر الجاهر مستقيمًا، مفرودا، مبسوطا كل البسط، إنما يتضمن في حقيقته ميلاً، ذلك أن كوكبنا كروى، وأفقنا دائرى، ولو أن الطرق كلها مستقيمة لما أدت إلى بعضها. هكذا ألمح وبهذا صرح الشيخ الأكبر رحمه الله.

كل درج مائل، هذه حقيقة وسمة، كل درج من أجزاء ومن كل، فالدرجة الواحدة يسيرة، هيئة، تؤدى إلى غيرها، وبذلك يتم تجزىء الصعود، وتقسيم المجهود، وتيسير المطلوب، والبنَّاء الماهر، من يتقن

زاوية الميل، فيأتى بها بحث تخفف عن الطالع، وتيسر للنازل، ولا يجعلها دفعة واحدة، فيدخل على التقسيم تقسيمًا، فكل سبع درجات تليها بسطة، أو مساحة، أو لوح معلق إلى الجدار، يبذل المفتن جهداً فى إخراجه وإتقانه، وتسهيل الأمر على الصغير والكبير، ذلك أن الطفل يرتقى الدرج بصعوبة، ويقطعة الصبى والفتى بسهولة، غير أن دبيبا خفيفا يسرى ويلوح، وهنا يصعب رصده، ينتبه المرء إليه عند لواح علاماته، وظهور إشارته، وليس هذا كله إلا نتيجة وبداية أيضًا لنهاية مع الفتوة لا يتوقف المرء للنظر والتمعن، يتخيل أنه بالغ للمهيمنية، لكنه عند أول عارض يصير مجبوراً على مراعاة الحركات والسكنات، وإسناد الخطو إلى بدايات الدرج بحذر وخشية من انقطاع الأنفاس وعدم القدرة على تحصيل المراد وهو جد يسير، ورغم اختلاف المصادر وتباين الأحوال، فثمة شبه لا تخطئه عين حصيف بين صعود الصبى الصغير، طرى العظام غض المفاصل، وبين محاولة الواهن، إما بتأثير التقدم فى العمر أو سريان العلة.

يكون الدرج أحيانا ظاهرا إذا تعلق بالبناء من خارجه. وقديمًا كان هذا شائعًا، رائجًا. لكن الإنسان جبل على طى سرائره وإخفاء كوامنه. وما يتصل بالسرائر يستحسن أن يظل بعيدا عن الأبصار، غير متاح للعابرين والفضوليين والأغراب عن البناء. فالعمارة إقامة، والطريق عبور.

العاقل، الحصيف من يعرف أول الدرج وآخره ومقداره، وتعينه، وما يقتضيه من جهد وما يستلزمه من بذل، ولهذا كله تدبير، فإذا شط وخرج عن الخطة ربما يلقى ما لم يعد له الأهبة، الذى حلت به طاقة وثابة، ربما مصدرها فلكه الشاسع، وقوته الحامية وقدرته المطوعة، ومهابته الرادعة. لكن هذا كله ليس مصدراً لجموحه، فكم قبله وبعده امتلكوا أسبابا للجاه والسطوة وفرض القدرة، لكنهم لم يقدموا ولم

يشرعوا إلا بقدر، رغبه تجاوزت حتى حدود الحلم، وشسوع الخيالات الراكضة، لم يكتف بالتأمل، بالحلم، إنما شرع لعله يبلغ الأسباب، رغم غموض النتيجة وضعف الإمكانية، لكن قدرته على المحاولة لم يعرف أحد مثلها حتى عصره. دعا مهندسيه والمعلمين الكبار الذين رافقوه فى حملاته وشيدوا له المنازل المؤقتة، والجسور الواصلة، وأتموا ما بدأته الرياح وتعاقب الحرارة والبرودة واتخاذ الأمطار والسيول مسارات نافذة أدت إلى تلك الطرق الطبيعية الصاعدة، النازلة، أرسل ليستدعى مصممى الأبراج المتنقلة، ومنازل الطيور الساعية، المهاجرة والتى بقى بعضها لما لقيه داخلها، وهذا عجيب، وهؤلاء مدوا له أيضًا القنوات التى تكفل السقايات والمدد.

أطلعهم على ما يرغبه، أن يقيم برجا يتجاوز به السحاب ليبلغ النجوم الأقاصى، أن يأسر الشهب المارقة، التى تذوى بمجرد أن تبدو، أن يوقفها من مصادرها.

قال إنه يمهلهم مقدار دورة من دورات الفلك. لم يعترض أحدهم، ولم ينطق سؤالا أو استفسارا، فمثل تلك الجلسة ليست إلا للإبلاغ، أما الجدل فيحين فيما بعد. غير أن مثل هذه الأمور مما تحدث أصداء شتى، لعل أشدها وضوحا خروج الحكيم من خلوته، ومضيه إلى التواق الأعظم. يختلف القوم فى تقدير عمره. لكنه معروف للصغير قبل الكبير. إنه مثابة العتبة للدرج، فلكل درج عتبة مؤدية، وأخرى تنهيه، حتى وإن لم تمثل فى البناء، إنه الوحيد صاحب الحق فى المملكة كلها الذى يحق له الاعتراض الجهورى، ورفع الصوت عند الحديث إليه، ودفعه فى صدره تنبيها أو زجرًا، لكل أوان حكيم مثله ضمانا للردع عند الخرق، وحجبا للتجاوز. عندما ولج الخلوة الملكية، أدرك التواق الأعظم سبب قدومه، فبادره بالسؤال.

كيف يمكننى رؤية الكواكب والنجوم ولا أقدر على بلوغها؟

قال المقيم، القديم:

ليس كل ما يراه الإنسان ببالغه . .

قال إن ما تحيط به الحواس الفاعلة لايدرك كله، ولايمكن فهم الكثير منه، أو إدراك أصله ومساره، كل درج مصنوع أو حفرته العوامل الطبيعية محدود بمدى، موهون بقدرة وطاقة وما يتاح الآن لايكفى تحقيق الغرض.

مال التواق الأعظم، ذرف دمع الحيرة والرغبة، دموع لا يمكن ظهورها إلا على مرأى من الرائى، المدرك، الحنون، المتفهم له. ربت كتفه، وملس رأسه، وأصغى إلى دمدمة تطلعه وشوقه إلى مغادرة كل مألوف، ارتقاء درج غير عادى، لم يعرفه القوم من قبل، لم يبد الكهل المتكلم، الناطق بالخلاصة غضبا أو أسفًا، بل وسع فهمه لما أصغى إليه، ضمه إلى صدره. علامة الرضا والمباركة وتمنى السؤدد الجوال، قال ما تناقله القوم فيما تلى ذلك من جيل إلى آخر، تماما كصعود الدرج.

مباركة إرادتك . .

ثم قال:

لولا الحلم الخارق لما وقع التحقيق الماثل . .

ثم قال:

ابدأ درجك لعلك تبلغ به الأسباب . .

ثم أتبع قوله بإشارة تفيض مودة ومحبة حريصة . .

وتذكر دائما أن الدرج للصعود . . وللنزول أيضًا . .

حكايـة

بـربـا



كل عمارة تقييد، تحديد لحيز ولحركة، والكلام هواء، تمسك به الحروف، إنها سكنه ومستقره، فهل أدرك المتعاملون مع الأقلام والقراطيس أنهم يقيمون أثناء عملهم عمارة للفراغات، للهواء، وسكنا للأنفاس والرؤى؟

هذا ما خطط له القدامى الذين عاشوا على ضفتى النهر، ورصدوا مرات فيضانه، وارتباطها بمواضع النجوم وسريان الرياح الهبوب، وتوقيتات قدوم أو ذهاب أنواع الطيور، طال تحديقهم إلى الأعلى حيث الثوابت والموارق من شهب ونيازك.

الأمر ميسور الآن فما أكثر تنوع العمارة، ولكم تعددت الحروف، ولعل كثيرين يظنون أنه أغرب البنيان، لكن.. هذا ليس صحيحًا، فثمة ما يعد أغرب وأعجب.. وهذا يقتضى صبراً قليلا حتى يمكن التوضيح، ما يتصل بالمعنى، وبصاحبنا هذا الذى جاء إلى مدينة سوهاج يسعى، قاصدا بالتحديد رؤية شيئين طال انشغاله بهما، وهما، جلالة الملكة ميريت آمون مطربة الغروب، وما تيسر من بقايا البربا.

صلته بالأمرين عتيقة، وشرحها يقتضى تفاصيل لكن التوضيح ضرورى والإيجاز واجب، فنقول إنه من مواليد الناحية، صحيح أنه أمضى طفولته غرب النهر آخر حدود العمار وأول الصحراء، حيث مسقط رأسه جهينة، لكنه متعلق بكل ما يمت إلى تلك النواحى، حتى

الظلال، والنخيل الكثيف الأزلى، وطلة الجبل على النهر الماضى من جنوب إلى شمال على سجيته، لم تحده بعد طرق مصنوعة، ولم تطل عليه عمائر القادرين، الطرق الضيقة التى مهدتها السنون وأقدام البشر، وأشجار التوت والتين ورائحة الجوافة والمياه فى الآبار العميقة، ولهجة القوم. تذكره بصوت أبيه وإيقاعات أمه عند الحديث، لم يحتفظ بتسجيل لصوت والده، وعنده رسالة بصوت المرحومة سجلتها إلى شقيقه زمن سفره للدراسة، لكنه لايجرؤ على الإصغاء إليها حتى الآن، ثمة يقين خفى، لايدرى مصدره، إنه لو استمع إليها لاكتمل نسيانها وبدأ محوه هو أيضًا.

اعتاد قبل مفارقة الفندق الصغير المطل على النيل أن يطيل النظر إلى الجانب الآخر، البيوت المتضامة، المتساندة، لاشىء متميز فى مواجهته إلا النهر.

أشار موظف الاستقبال إلى شاب أنيق يقف قرب مدخل الفندق يقول إنه ينتظر منذ عشر دقائق، لم يره من قبل، وتبدو هيئته غريبة، غير متسقة مع من تعرف إليهم فى قصر الثقافة، ملابسه أنيقة، حضوره وسيم، يقف إلى جوار سيارة حديثة الطراز، يقول إنه جاهز، متأهب لصاحبة سيادته.

قاهرى اللهجة والمنشأ كما توقع، المقعد وثير، الأجهزة عديدة معقدة، هاتف نقال، لايمكن أن يمتلك القصر عربة كهذه، معظم ما يتبعه من سيارات قديمة الطراز، انتهى عمرها الافتراضى، لم يعبأ بنطق الاستفسار، يؤجل ذلك إلى لحظة تالية، وربما خلا من الدافع تماما، منذ إفاقته من أزمته الصحية والتزامه بنصائح الأطباء يتطلع إلى تفاصيل الحياة اليومية العادية وكأنها تقع وراء جدار زجاجى شفيف، ما يتصل

به داخله أكثر وأعم مما يتصل به خارجه، يتذكر الآن بعد تحرك العربة أنه لم يخطر موظف الاستقبال بموعد عودته.

وهل يثق؟

ثمة ابتسامة إلى الداخل، من اختل بنيانه يمكنه توقع أى أمر، مايشغله الآن يحيد به عن أى ارتباط أو خطة لاتتعلق بما يسعى إليه، ذلك الحنين!

يرغب الصمت، الاستغراق، استعادة ما قرأه، لكن هذا الشاب المعتد بنفسه، أنيق المظهر، مثير للفضول، يعرف تلك اللحظات عندما يستقر إلى جوار من لا يعرفه، يحاول إشاعة مناخ حميمى فى زمن يسير، فى البداية أجاب باختصار مستخدما مصطلحات إنجليزية عديدة، لكنة تحدث باستفاضة عندما راح يجيب عن استفساراته حول السيارة الحديثة، المكيفة، إمكاناتها الاستثنائية، خاصة فى الصحراء والأراضى السبخة، تجمع بين الخبرة الأمريكية والتكنولوجيا اليابانية والأناقة الأوروبية، إنها معدة للعمل فى الثلوج أيضًا، لكن. . ثمة تعديلات أجريت لتناسب المناخ الحار لمصر والمناطق الوعرة.

طريق محاذ للنهر، يتجه صوب الشرق، ناحية المرتفعات الصخرية البادية، مقاه صغيرة، رجل يرتدى جلبابا وعمامة، يمسك مدفعًا رشاشا، يقف مستنفرًا، مؤديا التحية شبه العسكرية لمن بداخل العربة، لابد أنه يحتاط لنفسه، من يدرى. . ربما كان راكبها ضابطا برتبة كبيرة، أو موظفا بالمحافظة، أو شخصا ما له نفوذ.

سلاحه غير خفى، مشرع، عربات الحراسة أفرادها عند النواصى، آخرون يكمنون عند المداخل المؤدية إلى حقول القصب أو الذرة أو مغارات الشرق والغرب.

توتر غير مستتر، كثير من الاشتباكات لا يعلن عنها، فى أى لحظة ربما ينطلق الرصاص.

يقول الشاب فجأة: إن مسألة الإرهاب طالت أكثر مما ينبغى.

يجيبه بطلة صامتة فضولية، كأنه أدرك ما يفكر فيه، ما يشغله، ما جال بخاطره خلال تلك اللحظة.

يستأنف الشاب مؤكدا أن الأزمة لن تنتهى قريبًا.

يجيبه مبتسمًا، إن هذا كله لن يشغله عن زيارة جلالة الملكة، والبربا.

يتساءل الشاب:

«أى ملكة»؟

«أحقا لا تعرفها»؟

إذن صدق حدسه، لا علاقة له بقصر الثقافة، لابد أنهم استعاروا العربة من ديوان المحافظة، أو إحدى الهيئات الأخرى ذات النفوذ، سيؤجل الاستفسار الآن، غير أن ما يتعلق بالملكة لايمكن إرجاؤه.

«ألم تسمع بمطربة الشمس عند غروبها»؟

نظرته جانبية، دهشة:

«أى مطربة؟ أى غروب».

«اسمها ميريت آمون..».

«ميريت.. إنه الفندق الذى تنزل فيه.. أظنه نوعًا من السجائر أيضًا».

«لكنك تتجه إلى الطريق الصحيح . . كأنك تعرفها؟» .

«هذه السكة مؤدية إلى الطريق الشرقى الصحراوى . . . » .

ثم قال :

«إنه مفض إلى القاهرة ، إنه إنجاز . . . » .

ثم قال :

«لكننى لم أدخل المدينة . . لا أعرفها . . ماذا قلت عن المكان الآخر؟» .

«البربا» .

«ماذا يعنى ذلك»؟

«أثر قديم . . قديم جداً . . » .

«لم أسمع به . . » .

«به ما لايحصى من المبانى والبوابات الوهمية»؟

«أى وهمية . . ماذا يعنى ذلك»؟

«بوابات لاتؤدى إلى شىء محدد ، لكنها . . . ؟

«لم أعرف شيئًا كهذا . . » .

يتمهل لحظة قبل أن يقول موضحًا :

«مثل المحراب . . . » .

لايجيب ، نظرته الجانبية استفزازية ، عدوانية ، يفضل الصمت ، يحاول استعادة بعضا من ملامح الطريق ، أن يستنفر خبايا ذاكرته ، غير

أن حضور النخيل الكثيف يطغى على ماعداه، تتداخل النواصى التى يراها الآن بأخرى قديمة، من مواضع شتى متباعدة، خاصة الطرق العامرة برائحة التين والطين المستقرة فى أعماق القنوات المائية السارية إلى جذور النباتات والأشجار الموغلة.

يلح عليه طابق أول من بيت قديم، متين، شاهق البنيان، وقته ما بين اكتمال المغيب وأول إيغال الليل، يقترب منه صغير بصحبة والده، مقبل على الدنيا.

يفتح الباب الخشبى ثقيل المصراعين، تاجر أقمشة اسمه محمد عمرو، كيف احتفظ بالاسم والملامح، لماذا تلك اللحظة بالذات؟ بل إنه ليذكر لون الجلباب، ربما أزرق، طربوش أحمر، هذا مؤكد.. عدا ذلك يصعب اليقين.

يشير إلى لافتة زرقاء، عليها كتابة بيضاء.

«أخميم».

يتبع السهم، مئذنة مرتفعة وسط بيوت بعضها مشرف والآخر تابع، أرض غير مستوية، مشارف مدينة، بوابات خفيفة لكنها ماثلة للإحساس.

كيف يمكن الاستدلال على الساحة المقدسة حيث تتطلع الملكة بلا نهاية محددة صوب الغروب، تلك النظرة التى تتجاوز كل ما هو قائم إلى ما يخفى ولا يبين، نظرات ساجية، راضية، مرضية، مطمئنة، داعية للذهاب فى إثرها.

هنا يبدأ ما لايمكن إدراكه، ما يؤدى إلى فقدانه الإحساس بوجود مرافقه، ضوء مغاير أو تغير ما طرأ على عينيه، أم إنه زجاج العربة يتغير بشكل ما؟

ربما . . .

إنه معنى بملامح المدينة أكثر من الاستفسار عن تفاصيل تتعلق بالعربة المريحة والمكيفة، تعزل ركابها عن أى واقع خارجى تمر به، تعبره.

عندما نزل المدينة أول مرة منذ ثلاثين عامًا، لم تكن أطراف الملكة ميريت بدت، لكنه سمع بوجودها من بعض الرجال المعمرين، أفضوا بتفاصيل كثيرة، ومن ذلك وجود مكان قرب البربا إذا مشى الرجل قربه أو عبره أنعظ، وإذا دنت منه الأنثى ارتج أمرها وتاقت إلى الجماع، وجرى ما يتستر القوم عليه رغم مثوله فى الذاكرة الجماعية، المتوارثة، إلى أن بدا الكشف عن التمثال الهائل الراقد على وجهه، أول ما بدا منها طلتها الجانبية.

استمرت تتطلع إلى الخلق ثلاث سنوات إلى أن بدأت الأعمال التى أدت إلى اتخاذها وضع الوقوف والنظر إلى الغرب، وللأمر تفصيل يطول لعلنا نشفى الغليل ونبل الريق بما جاء فى النص المعنون «مطربة الغروب».

متى اكتمل التمثال؟

متى بدأ البلى يسرى إليه؟

متى سقط على وجهه؟

هل مال شيئًا فشيئًا؟ أم هوى؟ كيف لم يتحطم إذن؟ الملكة ماثلة، دانية، ناشرة، باثة أنوثتها الكونية، لكن أين البربا؟

أين موضعها؟

هذا ما لايعرفه أحد، ولايؤكده متخصص، إنما الأمر كله فى إطار التخمين.

«بالتأكيد.. ثمة مدن أخرى تحت الأرض».

بوغت الشاب، عبارة لم يسبقها تمهيد.

«نعم...».

إجابة تتضمن استنكارا ما، إلا أنه لم يعبأ، استمر.

«ظلت مختفية أكثر من ثلاثة آلاف سنة.. ولم تفقد قدرتها على البث..».

عندما جاء إلى أخميم أول مرة أدركه حضورها رغم أنه لم يرها، يثق الآن من قرب البربا، يلتفت الشاب إليه، يقول ساخراً:

«تذكرنى بعبدة البارون...».

يتطلع إليه صامتا، من الأفضل أن يتجاهل هذه الملاحظة العدوانية، الساخرة، إن فارق العمر بينهما لايسمح بهذا التبسط، الغريب أن الملامح الجانبية للشاب تشبه مجايلا له تقريبا، ظهر فى التليفزيون، كان المصور يقدم ملامحه الجانبية فقط، وكان مدير الأمن العام يتحدث عن الخطوات التى اتبعت والمراقبة الدقيقة التى تمت للمترددين على قصر البارون المهجور، هذا الشاب بالتحديد أمضى ليلة كاملة متمددا بمفرده داخل المقبرة المستقرة فى الطابق الأرضى، والتى تدور حولها أقاويل عديدة، منها خلوها من البارون، إذ إنه مازال حيا يسعى، ومنها وجود بقايا أقاربه، أما الدافع لمكوث ذلك الشاب تلك الليلة وحيداً، متمددا داخل القبر، فرغبته فى الوقوف على ما يجرى هناك.

قال مدير الأمن العام إن القوات الخاصة المكلفة بالمتابعة رصدت كل خطواته، وسجلت ما قام به من طقوس، هنا وجه المحاور الشهير استفسارا ظاهره إحراج الضيف، وحقيقته مجاملته.

«هل تم تسجيل ما قام به فعلا»؟

بهدوء واثق قال اللواء:

«طبعا.. طبعًا».

ثم انتقل بيسر وسلاسة ليوضح خطورة مثل هذا التصرف على المجتمع.

يستعيد المشهد، يتعاطف مع الشاب الذى بدا مهمومًا، مغموما، مجبرا على الظهور.

«إنه يستحق تحية..».

يلتفت السائق الشاب:

«أى تحية..».

يواصل منفعلا:

«بل جائزة لقضائه تلك الليلة..».

يبتعد الشاب قليلاً، يبدو معنيا بإنهاء تلك الصحبة الغامضة، خاصة أن السيارة بدأت تدخل شوارع المدينة العتيقة، الضيقة، عندما جاء إلى هنا لأول مرة لم يعرف عنها إلا الاسم الموحى بالعتاقة، وشهرة بصناعة الحرير الطبيعى بنفس الطريقة التى نسج بها الفراعنة الأقمشة لآلهتهم، كانت مهمته عابرة، وكان يمكن ألا يطأها مرة ثانية شأن المدن

العديدة التى عبرها ولم يعد إليها، لكن. . . الأمر اختلف هنا، رسخ عنده تعلق مكين صار يغار منه على صلته بمسقط رأسه، جهينة على الضفة الغربية للنهر، هنا لايحدد الأماكن فقط إنما يعين الأوقات كافة، وكلمة النهر تختزل الأمور والأوصاف لاتدل ولا تشى، وربما كان ما يتناقله القوم أقرب رغم بُعده أيضًا عن الواقع، يقول «شرق البحر» أو غرب البحر».

النيل عندهم بحر ودعامات وأسقف غير مرئية، وقيعان مخيفة غاطسة، عمارة كونية، لايمكن تحديدها أو وصفها بدقة، لايذكر أمام أى مصطبة أصغى إلى تلك الجملة التى نطق بها واحد من رجال المدينة الراسخين، المقيمين، قال:

«الشرح كله فى البربا. . . ».

لكن. . . أين البربا؟ أين؟

ثمة أوصاف مدونة فى كتب الأقدمين، قرأ مشاهداتهم ومدوناتهم، ما كتبه سترابون، هيروديت، ابن جبير، ابن بطوطة، ماذكره المقريزى، ابن دقماق، ابن إياس، الرحالة الذين صعدوا إلى مصر العليا حتى القرن السادس عشر، هذا قرن فاصل، جرى فيه أمر غامض بحيث لم يرد ذكر لها فيما تم تدوينه بعد ذلك.

صحيح أنه ما من وصف يشبه الآخر، كأن كلاً منهم رأى موقعًا، مغايرا وعمارة مختلفة ونزل بلدة غير أخميم. . فى البدء أرجع ذلك إلى اختلاف الأزمنة الذى يستتبعه تغير المعالم والأماكن، ألا يعود أحيانا إلى مدينة ارتبط بها زمنا، يمشى فى الشوارع التى يعرفها، والمقاهى التى يحفظ معالمها، ويتمهل عند النواصى التى يتقنها، لكنه

لايجد شيئا من هذا كله، مما عرفه، لذلك تبدو عبثًا محاولته لملمة معالم البربا من أوصاف مدونة يفصل بين بعضها مئات السنين، السؤال الذى لم يقرأه.

أين موضع البربا الآن؟

أين معالمها؟

إلى من يتوجه بالسؤال؟

هذا الشاب لايعرف المدينة، لايحفظ معالمها، بعد صمته يبدو عدوانيا، ساعيًا إلى المناوشة، نظراته الاستفزازية، إبداؤه الضيق، يدركه الحرج، لا يريد أن يثقل على أحد، ما ذنبه؟ هم الذين أرسلوا هذه العربة الفاخرة التى لم يكن بحاجة إليها، لكنه إذا استمر فى التبرم وإبداء الضيق ربما أظهر رد فعل يحرص على كتمانه، يقهره الحياء من الآخرين، لكنه عند نقطة معينة لايطيق صبرا فينفجر، يحيد بنظراته، حقا. . لكم كلفه هذا الحياء، لايرغب فى استعادة أموره الخاصة وشجونه المفردة، إنه مفض بكليته إلى البربا، إلى تلك العمارة الأنثوية الشاهقة، المشرفة، المتمركزة فى فضاء المدينة، لاتزال الشوارع قادرة على استيعاب حركة السيارة، لكن التقدم بطىء جدًا للزحام وضيق المسافة معًا، تنبت البيوت من الأراضى المتربة المشبعة بالرطوبة والجفاف، والجذور الغائرة، والأنفاس المتبقية ممن سعوا يوما، عيدان البوص، ذرات التبن العالقة، رائحة دخان، تتعدد سماته وفقا لمصادره، المنبعث من أفران الخبيز الموقدة بقوالح الذرة وعيدان الحطب، مغاير للمتصاعد من النيران الناتجة عن اشتعال البترول والسولار، وللخبيز عنده مراحل شتى ومنازل.

لايسعى إلى ما تحويه المدينة الآن، إنما إلى ماكان وسيكون، كل ما

تضمه تلك الفراغات يخصه، ينتمى إليه، بل صيغ منه وتشكل، يود الانفراد، أن يترجل ويشمر، يقصد ما يعرفه، وما يجهله، عساه بالغ ما يبحث عنه، ما يتوقعه، ليس حدسًا ومكونات يصعب تحديدها، إنما اليقين مدركها ومحوم حولها، فى بحثه عن البربا يتبع نداءات لم تنطق، إنما اليقين مدركها ومحوم حولها، فى بحثه عن البربا يتبع نداءات لم تنطق، وسطور لم تدون، وإيماءات لم تفسر، يوقن أنه عند لحظة ما، موضع ما، سيواجه بما يبحث عنه، بما يكد من أجله.

تهتز العربة يابانية الصنع، المتقنة، مطبات عميقة، منحنيات، لابد من التزام الحذر عندها، نساء يغطين وجوههن يجلسن أمام فتحات البيوت الضيقة، يهفو ويحن، قعدة هذه المرأة المتقدمة فى العمر تحوى بشكل ما قعدة أمه، إطراقة خاصة، حضور طيب السمت، كثيرا ما لاذ بمثله عند بدء القلقلة واستحكام الضيق، وتمام الخنقة، زار بلدانا شتى، ورأى أقواما مغايرين، لكنه لم يعرف مثل تلك القعدة الأمومية.

توغل المدينة عندهما، أو يلجان فيها، ما من علامة دالة، يوقن أن ما يراه يتساوى مع ما خفى، غير أنه يفضل التعامل مع الظاهر. فلايستدير إلا عند ناصية بادية لهما، وإن كان يثق بوجود بوابات وشرفات وحجرات تؤدى إلى أخرى وممرات وأفنية مؤدية، موقن أن العربة فى تقدمها السريع أو البطىء المضطرب اجتازت عدة بوابات خفية، ليست وهمية، فالوهمية حضورها قائم لكنها موصدة، لاتليها فراغات، ليست بوابات ضخمة، هائلة من تلك المنصوبة فى الطرق العامة ليمر عبرها الزعماء، وأصحاب الشأن وكذلك أبناء السبيل المجهولون، إنها بوابات مغايرة، بالتأكيد يؤدى بعضها إلى البربا، لايعنيه وصف ابن جبير لتلك الشواهد السوامق، المحفوفة بالأعمدة

على الجانبين، إنها بوابات خفية، تستعصى على الرؤية لكنها مؤدية، مفضية إلى مالا يدريه ومالم يصفه أحد الرحالة أو الحجاج العابرين من قبله، هكذا يقينه، إنها الخطوات الأولى التى يليها بلوغ البربا.

تضطر السيارة إلى التوقف، أوزة بيضاء، نبيلة المظهر، تعبر الطريق متمهلة، كأنها خارجة من رسم على جدار فرعونى، قديم لم تبل ألوانه ولم تبهت. يقترب شاب يرتدى جلبابا بلديا، ولبدة بنية اللون، وشالا يلتف حول عنقه يتساءل، يبدو أن هيئتهما تشى بهما، بجهلهما القصد، كذلك العربة، يشى الجماد بما يجرى الكائن المتصل به.

«أنا مخبر سرى.. أركب معكما وأدلكما...».

يبرز بطاقة، لم يعن أحدهما بالتطلع إليها، أفسح له مكانا، إنه من أبناء البلدة أولا وأخيراً، يتقن دروبها ومواضع مخارجها ومسالكها، من ناحية أخرى ربما يخفف وجوده ذلك التوتر المتزايد، كان على وشك مفارقة العربة وإتمام مشواره سعيا على قدميه.

«إلى أين بالصلاة على النبى..؟».

يقول الشاب بلهجة محايدة:

«إلى جلالة الملكة..».

يلتفت إليه، بالتأكيد كان نطقه محترما، يخلو من أى تهكم، بل كيف أدرك مقصده، هل أطلعه ونسى الأمر؟

يشير المخبر إلى الأمام.

«الطريق صحيح.. لكنه صعب.. ثمة سكك أسهل..».

يتلفت حوله، يقول بحزم:

«على طول.. ثم.. إلى اليمن..».

من الضيق إلى السعة، لم يكن الطريق فسيحا كذلك المؤدى إلى المدينة، لكن عرضه يكفى لتحرك العربة بيسر واندفاعها إلى الأمام بدون هزات عنيفة.

البيوت مختلفة، منتظمة، تفصلها عن بعضها مسافات ضئيلة أو فسيحة لكنها كافية، معظمها بنى من الحجر القديم، شرفاتها ذات أعمدة، غير أن بيوتا أخرى ظهرت، متلاصقة، جدرانها من طوب أحمر، عشوائية، غير متساوية، يتقدم بعضها على بعض، الخرسانة بادية، يرتفع صوت المخبر..

«كل من سافر إلى السعودية أو الخليج رجع بقرشين وبنى بهم..».

كأنه أدرك ما جال بخاطره، أو استنتج ما لاحظه من اتجاه البصر والتعبير.

«هدموا بيوتهم الواسعة وسكنوا الشقق الضيقة».

كل واحد يقول.. بيت فلان بنى.. اشمعنى»!

يلوح مشيراً:

«أما بناء الجوامع.. المساجد الآن أكثر من البيوت، أصحابها يقفون الآن أمامها».

ينادون على الناس ليدخلوا..».

«عجائب.. والله عجائب.. يمين يا أسطى».

يبدو الضيق على ملامح الشاب.. لم تعجبه كلمة أسطى.. تتناقض مع أناقته وبشرته الناعمة، وشعره المصفف، يمت إلى فئة معينة من العاصمة، لكن جلوسه خلف المقود، وربما هيئة ما جعلت الشرطى السرى يصر على تكرار «يا أسطى».

تضيق الطرق، دكان خياط بلدى، يجلس فوق مصطبة من الطين، يختفى أمثاله الآن، الجلابيب البلدى تجىء جاهزة من الصين.

«شمال».

لهجته أقرب إلى الأمر، كف عن تبسطه، منذ دقائق لزم الصمت تماما بل بدا مقطبا، متجهما، يفسح الأهالى الطريق بتراجعهم إلى الجدران، يضطر بعض الجالسين إلى الوقوف، العربة مقلقة، أنيقة المظهر، قوية الحضور، يبدو أنه من النادر مرور مثلها، يتزايد الزحام، باعة للخضر والفاكهة، أوان صغيرة من البلاستيك، ملابس قديمة وعربات يد فوقها سكر أحمر على هيئة أقماع، منذ سنوات الطفولة لم يره، لكنه يتذكر مذاقه، كاد يتوارى تماما من ذاكرته، ها هو ماثل أمامه.

السكر الأبيض كان معروضا على هيئة بلاطات مستطيلة وأقماع أكبر حجمًا.. ياه.. مجرد قطع من السكر تستدعى حقبا بأكملها.

رجل يقف رافعا يده بالتحية، يظن أن مسئولا كبيرا داخل العربة، واجهة متجر تحمل إعلانا عن سجائر انقرضت منذ الثلاثينيات، رأى نفس الإعلان فى صحف قديمة أثناء تردده على دار الكتب.

يتزايد الزحام، التقدم أصعب، البيوت متلاصقة، أقل خطأ يمكن أن يؤدى إلى دهس طفل أو دجاجة أو ماعز عابرة، يختلط البشر بالطيور بالحيوانات بحبات الخضر، الزحام كثيف، إنه قلب السوق.

يضطر الشاب إلى التوقف تماما، ينكفئ على عجلة القيادة، يغمض عينيه، يردد:

«مستحيل.. مستحيل».

يفتح المخبر الباب، يشير إلى الأمام . .

«الطريق على طول . . لايمين ولا شمال» .

يبتعد، يختفى تماما، التعبير الأخير من وجهه يحتوى على ملامح ساخرة، أو أسيانة، ربما . . لايدرى .

«هل رأيت؟ . . . خدعنا . . . كان يريد أن يصل بنا إلى هنا . . . لا أعرف هدفه . . كيف أتحرك الآن»؟

يضطر إلى الترجل ليحث الناس على إفساح الطريق للعربة، يكتشف استحالة ذلك، أقفاص الدجاج والأوعية المليئة بالمياه الساخنة ريش الطيور المذبوحة، الأحشاء المستخرجة، أطباق عريضة مرصوص فوقها البيض الطازج، بدو . . . العربة غريبة هنا، يقول الشاب :

«يمكنك أن تقطع المسافة مشيًا . . أما أنا فسأبقى حتى ينتهى السوق» . هكذا يعفيه من الحرج، يمكنه أن يسعى بمفرده بعد أن صارت الرفقة ثقيلة، محرجة، يومئ شاكرا، يخطو مبتعداً، لايلتفت خلفه إلا قرب المنحنى .

السيارة غير موجودة، ليست ماثلة، هل شق طريقه بهذه السرعة؟

يستعيد ملامح الشاب، والطريقة التى نطق بها جملة «جلالة الملكة» يجب ألا يشغل نفسه به، أمامه عدة مراحل يجب أن يقطعها، الخروج من هذه الشوارع والأزقة الضيقة، كل منها يؤدى إلى الآخر، الجديد اختلاف المستويات، طريق نازل، آخر صاعد، وكل هابط طالع، فلا يمكن أن يتم النزول إلا من مرتفع، يتوقف، يتنفس براحته، إنه متعب، لكنه بانفراده، أخيرا يسترد حرية غابت عنه خلال وجوده فى العربة، كذلك ثقل هذا المخبر الغامض .

هل يراقبه من مكان ما؟

ربما . .

إنه غريب عن المدينة، لكنه من الناحية، وهو غير مطلوب، ولا يبادر الآخرين بعداوة أو حتى لفظ جارح، إنما يسعى لرؤية العمارة الأنثوية التى انتصبت مؤخرا بعد رقاد دام قرونا عديدة، إذا وصل إليها يكون على مشارف البربا وإذا ولج البربا فإنه يتمكن من الصرح الأنثوى لميريت آمون .

تلح عليه ملامح الشاب . لماذا نطق لقبها بهذه اللهجة الغريبة؟ يثق أنه رآها فى التليفزيون . إنه واحد من المتهمين بالتردد على قصر البارون، بل إنه هو ا لذى أمضى الليل كله راقداً فى المقبرة ليعرف السر، هل ثمة صلة بين قيادته للعربة وركوب الشرطى السرى، لكن المخبر أسفر عن هويته، أعلنها، ومثله إذا كان فى مهمة يخفى ما هو عليه، إلا إذا كان ذلك جزءا من الترتيب .

لماذا يهتم بهذا كله؟

إن وقته ضيق، وعلته مانعة، مقيدة لحركته، وغرضه جليل، فلماذا يتوقف عند التوافه من الأمور، ليفرغ إلى المدينة، آن لتعلقه بها أن يظهر ويتجسد، كان المفروض أن يجرى ذلك منذ ثلاثين عاما، لكنه كان مقيدا بضرورات الوظيفة ومهامها، منها ما يقتضى تنقله فى البلاد ولولا ذلك ما جاء هنا .

عندما نزلها لأول مرة لم يكن يعرف عن أخميم إلا أنها مدينة قديمة، مشهورة بصناعة الحرير الطبيعى على أنوال يدوية من خشب، إنها ذات القباطى الشهيرة، العتيقة، التى التحف بها الفراغنة، وأهداها

المقوقس إلى النبى المرسل فى صحراء العرب، عليه أفضل الصلاة والسلام.

كانت مهمة عابرة، وكان ممكنا ألا يتردد عليها مرة أخرى، لكن حصل تعلق لايمكنه شرحه، أو تفسيره أو تبرير دوافعه، قرأ مشاهدات الأقدمين، سترابون، هيروديت، ابن جبير، ابن بطوطة، وما ذكره المقريزى، وابن دقماق، توقف عند أوصافهم للبربا، تفحص كل قول منسوب لسيدنا أبى الفيض ذى النون، لأن الجميع أجمعوا على ملازمته البربا، وقدرته على قراءة الكتابة المرسومة على جدرانها، وفى لفائف البردى المكدسة بدورها، منها استلهم الكثير مما قاله وصار أساسا لعلم القوم وبيانا للطريقة التى تفرعت إلى طرق شتى.

كلهم اتفقوا على ضخامتها وغرابتها، لكن تفاصيلها اختلفوا عليها، قال واحد من صحبه له اهتمام بعلم الآثار القديمة إن المدينة حاوية لها، وإنها تضم المدينة، كلاهما واحد.

قال له نساج قديم انحنى ظهره خلال السنوات التى أمضاها جالسا إلى النول، منحنيا عليه، يرص الخيط النحيل، الواهن، يضغطه بالمشط بعد تشييعه بالمكوك، يؤكده، يؤلف ما بين السداة واللحمة، يقول:

«البربا عندك.. كل منا داخله بربا أو حوله.. ابحث عنها وتجول فيها».

غير أن القمص جرجس وهو ممن اعتادوا التردد على الفندق ليلا والقعاد إلى صاحبه فى الحديقة الخلفية، أكد وجودها ومثولها إلى الآن واستمراريتها، لكن دخولها يحتاج إلى حالة خاصة تقتضى مرانا ودربة، وقبل هذا كله خلواً من الكدورات المعكرة للنفس قبل غيرها،

هذا ما يقتضيه بنيانها، لايمكن للإنسان التنبؤ بحلول هذه الحال، أو التخطيط لبلوغها، وربما يعرفه فى وقت فتنجلى له البربا، ويتجول فى غرفها التى تولد منها غرف جديدة لم يعرفها مخلوق قط، وممرات، وساحات، وطوابق مزروعة وآفاق يصعب إدراكها، لذلك يقول إن أكثر المدركين لها من الأطفال، وإذا رجع أحدهم إلى أهله وقص عليهم ما رآه، يجب أن يصدقوه فوراً وألا يكذبوه.

يتوقف لحيظات، هدوء عميق يحيط به، ينبعث من داخله، من نقطة قصية، كأن ضجة السوق لم تكن إلا مقدمة لهذا الصمت، الطريق أمامه عريض وضيق، نازل وطالع فى الوقت نفسه، تتباطأ أنفاسه، ترى.. ماذا يفعل ابنه الوحيد الآن فى هذه اللحظة؟

إنه بعيد، جد بعيد.

يستعيد نصيحة القمص: إذا بلغت الباب الوهمى فحدق، وركز، وتمعن، عندئذ ستلج مشارفها ويبدأ طوافك بها. إنه واهن، هيّن. يتطلع حوله، المبانى من طابق أو طابقين، هادئة الواجهات، ألوانها لم يعرفها من قبل، يستعيد إصغاء صباغ الخيوط الحريرية، أشهر من يستخدم المواد الطبيعية، يقدر عمره بتسعين، أو مائة، وربما فوق ذلك، قال مضيفا على ما قاله القمص:

«لايدخل البربا ولايدركها إلا مفرد.».



مصطلح

مـوقـد



الموقد علامة.

إنه بيت النار ومنطلقها وموضع تأججها، والوسيلة الحاصرة لها أيضًا، فاللهب طلوق، جموح، ينشب بسرعة، ولا يكون التحكم فيه إلا بجهد إنسانى، لذلك كان الموقد علامة دالة حتى وإن درست المعالم، وخبت الفوارق.

وجوده فى بنيان يعنى تردد الأنفاس، وتوالى الأشواق، وتواتر الرغبات، وتوافر المدد، والسعى لإتقان الإعداد، والتوق إلى لحظات تجمع المتآلفين، المتقاربين.

ما الفرق بين بنيان للحياة، وآخر للأبدية؟

إنه الموقد، ما من منزل إلا واحتوى واحدًا منه أو أكثر، لكن يستحيل العثور عليه فى المثاوى المتقنة للعبور إلى الأبدية التى أقامها الفراعنة المتسائلون أو الناطقون بقبس من إجابات شتى، كل ما وصلنا من مقابرهم يمكننا أن نجد به كل ما نتخيله من طعام، وأثاث، وملابس، وحلى ومجوهرات وأسلحة ومركبات، كل ما كان له اتصال بالراحل إلى الأبدية، يؤكد هذا الأثاث الجنائزى الذى وصلنا كاملاً، تامًا، مجتمعًا فى مقبرة توت عنخ آمون، كل ما يخطر على البال نجده فيه، حتى باقات ا لزهور المحنطة، عدا الموقد، غيابه من البناء يعنى الفناء، والعثور على آثاره أيا كانت مستوياته، حفرة بسيطة أو فرن مغطى أو مقبب، محاط بالخزف ومقسم من الداخل لتوزيع

اللهب والتحكم فى درجاته، أيا كان الوقود المستخدم، بدءا من أوراق الأشجار الجافة والحطب أو الفحم النباتى والحجرى وصولاً إلى الطاقة التى تبدو أعراضها للناظر ولكن تختفى بذاتها، نعنى بذلك الكهرباء وما يتصل بها، أيا كان الوقود، فإنه دال على الحضور الإنسانى الدائم، فالنار يحتاج إشعالها إلى فعل، ومتابعتها إلى يقظة. ولا يكون ذلك فى إطار عدم.

والبقايا الدالة التى يتوقف أمامها الرحالة والباحثون والمتعقبون لما تخلف عن الأزمنة المولية دالة على مرور الإنسان أو إقامته فى هذه المواضع أو تلك البربا، ومن شكله ومن تركيبه يمكن الاستدلال، والوقوف على الحقائق.

وإذا بدا الدخان متصاعداً من الأوجقة والمداخن، فهذا يعنى حضور قوم الآن، فى هذه اللحظة يسعى الغريب، المسافر، المنتقل من مكان إلى آخر، لعله يحظى بالأنس.

لذلك يكون الموقد دالاً عند الحضور وعند الغياب، عند الاكتمال وبعد الاندثار، وبقدر ما يضم من فوضى النيران وقوة الاضطرام بقدر ما ينظم ويؤطر.

الموقد إذن حياة، فعلام تدل المواقد الكونية؟

هذا تساؤل وجد محفوراً على حجر قديم من الدولة القديمة، هل طرحة الفرعون المتسائل - حور محب - والذى مازال بعض أحفاده فى قرى ومدن الصعيد النائية، مثل أخميم وطيبة ودندرة والأشمونين واللاهون ورشيد، يبحثون عن إمكانية لتعميم عمارة تقيم بها الريح، وتستقر النسيمات الحائرة، يختلف القوم فى مقدار السنوات التى

تفصلهم عنه، أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف وخمسمائة أو أكثر من هذا وذاك، لكن لاينسى كل من له صلة رغبته التى أبداها ذات ليلة بهدوء، من خلال تساؤل طرحه برغبة حقيقية فى الوصول، وانتقل من عصر إلى عصر، ومن لغة إلى لغة، ومن معتقد إلى آخر، وأضيفت إليه تفاصيل، لكن الجوهر القديم باق، راسخ، يقوم عليه الخلص، الأقاصى، كل ما تلاه تفاصيل، ولا تهم المسافة الفاصلة، فكل لحظة انقضت بعيدة لأنها لن ترجع، وكل بناء مهما بدا راسخًا فإلى زوال، وكل جدران محيطة، مفيدة مؤدية إلى فراغ بعده فراغ مهما سمكت ومهما امتدت، وكل نيران مشتعلة إلى انطفاء.

لم تقم العمارة إلا لتجسد الفناء، وليست المواقد إلا خطوات، تمضى خطوة وتحل أخرى سرعان ما تولى، لكنها تثير التساؤلات، قال الفرعون المتسائل - حور محب - مادام الإنسان قادرًا على التساؤل فأمره بخير.

لكن.. هل ينتسب هذا الاستفسار إليه؟

لا يمكن القطع أو الجزم.

واضح أن الناطق به أدرك أن النيران منطلقة والموقد مقيد لها ومنظم، وأن معارفه ألمت بهذا الحريق الهائل الكونى فى الشمس، لكنه مؤطر، محدد ومنتظم فى دورانه حول نفسه أو حول الأجرام الأخرى، وليست النجوم النائية إلا نيرانا هائلة، متفاعلة، متواجة، يؤدى لهبها إلى بعضه البعض، ورغم الأبعاد السحيقة إلا أن الأسباب متصلة، وتلك الأضواء التى يسطع بعضها أو يخبو آخر منها ليست إلا إشارات إلى تلك الحرائق الكونية المتفجرة، الهائلة، ولأنها ذات حيز،

ومدار، ولا تتجاوز إلا بقدر مهما بلغت الأحجام، فهذا بالضبط ما يقوم به الموقد، ولأن إدراكه أو الوقوف عليه أو رؤيته يعنى حياة فاعلة، متصلة، فأى حياة تلك هناك؟ وأى محرك للقوانين المنظمة؟

قال الخضر القديم، الجوال عبر الأزمنة، بعد حضوره مجلس الفرعون المتسائل إن من يدرك أسرار وحكمة البنيان الإنسانى، يمسك بمفاتيح الفهم والإحاطة، والأمر جله كامن ما بين الظهور والغياب المتلازمين، تماما كما يدل الدخان الواهن على النيران الكامنة حتى وإن لم تدركها الأبصار.



نُــزل

يقع النُزُل قـرب القنطرة. من شـرفـة المبنى الرئيـسى يمكن رؤية مدخلها المؤدى إلى امتدادها المنحنى، المائل إلى الجهة الأخرى، لايقع فى مـجـال الرائى أو الواقف عند الحـافـة أو حـتى فـوق السطح، غـيـر مسموح بالاقتراب منها إلا لأصحاب الأسماء المعلنة والتى يتم النداء عليها من الطرف الآخر، خطوة واحدة تعرض الوافد للمساءلة وخطر الإقصاء النهائى من دار الإقامة المؤقتة، يعنى ذلك محاولة للتسلل، نادراً ما يحدث ذلك. .

يعرف الجميع متانة الخطوط الفاصلة والتدابير المتينة التى تمنع مثل تلك المحاولات، وتعدد مراكز التفتيش المتوالية قبل بلوغ أطراف المدينة المحمية بالأسوار التى تتخللها الأبراج وتحفها خنادق المياه وحفر الجمر المتقـد ومالا يحصى من موانع يتناقل المنتظرون تفاصيل شتى عنها، يختلط الحقيقى بالوهم، تدور الحكايات، تتوالد، تتضافر عناصرها مختلفة مصادرها خلال مراحل الانتظار التى تمر بطيئة، ثقيلة أو راكضة طبقا لأحـوال القـوم، بعضـهم أمضى سنوات طويلة يتعسرون عند إحصـائهـا، لكنهم يتطلعون إلى تلك اللحظات الحـاسـمـة. . التى يصغون خلالها إلى نداءات السماح التى يعقبها عبور القنطرة والمرور بالإجراءات المؤدية إلى منح التصاريح بالإقامة الدائمة فى المدينة المؤدية إلى مدن أخرى حيث يجرب كل إنسان ويسعى.

لايمكن لإنسان القطع بزمن معين جرى فيه تشييد النُزُل. . لكن ثمة قناعة بقدمه. بانتفاء القدرة على تحديد تاريخ معين لتأسيسه أو نشوئه.

وبالتالى فإن من وضع اللبنة الأولى فيه مجهول، والأقوال فى ذلك كثيرة متعددة فى حاجة إلى من يجمعها ويرتبها ويدرسها لكن هذا جهد يقتضى أعمارا متتالية فالأمر فسيح، متشعب، متنوع، والبعض منه شاطح، جامح، إذ يقول البعض إن وجود النزل سابق على تأسيس المدينة، ورغم السخرية التى تبدو على ملامح المستمعين لمثل هذا الرأى فإنه لاقى قبولا عند البعض رغم وعيهم الأتم أن مجرد الاقتناع به أو حتى السكوت عن مجادلته يعرض النُزُل لخطر الإقصاء وتحريم دخول المدينة عليه، ومثل هذا الموقف مثير للخوف والاضطراب، أن يجد الإنسان الساعى نفسه مبعدا، مقصيًا ليس عن المدينة فحسب إنما عن النزل أيضا، رغم المجهول والغموض المحدق بالمصائر فثمة من يؤمنون بأقدمية النزل ولايكتفون بقناعاتهم إنما يعملون على نقلها إلى الآخرين، مرة بالإيحاء ومرة بالإشارات. وفى مرحلة متقدمة بالتصريح، وهنا قد يقع الإقناع، يعرف القائمون المدبرون للأحوال أن مثل هذه الأفكار لايمكن منعها أو إيقافها، لكن محتملاً محاصرتها وإقصاء أصحابها أو إقناعهم بالعدول عنها وهذا أفضل بالطبع، معروف أن القناعة العامة لها قوتها وتأثيرها وتمكنها، وما يعرفه الجميع هنا أسبقية المدينة، ظهرت أولا فى السهل الفسيح الممتد، كانت البداية محدودة، تماما مثل بداية الحياة فى الرحم، هل يراها أحد؟ هل يطلع مخلوق على بذرة الرجل الساعية إلى كون المرأة المتلقى، الحاضن؟ قامت وتشعبت أنحاؤها وتعددت جهاتها.

ولدت منها مدن أخرى، ذاع صيتها وتناقل الناس أمرها وتطلع إليها الكل وسعوا إليها، توافدوا من أنحاء شتى صوبها، وعندما زاد الأمر عن الحد، وضاق المقيمون بها، الحريصون على طابعها وما تحويه

من سبل مريحة ومشاهد لم يسمع أحد بمثيلها وأنهار وعيون وثروات بلا حصر، مما سيجرى تفصيله فى موضعه، لما كاد الأمر أن يتجاوز الحد، ظهرت الأسوار. ثم الخنادق المتتالية، والقنطرة الوحيدة التى لايعرف أحد وسيلة عداها للعبور إلى هناك، وفشلت كل الجهود لمد قناطر أخرى فى أماكن بعيدة أو قريبة، عند هذا الحد أقيم النزل، بداية متواضعة أيضًا، لكن النمو جرى، والتشعب استمر مع توالى الأيام والليالى، كيف يمكن القول إن المدينة أحدث؟ النزل تابع، أمره لاحق، وضعه مؤقت، مهمته ستنتهى إذا توقف الساعون القادمون، عندهم الأمل فى العبور إلى الإقامة، الهنيئة المريحة، حيث يلى كل إنسان ما يريده، ويمكنه تحقيق ما يجول عنده أو يراه فى أحلامه، إمكانيات لاتنفد هناك. .

أراض جديدة، مياه وفيرة. . أنهار سارية، مراع، خضرة كثيفة، علوم متقنة، تحصيلها سهل، إذا كف الناس عن القدوم تنتفى وظيفة النزل، عندئذ يزول أمره ومع الزمن يختفى أثره، لكن هذا لم تبدأ بوادره بعد ولم تلح إشاراته، فمنذ القدم يتوافد الخلق، ويسمح لبعضهم بعبور القنطرة الحجرية، القائمة على فراغ هائل، ويمكث البعض هنا أو هناك منتظرين مصيرهم المحتوم. . ورغم انقطاع الاتصال بين المدينة والنُزُل باستثناء النداءات المفضية المبشرة بعبور البعض.

والقنطرة الماثلة التى يمضى المرور فوقها فى اتجاه واحد فقط، إذ لم يلمح أى إنسان مجىء أحد الذين ذهبوا، أو واحد من الأهالى المقيمين هناك، غير أن المدينة فى حاجة دائمة إلى القادمين الجدد. لهذا لم ينقطع الأمل يوما عند أى ذكر أو أنثى من العبور. . من الحصول على

الإذن بالإقامة وبدء حياة جديدة مغايرة، أفضل. ثمة يقين أن ما يجرى فى النُزُل ليس بعيدا عن الناحية الأخرى، إنه مرصود، متابع، كيف؟ هذا ما يختلف الناس حوله، وللخوض فيه تفصيل آت. . غير أن الاتفاق حول قدم المدينة وأسبقيتها ترسخ عند الكافة، باستثناء من أشرنا إليهم، وهؤلاء لايمكن تعيينهم أو تحديدهم بدقة، ولكنهم يسعون فى النزل، الحقيقة أن كل ما يمكن أن يخطر بالذهن سوف نجده بدرجة أو أخرى هنا، لكن ما يقال حول تأسيسه وما يتردد عنه أدى إلى انشغال بعض الوافدين بتاريخ الإنشاءات القديمة، أى جزء أسبق؟ بذلوا الجهد فى هذا الاتجاه وأمعنوا حتى نسوا الهدف الأصلى من قدومهم إلى المكان، بل إن بعضهم كان يفاجأ بالنداء عليه ويتلقى تهانى جيرانه وصحبه بأسى.

هنا يقول بعض المدبرين لتسيير أمور النزل إنه رغم إدراك كل قادم بموقوتية المكث ومحدودية الإقامة إلا أن كثيرين يتعلقون بالمكان ويرتبطون به، بعض هؤلاء لايعرف شيئًا عن تارخ الموضوع، أو الآثار المتوارثة أو الكتابات المدونة به، أو الخبايا والدفائن، أو أسرار النقوش العتيقة، بعض منهم يهيم بما رآه وسمعه وتنسمه حتى إذا نودى عليه للعبور وجاءت البشارة بالإقامة رفض وأبدى العناد والتنازل عما جاء من أجله، لكن ما من قوة يمكن أن تبقيه، لابد أن يتحرك، أن يتقدم صوب القنطرة، أن يتم ما جاء من أجله، النُزُل للإقامة المؤقتة فقط الأعداد الوافدة لا تتوقف، لاتنقطع، ثمة توازن دقيق غير منظور يجرى الحفاظ عليه بحيث يجد القادمون أماكن لهم، مما دعا البعض إلى وجود معادلة قائمة أطرافها هنا وهناك، وإن لم تبد كل تفاصيلها ولم تعرف أبعادها. إنما البادى منها نتائجها.

يسخر الكثيرون من أولئك الذين استهواهم البحث أو استغرقهم الدرس، حتى إنهم ليقضون فترات طويلة يتفحصون ويتشممون ويراقبون شظايا فخارية انتمت يومًا إلى آنية طعام أو شرب، تزداد القيمة إذا بدت عليها كتابة عتيقة، أشكال غريبة، حروف غامضة باعثة على الخشية والحذر من المجهول المتوقع، للحروف تلك مفاتيح شتى، ومغاليق أكثر. رغم السخرية من أولئك إلا أن الجميع يدركون جهودهم فى بيان أصل المكان. صحيح أنه لايوجد اجتهاد قاطع، محدد، لكنها مسارات مؤدية إلى بعضها وإن كانت متقاطعة، مضيئة لجوانب شتى وإن بدت مبهمة، مضببة، كلهم يجمعون على امتداد الخلاء وانطلاقه، مساحة لايحفها إلا النهر الجارى هناك بأسفل، على عمق كبير. هكذا حدوث الطبيعة منذ البداية الخط الفاصل، الحاد، وربما كان اختيار المدينة آخذًا هذا الاعتبار.

لايمكن تحديد البداية بدقة صارمة. أى لا يمكن القول مثلا إنه فى يوم الاثنين أو الثلاثاء أو الجمعة بدأ إرساء الأساس للنزل ولكن جرى ذلك خلال خطوات عديدة، ربما استغرقت أجيالا. والمسارات المؤدية إلى الموضع نابعة من جهات شتى، رئيسية أو فرعية. كثيرون من القادمين لايعرفون النواحى التى بدأ رحيلهم منها، وأحيانا يفاجأ المدبرون لأمور النُزُل بوافدين لايعرفون أصول الإقامة أو شروطها، بل إنهم لا يعلمون بوجود المدينة إلا بعد مضى فترة تختلف من شخص إلى آخر، عندئذ يبدأ هؤلاء فى استيعاب تلك الحقيقة العادية، أن النزل ماهو إلا محطة مؤقتة، عتبة مؤدية، نقطة عبور، رغم أن كل ما يحيطه

يوحى بالمتانة والثبات والأزلية، لكن مثل هؤلاء الوافدين بغتة يستوعبون الحقائق مع مضى المدة، وشيئا فشيئا يندمجون فى الجموع المقيمة، ويبدأ دخولهم حالة الانتظار بعد`إصغائهم إلى ما يتردد عما تحويه المدينة، بلى يكون الأمل عند أمثال هؤلاء أشد وأقوى فى المراحل المتقدمة، منهم نفر أثاروا مسائل عديدة، وطرحوا نقاطا حاوية للمشاكل، وصل الأمر فى بعض الفترات إلى حد الفتنة، وكان ممكنا طردهم وإقصاؤهم، لكن ثمة حقائق قديمة مؤكدة، منها أن القائمين على الأمر لا يمكنهم منع أى وافد إلى النُزُل، بل إن المندوبين المكلفين بالاستقبال لا يستفسرون عن الجهة التى جاءوا منها، أو الغرض الذى يسعون إليه، معروف، مفهوم، مدرك ومستوعب أن الكل هنا غرباء، وأنهم جاءوا بهدف الإقامة فى المدينة، الاستقرار النهائى هناك، حيث فرص العمل فى كل المجالات متاحة، وحيث يمكن للإنسان أن يبدأ من جديد على كل المستويات، يمكنه أن يغير اسمه، وأسماء أولاده ويبدل آباءه وأجداده ويسعى كأنه وافد إلى الكون كله للتو، مجالات الرزق بلا حدود، فسيحة، وسيعة، ومهما طالت الإقامة هنا فإن الكل يتطلع إلى هناك، إلى لحظة صدور التصريح بالإقامة.

أى إنسان، بغض النظر عن ملامحه أو لغته، مرحب به فى النُزُل، له موضع حتى إن بدا متواضعا، هينا فى البداية، حتى الحيوانات الهائمة، الضالة لا يمكن ردها أو استبعادها أو مطاردتها، تجنب أذاها ممكن، لكن نفيها عن المكان كله مستحيل.

من المسائل الدائرة، الفاعلة حتى الآن بلا حسم، بلا قطع مقنع، مثلا أيهما أسبق، النُزُل أم المدينة ؟ وهذا موضع يطول الخوض فيه، جوانبه متعددة فى حاجة إلى تأن، مسألة أخرى تتعلق بأى البنايات

أقدم وهذا ما يشغل أولئك الذين استغرقهم البحث فيما تبقى من أزمنة مولية . . أى جزء أعتق ؟

افتراضات عدة كلها لا تتجاوز دائرة اللايقين، أولها يقول إنه ذلك القائم فى المركز، بناء بسيط، مربع، مهيب الواجهة بدون زخارف حاضة على إحداث أى تأثير فى نفوس المتطلعين، الشاخصين، لا توجد داخله أجنحة أو ممرات أو أقسام أو حجرات، ما من مستويات، لا طابق أول ولا ثان، إنما فراغ مطلق تؤطره الجدران القائمة ويحده السقف الذى كان من جذوع الأشجار، استبدل بعيدان البوص المتلاصقة، ثم حلت مكانه ألواح خشبية مغطاة بالجص، كان القادمون ينامون داخله متجاورين وتمضى عليهم سنوات متوالية، لا يغيرون من أوضاعهم، لا يحسنون من معاشهم إلا فى حدود ضيقة جدا، ولم يبدأ الاجتهاد فى تحسين الظروف إلا بعد إدراك تفاوت المدة اللازم انقضاؤها واختلافها من شخص إلى آخر قبل صدور تصريحات الإقامة ومعها بالطبع أذون العبور، هذه التصريحات بقدر ما كانت تحدثه من بهجة عند المعنيين بها بقدر ما كانت تسببه من آلام ومشاعر محزنة عند ذويهم الذين لم يؤذن لهم بعد، لم يكن للصلات العائلية أى اعتبار فى الناحية الأخرى، كانت الأسماء والحالات تبلغ بطرق مختلفة إلى المسئولين عن الأمور بالمدينة، حيث يجرى إدراجها فى قوائم الفحص والانتظار، وعندما تصدر التصريحات تكون فردية، من هنا لم يكن هناك نظام دقيق يمكن التنبؤ به عن طبيعة الأذونات القادمة، ربما يسبق الابن والديه، وقد يمضى الأب وتقيم الأم بأطفالها عدة سنوات قبل لحاقهم به، وربما لا يصدر الإذن أبدا فتنقضى السنوات بالنسبة لبعضهم فى النزل، ومثل هؤلاء يختفون بشكل غامض، حتى زعم بعض الوافدين أنه توجد مسارب خفية إلى داخل المدينة يتم من

خلالها إدخال أعداد من البشر يكون مصيرهم مجهولا تماما، لكن القائمين على النُزُل المتوارثين لإدارته منذ حقب قصية، ينفون ذلك تماما ويأكدون وحدانية الطريق المؤدية، إنها القنطرة ولا سبيل سواها، وأى محاولة بعيدة عنها تؤدى إلى هلاك حتمى.

هذا البناء المربع كان يضم فى أوقات معينة أفرادا قلائل، وفى فترات أخرى كان المقيمون به يضطرون إلى توزيع أنفسهم عند النوم، فنصفهم نائم ونصفهم قائم، الجزء الأول من الليل بعضهم راقد، والثانى لنوم الآخرين، ثم تزايد العدد فخرجوا إلى الخلاء، وبدأ بناء الملاحق، كل المبانى المحيطة بهذا المربع إضافات، تدور حوله، تنتسب إليه رغم صغره وكونه أقل مساحة، ولكنه الأقدم، الأكثر إيغالاً فى الزمن المنقضى، ومنذ عدة عقود بطل استخدامه للإقامة، وأصبح بما يحويه من فراغ، وباتساق جوانبه الأربعة وتطابقها التام مع الجهات الأصلية مصدرا لتكهنات شتى، وأفكار بلا حصر. وهذا موضع اهتمام الكثيرين، لكن حضوره رغم خوائه، وعدم استخدامه، يحدث حالة مستمرة، سارية من المهابة والرسوخ، إنه مركز الموقع، وقلب المكان عند الكل تقريبا، ذلك أن بعض النزلاء تهامسوا بما يعنى التشكيك فى القول بقدمه وأنه المركز، ومثل هؤلاء يقولون بقدم البناية القائمة جهة الشرق، وإنها الأولى، وقبلها لم تكن توجد إلا السماء ونجومها فى الليل، والخلاء المنطلق حتى الأفق الدائرى المستكين، لم تهتز مكانة البناء المربع قط رغم كل ما طرح أو تردد، ذلك أن النزلاء خلال إقامتهم كانوا بحاجة إلى شىء ما يحوى المعانى الغامضة، المستعصية على التفاسير، والغير قابلة للإدراك، ما من واحد منهم يعرف المدى المقدر لإقامته، هل ستطول أو تقصر، بعضهم كانت لديه أسباب قوية للظن الوثيق أنهم سيقضون مدة قبل السماح لهم بعبور

القنطرة، لكنهم فوجئوا بالتصريح لهم بعد تسجيل قدومهم بيومين أوثلاثة، وتلك مدة تعد قصيرة جدا، وهنا تجدر الإشارة إلى حتمية الانتظار الذى تتفاوت مدته، لا يمكن لقادم مهما كان وضعه أن يتجه مباشرة إلى القنطرة ، هذه الجهة كلها يصعب دخول المدينة منها إلا عبر المنفذ الوحيد، إذا نجح أحدهم فى عبور المواقع الفاصلة، وهذا من الأمور غير المحتملة، التى لايتقبلها الذهن، فسرعان ما يكتشف أمره هناك ويجرى ترحيله إلى حيث لايعلم أحد، أما العبور بعد صدور التصريح فيعنى ضمان استقبال جيد من القائمين على شئون الوافدين الجدد، حيث تجرى عمليات استجواب دقيقة يتم خلالها توجيه ألف وسبعمائة استفسار فى فترة وجيزة لاتتجاوز ثلاثين دقيقة، لم يعد أحد من هناك إلى النزلاء ليخبرهم بما رأى أو ما مر به، ولكن لدى كل منهم تصور دقيق لما ينتظره بعد عبور القنطرة، تختلف تفاصيله من شخص إلى آخر، ومن جماعة إلى جماعة، من وافد إلى وافد، من زمن إلى آخر، لكن جوهره واحد، ولا يمكن نسبة ما فيه إلى مرجع بعينه، أو مصدر محدد، كالقول مثلا بالكشف الطبى الدقيق الذى يقوم به رجال ونساء لاتبدو ملامحهم، تغطيهم الملابس الخاصة الواقية وتخفى ملامحهم الأقنعة الصارمة، حتى الفتحات التى تتيح لهم الرؤية لاتكشف عيونهم إنما تعكس بزجاجها الرقيق البراق ما يواجهها، ثمة أماكن معدة على هيئة مستطيلات، كل منها مقسم إلى فراغات لايتسع الواحد منها إلا لشخصين فقط، القادم والفاحص، يتم كشف دقيق على سائر أنحاء الجسد، كما يتم سحب عينة من الدم تملؤ زجاجة صغيرة، كذلك البول واللعاب، ثم يعقب ذلك مرحلة التطهير، ويمر خلالها الوافد بأربع عشرة مرحلة، يتم خلالها النقع والشطف والحلق والنتف والتبخير والجلوة والمداواة والقص والتمديد والتليين والتدقيق

والتصوير من الخارج والتصوير من الداخل ثم التعطير، ولكل مرحلة أدواتها وناسها والقائمون عليها، المهتمون بها، يؤدى كل منهم واجبه ولا ينطق كلمة زائدة، ربما يستفسر بما يفيد ما يقوم به، لكنه لا يأخذ ولا يعطى، من شروط العبور على القنطرة التخلى عن كل متاع، وعند مرحلة معينة يتم تجريد القادمين من كل لباس، يحدث أن بعض السذج ومن عندهم غفلة يدسون بعض الهدايا للتسريع بالمراحل، إذ يقول البعض إن الفحص يستغرق عدة أعوام، وأن البعض ضاع عمره ما بين الانتظار فى النُزُل وقضاء المدة فى تلك المسافة الفاصلة، الواقعة داخل المدينة لكنها فى الحقيقة خارجها، تروى تفاصيل عديدة حول هدوء القائمين على الفحص، وبطء حركاتهم وذلك التأنى الذى يمارسون به أعمالهم ويتطلعون به إلى مواطن الشك، كأنهم سيمضون أعمارهم فى النظر والتأمل، هذا ما دفع البعض إلى دس خواتم ذهبية فى أدبارهم، أو قطع من العقيق فى أفواههم، ولجأ نفر إلى حيلة أخرى بتثبيت سن من الياقوت أو الذهب الأبيض، ولكن هذا كله يتم اكتشافه ومصادرته، لكن لا توضح التفاصيل نوعية العقاب، وغموض هذه النقطة يبث الحذر فى الأفئدة، لذلك قيل إن أصعب ما يواجهه القادم تلك المسافة القصيرة التى يقطع خلالها القنطرة ونقاط الفحص التالية، لذلك يكون الخوف غالبا على المودعين المحبين، ويردد بعضهم عبارات تطمئن الذاهب إلى هناك رغم أنه موضع حسد كثيرين لصدور التصريح بالعبور الذى تعقبه الإقامة، يردد النزلاء جملة قديمة تقول كلماتها:

«الفراق صعب فى كل الأحوال..».

وهناك أشعار وأغان متوارثة نظمها بعض المجهولين الذين لم تصل

أسماؤهم . ولم يعرف هل كانوا من العابرين المحظوظين أم الذين قضوا المدة بدون نتيجة تذكر ، وأدب النزلاء موضوع متعدد الجوانب يقتضى الخوض فيه مساحة وجهدا غير قليلين فى محاولة الإلمام والإحاطة .

الأشعار ، الحكايات المتوارثة ، الأمثال ، الوقائع المروية ، كلها متصلة بالإقامة والانتظار والتوق ، ورغم تعدد التفاصيل ، إلا أن الرؤى والاجتهادات والمشاعر تعلقت بهذا المربع العتيق وما يحويه من فراغ ، لا يمكن تحديد تلك السنة التى توقف القوم عن النوم داخله أو الإقامة فيه ، ربما بعد تعدد البنايات و تشعبها واختلافها وزيادتها أحيانا عن الحاجة .

لا توجد نصوص معينة ، لكن ثمة مهابة وأبعاداً غير مدركة بالحس تحيط هذا الفراغ المربع ، ورغم أن بناءه أعيد أكثر من مرة عبر فترات تاريخية محددة أو غير مدونة ، فإنه ينسب إلى ملوك المدينة القدماء ، ويقال إن أحدهم أشفق على القادمين من الدروب المؤدية فأمر عماله المهرة بتشييد البناء لإيواء الخلق ، إنها المرة الوحيدة التى جرى خلالها عبور مضاد منظم ، إذ لم يحدث قبل ذلك أوبعده أى عبور مماثل ، بل إن القنطرة شيدت فى وقت لاحق . إنما كان الأمر يتم فوق ألواح خشبية كانت تمد ثم تسحب ، ولكن مثل كل شىء يتعلق بالنزل أو المدينة لايتفق عليها اثنان إلا فيما ندر ، بمجرد ترديد هذه التفاصيل التى بدت فى إطار حقائق لا يرقى إليها الشك ، مفروغ منها ، مقطوع بها ، كما أنها تهدئ الاستفسارات المنطوقة والمسكوت عنها عند أولئك الذين قطعوا مراحل عديدة ومسافات طويلة قبل وصولهم إلى هذه المنطقة القصية البعد ، أصعب الأسئلة مالا ينطق بها الإنسان ، ما يوجهها إلى نفسه ويضج بها وعيه ، يفترض فى السؤال البوح أى وجود آخر يصغى ويجيب لكن ليس هكذا الأمر فى كل الأحوال ، إنما يخفى البشر العديد

من الأسئلة يضمرونها، ربما لأنها غريبة أوتبلغ حدا من السذاجة يخشى أصحابها من تعرضهم إلى سخرية الآخرين، أولأنهم لا يقدرون على صياغة ما يحيرهم فى ألفاظ متداولة، وما أكثر بواعث الحيرة عند بلوغ النُزُل، عن بدء الإقامة فيه والتعامل مع أركانه، الممسكين بدقائقه، والاستجابة إلى شروط الإقامة وقواعدها والالتزامات المترتبة عليها، أن يخرج عنها تعرضه لمخاطر جمة أقلها حرمان شبه مؤكد من منحة تصريح الإقامة الدائمة فى المدينة، ويعنى ذلك الفقدان الأتم، فلا يمكن لمخلوق أن يتخيل نفسه بعد هذا العناء كله مقطوع الأمل من عبور القنطرة إلى الحياة الهنيئة، المرجوة، ومطروداً أيضا من النُزُل إلى البادية الفسيحة، إلى الخلاء المطلق. لا يصل الوافدون إلى موقع النُزُل إلا بشق الأنفس، كثيرون منهم يقضون فى الطريق، وأقرب الأماكن العابرة تقع على مسافات اختلف القوم فيها، ثمة عقبات عديدة، أولها ذلك اليقين الداخلى الراسخ المبثوث باستحالة العودة، العقبات أوعر مما يتصور أحد، وهذا النفر القليل الذى انقطعت صلاته بالنُزُل وحرم من الإقامة مضوا راجعين، لكن لم يظهر واحد منهم مرة أخرى ليخبر بما رأى، ولبعض ما سمعه وما لقيه، لم يعد أحد إلى النُزُل من أولئك الذين خطوا إلى الأمام وعبروا القنطرة، أو أولئك الذين سلكوا اليباب بحثا عن منافذ تؤدى بهم إلى نقاط انطلاقهم، والمحطات التى قطعوها، أو توقفوا عندها قبل بلوغهم النُزُل، لا واحد من هؤلاء أو هؤلاء عاد ليخبر وليطلع، لذلك كانت تلك الدرجة من عدم اليقين التى تحايل كل نزيل بطريقته ليدور حولها ويحاورها ويبدى تجاهلها وإن كان منغصا بها أو يقمعها شيئا فشيئا حتى تموت داخله فيحل الهمود، هذه الدرجة الجلية عند البعض، الخافتة عند آخرين، الساكنة عند معظمهم، تسرى خافتة، إنها مصدر كل

سؤال مؤد إلى حيرة أعقد وتيه أشمل وخروج عن الجوهر والحد أحيانا، كثير من الروايات المتناقلة مفترض أنها تهدئ وتعين على الانتظار الذى يمتد أحيانا عدة عقود، ولكن تلك الدرجة من عدم اليقين تقلقل وتؤجج، لذلك بمجرد طرح هذه التفاصيل حول المؤسس الأول الموصوف بالقوة والمهابة والعطف على القوم أيضا، وهذا ما دفعه إلى تأسيسر النزل ليتقى الوافون إليه الحر والبرد ويأمنوا من خوف ومخاطر الخلاء التى لاتحد، حتى صدر عن البعض استنكار مبطن مضمونه: هذا يعنى أن المدينة لها أسبقية، وأن النُزُل لاحق، مجرد ترديد تلك الحكاية يعنى الإقرار بهذه البديهية، وهذا أمر لم يحسم حتى الآن، أيهما أولا، المدينة أم النزل؟ يرجع البعض هذا التشكيك إلى القائمين على تدبير الأمور، إذ إن القول بأسبقية المدينة يهز مكانتهم بشكل ما، ويظهرهم كتابعين لعقول المدينة الذين لايعرف أحد عنهم شيئا.

الوثائق التى تؤكد الحقيقة موجودة هناك فى المدينة، متاحة لأى عابر مسموح له بالاستقرار، يمكن من خلالها الاطلاع على كل التساؤلات المطروحة، الظاهر منها والمستتر، تقول الحكايات المتناقلة إن كل الإجابات مدونة مقترنة بالوثائق المؤكدة، مدرجة، مرتبة، متاحة هناك، فى المدينة الأمر مختلف، للأسئلة الصعبة إجاباتها المتواترة، إذا لم يقتنع المرء فثمة إجابة تالية، ربما تبدو فى ظاهرها مناقضة للأولى، لكنها تفسر وتكشف، هكذا، لا تنتهى الإجابات، ولا تتوقف الإيضاحات، ولا تكف الشروح، لكن فى كل الأحوال لا يمكن رد سائل أو منع مستفسر، هناك ليس أسهل من التساؤل، وما من أمر متاح مثل الجواب.

هنا يطرح سؤال مضمونه استنكار مبطن، خفى، مصدره فى

الظاهر بعض من مضى عليهم مدة طويلة هنا، وفى الحقيقة بعض القائمين على تدبير الأحوال، مؤداه: وهل جرى منع أى إنسان من الحديث؟

ربما يتردد البعض فى النطق بإجابة صحيحة أو صريحة، باستمرار هنا الخشية من المخالفة وهذا فى حد ذاته مانع، معوق، رغم أن كل العلامات البادية تحض على السؤال، ومن الأقوال المتداولة المنسوبة إلى الوافدين الأوائل، لابد من الاستفسار مدى الحياة، عبر كل المراحل، حتى الشيخ الكبير يجب ألا يتحرج، ألا يتردد، فمن يكبره بيوم ربما يعرف مالم يطلع عليه بعد، ومن يصغره ربما أبصر مالم يبصره من قبل، السؤال فاتحة لسؤال آخر حتى وإن بدا فى هيئة إجابة، رغم ذلك فإن المسكوت عنه أكثر من المنطوق، ذلك أن معظم المقيمين يدركون أن بقاءهم مؤقت، محدود، وأنهم مهددون بالإقصاء عن النُزل لأسباب عديدة بعضها معلن ومعظمها مسكوت عنه، يكفى على سبيل المثال أول تلقين يبث سرا فى آذان القادمين، أو بالإشارة للصم منهم: عدم الخوض فى الموضوعات السبعة!

يلقى هذا كله مناخا من الحذر والخشية، ذلك أنه لم توجد قط حدود فاصلة معلنة تفرق بين ما هو مسموح به وممنوع، بل أعلن عن قليل وترك الأمر للتخمين.

الأمر عكس ذلك هناك فى المدينة، فقط بمجرد عبور الجسر وبدء سريان الإقامة، رغم أنه ما من خبر مؤكد، أو توثيق محقق، لم ترد رسالة معاينة مخطوطة على الحجر أو عظام الإبل أو السلحفاة أو البردى أو سعف النخيل أو الورق، غير أن الكلام المتوارث، الدوار، يحاول الإقناع من خلال أسانيد تقوم على إشارات بعيدة، أو لمع

وبوارق نائية، وحول مثل هذه الأمور جرت خلافات شتى يصعب الخوض فيها، وإن لم يمنع ذلك تردد السؤال: من يمكنه القطع؟

غير أن كل نزيل يعرف ما يجرى حوله، مايراه حتى وإن لم يفهم بعض الأمور المعاينة، فليس كل مرئى مدركًا، إن رغبة خفية تستقر داخل كل منهم بانقضاء الأوقات على خير، بدون مشاكل تؤدى إلى مصادرة الحق فى العبور قبل صدور الإذن من هناك، لذلك مال كثيرون إلى المسايرة انتظارا لتلك اللحظة التى يتجه فيها الوافد بمفرده إلى القنطرة، رغم تردد العديد من التفاصيل فإن الحقيقة التى تعد ناصعة، ماثلة، هى السماح للفرد بالعبور، لم يحدث قط أن ذهبت أسرة معا مهما طال المكث وبلغت المدة.

المؤكد أن أكثر أجزاء النُزُل احتراما ومهابة ذلك الفراغ الذى يحويه المربع حتى عند من يضمر شكًا.

هذا الفراغ المؤطر بجدران أربعة يعد الأقدم، إنه فى موضع النواة، البؤرة التى شع منها كل ما يحيطها، كل البنايات المتضامة المتقاربة الحاوية، المتطلعة، تتفرع منه. هنا لابد من ملاحظة أولى وثانية، أما الأولى فظهور المربع للقاصى والدانى والمتجول فى أى مكان من موضع النُزُل، إذ صممت كل البنايات المضافة عبر أزمنة متوالية بحيث يمكن رؤية المربع حتى بدء الخطو فوق القنطرة، بالتحديد حتى منتصفها، وفى جميع المرات التى تم خلالها إضافة مبنى حديث لاستيعاب القادمين الجدد، جرى الحرص من المخططين، القائمين على الشئون بألا يؤثر الجديد على القديم، ألا يخفيه عن الأنظار، ومن الأمور التى تتردد هنا كحقيقة لا جدال حولها أن لكل شىء مركزًا، ومن ليس له نواة لا يوجد، ومركز النُزُل فراغه الممتلئ بأزمنة لا حصر لها، ورغم ما

يتردد عن ضخامة المدينة وامتدادات أحيائها وضواحيها حتى إن بعض من يبلغها طفلاً يشب فيها ويشيخ ويرحل ولا يتاح له رؤية كل أنحائها وسائر جهاتها، الملاحظة الثانية دوران المربع حول مركزه كل ألف ألف قمر مكتمل، أى أن الوضع الذى يرى عليه الآن لم يكن كذلك عند بدء تشييده، وهذا أمر يقبله الجميع وإن شك البعض فيه ودعوا إلى إجراء القياسات المتعارف عليها لكن لم يجرؤ أحد على ذلك.

ضخامة المبانى تبدو من بعيد للقادم وكأنها عمارة واحدة، بناء مفرد، لذلك جرى تسميته بالنُزُل فى سائر اللغات، رغم أن اللفظ غير دال تماما، ذلك أن العمائر المتفرعة من المربع لا يمكن إحصاؤها على وجه الدقة، بعضها متداخل، ومنها ما لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال بناء آخر، الارتفاعات متفاوتة، لكنه اختلاف لا يلوح ولا يثبت إلا من مسافة قريبة، دانية، إذا ما تجاوز الإنسان البالغ حدود النُزُل فإنه يرى كل ما يقوم فوق الأرض متضاما، متصلا، متلاصقًا، يؤدى بعضه إلى بعض، هكذا ظن معظم القائمين فى البداية، غير أنهم بالإقامة والتعرف على المكان والبشر تبين لهم خطأ ذلك.

ما من نزيل إلا ويحكى عن لحظات اقتراب من الموضع، أو اكتشافه له، والقادمون واحد من اثنين، إما يعلم بوجود النزل مسبقًا ولذلك سعى إليه باعتباره المحطة المؤدية إلى المدينة، أو العتبة الفاصلة، معظم هؤلاء كانت لديهم فكرة عامة مبهمة عن موضع انتظار. لكن ما نظامه؟ ما هيئته؟ كيف يمكن الإقامة فيه حتى يصدر السماح النهائى بالدخول؟ لا أحد يعرف ما ينتظره تفصيلا، وهذا ما يسرى على المدينة أيضا. فالمباهج المتوقعة والراحة المأمولة مدركة فى جملتها وليس فى تفصيلها. أما الثانى ـ وهذا أغلب وأعم ـ فهم من يجهل وجود النُزُل ولم يحط به علمًا.

يصف البعض لحظة بلوغهم الحد الذى تبدأ عنده الرؤية، خاصة أولئك الذين جاءوا ليلاً، أن الطرق والدروب المؤدية تمر بمناطق قفر، خالية من الظل نهارا، فضاءات غير مرئية ليلا تمرق عبرها الرياح الباردة، ليس أمام العابر إلا التوارى بجانب تل أو مرتفع صخرى أو رملى، وفى لحظة معينة عند نقطة تتساوى تقريبا عند الجميع تلوح أضواء مدغمة، غلالة معلقة، أصداء الأضواء، بخار المصابيح المعلقة فى الطرقات الفاصلة المؤدية، أو داخل الفراغات المؤطرة بالجدران التى يتمدد فيها القوم، حتى لو كانت النوافذ والكوات مغلقة، فإن ما يتسرب خلالها من ضوء يعلق بالفضاءات السارية حتى لو كان ضئيلا، رسالة خفية، هشة، لكنها مؤداة برهافة للأبصار المترقبة، المنهكة بطول الرحيل.

فى البدء تلوح الغلالة الضوئية، العالقة، كأنها ظاهرة من تلك الظواهر التى تنتشر فى الخلاء الوسيع، خاصة فى الليالى المزدحمة بالنجوم الثابتة والوافدة والمارقة، كتلك الشهب والنيازك، القصف الكونى مجهول المصدر والذى كان يثير الرعب فى البداية عند المقيمين فى النُزُل حتى ليرتفع صراخهم، وفيما تلى ذلك من أزمنة تحولت الفزعات إلى ابتهالات ثم تأملات متطلعة متأنية بعد الوقوف على بعض الحقائق، ويقال إن سماء المدينة مغايرة، رغم أن المسافة الفاصلة بين النزل وأسوارها ونقاط العبور لا تتجاوز عرض هذا النهر، ذلك أن أضواء المدينة قوية ساطعة حتى ليبدو ليلها نهاراً متألقًا، لكن الغريب أن تأثيرها لا يتجاوز ما تشغله من مواضع، كما أنها معالجة بحيث لا تلوح للنزلاء أو المقتربين منها، لذلك مهما بلغ تطلعهم جهة مبانيها وأسوارها لا يرون إلا عتمة وظلمة يصعب النفاذ منها أو عبرها، إلا من أوتى قدرة خاصة على حل الموضوعات السبعة أو استيعابها على

الأقل، ومثل هؤلاء ندرة وسيرد ذكر بعضهم، لكن فى كل الأحوال يجمع الكل أن رؤية انعكاسات الضوء على طبقات الفراغ العليا من أجل ما يمكن معاينته فى الكون المنظور، وتمثل هذه اللمعات الخافتة فى الأذهان إلى الأبد، مهما بدا ومهما أتى الواقع بغرائب الأمور، دائما للبدايات زهوة، وللمطالع نضرة، والمعاينة الأولى لا تمحى، لا يقتصر ذلك على النظر أو النطق إنما يمتد إلى سائر الحواس، فما تسمعه الأذن أولا يحدد مجال السامع طوال عمره، وما تألفه العيون من ألوان فى البداية يؤطر ويحدد المستحب، المفضل منها، وما يستحسنه الذوق من طعام يعتاده المرء فى طفولته أو أيامه الأولى يؤجج حنينه إلى ما فات باستمرار، كذلك الأمر فى الوصال، فما عرفه الذكر وما ألفته الأنثى أولا يحدد المفضل عند كل منهما فيما بعد، هذه أمثلة على حقائق مفروغ منها، راسية، لكن لا بأس من التذكير بها ولفت النظر إليها، فكثير من البديهيات يتوه فى الخضم، ومنها لحظات اكتشاف الأضواء المنبعثة ليلاً، أو الوقوف على الخطوط العامة لمجمل البنيان لمن يصل نهاراً، يظن أنه فى مواجهة بيت قديم، بناية واحدة، متساوية، لكن مع كل خطوة اقتراب تسفر المعالم عن مضمونها وتتضح الفروق، حتى إذا دنا، لاح السور الوردى، تلك الدرجة النادرة من ألون الأحمر الفاتح، التى تغمق حينا وتفتح حينا، يمضى القادم إلى جواره حتى يصل إلى المدخل الشرقى فيجده مغلقًا لكنه بالطرق والصياح يفتح الباب الذى كان فى الماضى البعيد من جذوع النخيل.

لا يرد إنسان، ولا يطول مكثه إلا المقدار الفاصل بين صدور الصوت عنه وسماعه عند القائمين، المكلفين بشئون الباب، وهؤلاء لهم مهابة، ومنهم رسوخ متين وحولهم كلام، ليس هذا أوانه أو محله.

لا يمكن لقاصد أن يعود خائبًا إذا طرق الباب أو لزمه بعض الوقت، يحدث أن نفرا يبلغونه فى حالة إعياء صعبة، وعرة، حتى لا يقدرون على الطرق أو النطق فيمكثون.

للباب مكانة طبعا توازى رؤية الواصلين ليلاً لأصداء الضوء وتأكدهم أنها من علامات الوصول، لذلك قال البعض بقدم هذا الجزء من النزل عن المركز، مثل هذا غير مستحب، ولا يعرف أحد تأثير صدوره أو البوح به على السماح أو المنع بالنسبة للإقامة فى المدينة، ذلك أن بعض من قالوا به نودى عليهم وعبروا القنطرة، صحيح. . لا يعرف أحد ماذا جرى لهم؟ أوماذا قابلوا هناك، لكن ذهابهم شجع البعض على القول بما صرحوا به، ولا يمكن معرفة الطرق أو الوسائل التى تنتقل بها الأفكار، ولكن أهل النزل يختلف بعضهم عن بعض، رغم الخشية البادية والصمت الملوح، وما القول بقدم الجهة الشرقية عن المركز إلا عرض من أعراض الخلاف.

الباب المؤدى إلى النزل من الجهة الشرقية أقدم الأجزاء. ليس المربع، إنه أول ما يقابل القادمين، كلهم بدون استثناء، هل سمع أحد عن ضيوف وفدوا من الغرب أو الجنوب أو الشمال؟

لم يحدث ذلك قط.

إذن. . كيف لا يكون الجانب الشرقى أصل النُزُل؟ بذلك قال المشرقيون وأمرهم معروف: وجميعهم استقروا فى مساحة من الأرض مطلة على الخلاء الذى يفد منه القوم، هذه المساحة لم تستمر خالية، إنما جرى تمييزها وإحاطتها ببعض الأحجار فى البداية منعًا للاحتكاك والوصول عند المناقشات إلى حد الاقتتال، صحيح أن ذلك لم يحدث إلا نادراً عبر مراحل زمنية طويلة، لكن التحوط جرى واستمر

كقاعدة، ارتفع السور الفاصل، ثم ظهرت البنايات، كانت محدودة لضيق الفراغات المتاحة، حتى أصبحت الطرقات الفاصلة مجرد ممرات صغيرة يصعب مرور اثنين إلى جانب بعضهما عبرها، أى لابد للماشى أن يفسح للقادم بتولية وجهه أو ظهره إلى الجدار، وشيئا فشيًا ازدادت الممرات تشعبًا حتى أصبح المشى فيها لمن لا يعرفها يتضمن مخاطرة، فالعزلة التى أحاطت المشرقيين أدت إلى تقوقعهم وانكفائهم على ذواتهم وحرصهم على عدم الخروج من منطقهم والتزاوج فيما بينهم، وربما أدى ذلك إلى ضمور أجسادهم ونحولها وتقارب ملامحهم وفشو الأمراض فيما بينهم، ومن الملاحظ أن كثيرين ممن ينادى عليهم لا يجيبون ولا يظهرون رغم صدور تصريحات العبور والإقامة لهم، ويتردد أن هذه المبانى المتشابكة أصبح لها عمق تحت الأرض، وأنها تتصل ببعضها وتلتقى فيما يشبه بناية تحتية معدة لإيواء كل المشرقيين إذا ما تعرضوا لهجوم لم يقع، رغم أن انتظاره مستمر منذ أعوام لا حصر لها، ورغم أن كل شىء فى النُزُل مؤقت والمكث فيه لايدوم لكن هذا الجزء يبدو كأنه اقتطع وأحيط بأسوار شتى بعضها مرئى والآخر خفى، كما أن تعدادهم ظل مجهولا، والأشد غموضًا الوسيلة التى يتزايدون بها ويمررون أفكارهم ومعتقداتهم، كان بعض الوافدين يقصدونهم مباشرة وكأنهم سمعوا بهم عبر طريق الرحيل، أو جرى تلقينهم بشىء ما، لهم شئونهم وأساليبهم فى قبول القادمين إليهم والتحقق منهم ومما يبطنونه، حتى يمكن القول للناظر من بعيد إنهم نُزُل مغاير داخل النُزُل، ولكن هذا مجاف للحقيقة، ذلك أنهم مجرد جزء، يسرى عليهم ما يشمل الكافة، ولا يشذ واحد منهم عن القواعد المراعاة للإقامة المؤقتة، صحيح أنهم مختلفون إلى حد ما، لكن من قال إن شخصًا يشبه الآخر هنا، كل إنسان كينونة قائمة بذاتها مهما بلغ الامتزاج وسرى التوالج.

أمر آخر: المشرقيون أنفسهم لا يجمعهم إطار واحد، يتحدثون فيما بينهم عن أول وافد منهم، جاء ولزم الجهة الشرقية، كان جليل المظهر، أشيب اللحية مكتمل الإفاضة، كثير الصمت، اختار مكانه بعناية، مكث فيه، لم ينتبه إليه أحد قبله، أول ما تلامسه أشعة الشمس فى الكواكب كلها. قبة منها يبدأ الشروق، وأمرها معروف بينهم، لكن موضعها مجهول الآن.

مختلف فيه، هذا الرجل الصموت موضع خلاف أيضا، غير أن الكل مجمع على أنه جاء ممسكا بقضيب من الحديد وراح يبرده بجذع شجرة صلب، نوعية من الأخشاب ذات خصائص محيرة، إنه كان يستهدف تحويله إلى إبرة ذات ثقب.

هنا يبدأ الجدل بين المشرقيين حول النقاط السابقة، أولها متعلق بموضع الأرض الذى تلامسه الشمس، بعضهم يقول إنه تحت إحدى البنايات القائمة، وآخرون يؤكدون حدوث تباطؤ فى دوران الشمس ودوران الأرض، وأن ما كان شمالاً فى الماضى أصبح جنوبًا الآن، وفريق ثالث يقول إن هذه النقطة معلقة فى الفراغ موضعها ما بين النزل والمدينة، وأن الشرقى الأول حدد موقعها بدقة، لكنه أودع كل ما يتعلق به داخل المدينة بعد أن نودى عليه فى نفس اللحظة التى أتم فيها نحت الإبرة التى كانت فى الأصل قضيبًا من الحديد، أما قطعة الخشب النادرة فاختفت، تلاشت، أمضى جالسًا أو ممددًا أو مراقبًا مائة وأربعين عاما كاملة لا يعرف أحد كم أتم هناك على وجه الدقة، فمن يصدر الإذن بعبوره وإقامته هناك لا يعرف أحد هنا شيئًا عن تفاصيل ما جرى.

بعض المشرقيين يؤكدون أنه حل الموضوعات السبعة، قبل مغادرته المكان، وآخرون يقولون إنه فرغ منها عقب اكتمال الإبرة، وفريق ثالث

يؤكد أنه دخل المدينة معلنا فضه لمغاليقها، وأنه مازال حيا يسعى هناك، وكل مشرقى يصل إلى هناك يقابله ويطمئنه، ويبث الهدوء فى روحه، ويتلقى عنه، ويدبر له كل ما يوفر الراحة وهدوء البال ويعوض مشقة الانتظار، إن وجوده هناك يخفف الكثير من مشقة الرحلة على المهاجرين الجدد خاصة عند ولوجهم فضاءات المدينة متعبين منهكين، تائقين إلى الكنة والمأوى، رغم أن المسافة الفاصلة ليست طويلة بالمقاييس المعتادة، فإن تلك الخطوات القليلة فوق القنطرة وأوقات الانتظار والإجابة على أسئلة لا حصر لها، متشابهة متكررة، والتهيب من المتوقع، واللهفة على رؤية الملامح الأولى للمدينة، تلك اللحيظات التى ستبقى ماثلة فى الأذهان أبدا، يتضافر هذا كله يستنفر أقصى ما لدى الإنسان من طاقة، لذلك عندما يحط يكون على درجة من الإعياء صعبة، إن لمساته الحانية ودرايته بالجانبين وما يوجد فى كل ناحية تخفف الكثير عن الواصلين المنهكين.

هذا ما يقوله المشرقيون، غير أن فريقًا صغيراً منهم اتخذ مقراً، بناية أسطوانية الشكل، مغايرة، قالوا إن المهيب، الجليل، طويل الصمت لم يغادر النُزُل وأنه مكث حتى وافاه الأجل ودفن تحت هذا المبنى ومعه الإبرة التى كانت قضيبا من حديد. هنا ينقسم هؤلاء إلى فريقين، الأول يقول إنه لم يصدر له الإذن بعبور القنطرة، وقطع أيامه كلها صامتًا، محنيًا إلى اللحظة يعلو فيها النداء باسمه، لكنها لم تأت. لم تحل، الفريق الثانى يقول بغير ذلك، إنه نودى عليه أكثر من مرة لكنه الوحيد فى تاريخ النُزُل الذى لم يستجب ولم يمض إلى المدينة. وآثر البقاء مكانه يبرد القضيب الحديد بقطعة من لحاء شجرة. يقول نفر من الفريق الثانى إنه لم يقدم على تلبية الإذن بعد أن تم له حل الموضوعات السبعة لشدة تركيزه وطول صبره وصمته وإفراغه الطاقة المعطلة فى

حركة. يديه التي لم تتوقف قط طوال صحوه، أما الجماعة الشاطحة من الفريق الثانى فتؤكد أنه لم يتبع الذاهبين إلى هناك لأنه استحضر المدينة عنده ولم يمض إليها، ورغم محدودية القائلين بذلك فإن تفسيرهم هذا اعتبر أخطر ما صدر عن النزلاء أو تم التفكير فيه، تصدى لهم فى البداية أهل البنيان الأسطوانى فى جملتهم، ودارت معارك مكتومة أريقت فيها دماء، لكنهم جميعا حرصوا على كتمان نزاعاتهم وخلافاتهم خشية الإقصاء الإجمالى، وهذا أوعر وأصعب ما يمكن أن يلحق بالمنتظرين هنا، مهما اشتدت المنازعات التى قد تصل إلى حد التصفية الجسدية، إلا أن القبول بالنفى إلى الخلاء المضاد كفيلة ببث الرعب فى الأوصال، عرف هؤلاء بالأسطوانيين، مع أنهم ليسوا بمفردهم فى المبنى، يقولون إن الصمت والتأمل وإمعان الرؤية أدت به إلى تركيز الحالة التى توصل إلى استحضار المدينة بكل ما تحويه واحتوائها تمامًا، وتقليبها كما يشاء المرء وليس كما خطط أهلها ومن وضعوا أساسها، ومن الأقوال التى نسبوها إليه، لكل منا مدينته، وما عليه إلا بذل الجهد لاكتشافها، إما بالرحيل إليها والولوج فيها، وإما بتمثلها واستحضارها، البعض يفنى عمره من أجل دخولها ولا يصل إلى تحقيق ذلك، وقلة يستدعونها إليهم ويفنون كل ما يشكلها من عناصر وموجودات، معظم المشرقيين يصغون بدهشة ويحاولون إبطال حجج الأسطوانيين بقولهم إن طويل الصمت لم ينطق، فمتى قال ما ينسبونه إليه؟ غير أنهم يردون على الحجة بقولهم إن كل ما يقال ليس بالضرورة نتيجة اللفظ، ثمة مقولة بالنظر أو اللمس أو اتخاذ الوجهة، بل إن للفراغات القائمة معانيها ومدلولاتها.

لا يعرف أحد على وجه الدقة كيف يتم انتقال الأفكار المشرقية أو الأسطوانية عبر الأزمنة المختلفة، خاصة وأن معظم القادمين لديهم

أفكارهم ومعتقداتهم وما يعتقد البعض أنه ثوابت، لكن بلوغ النُزُل يحدث قلقلة وخلخلة.

الوصول إلى النُزُل يحدث حالة تجعل كل إنسان متقبل لأى وافد، يعرف جيدًا أن الإقامة مهما طالت مؤقتة، وأن الثبات مستحيل وفى لحظة معينة يصدر الإذن بالعبور تمهيدًا للإقامة، وهذا طموح كل من قبل الانتظار فى النُزُل، إن المجىء إليه نهاية مرحلة طويلة شاقة لا يقدر على قطعها كل من أوغل فيها، لذلك يعتبر نهاية مرحلة وبداية أخرى متضمنة لكل ما هو مأمول، من هنا يظن معظم القوم أن ما يتردد هنا لابد من فهمه تمهيدًا للعبور، وكلما تقبلوا ما يسرى بين النزلاء القدامى كان ذلك أوفق وأفضل، يبدو الأمر فى البداية كما لو أن ما يصغون إليه شامل، سار، متغلغل فى سائر النفوس. نفر منهم لا يمضى الوقت الكافى ليكتشف تنوع الأفكار وتناقضها وتشعبها إلى مالا نهاية بين القوم، إذ سرعان ما يتلقون الإذن بالرحيل إلى المدينة، أما من يطول بقاؤهم، فيدركون هذا التنوع أو يبلغهم ، ويتوزعون بين ما يسرى هنا أو هناك، تماما كما يتفرقون فى المكان والسكنى المؤقتة هنا يؤكد بعضهم، خاصة من القدامى، أن عدد الفرق فى النُزُل مساو تماما لعدد أحياء المدينة فى الناحية الأخرى، لكن اعتبر ذلك نوعًا من المخابلة، لا أحد يعرف بالضبط شكل المدينة وكافة ما يقال إنما مجرد تخمين وتخييل، ما من أمر مؤكد.

الأشجار والقول فى الفراغات

دائمًا ينطلق الخلاف من القول بالأسبقية، وكثيرا مايصاغ ذلك على هيئة تساؤلات، على سبيل المثال، من ظهر أولا؟ الأشجار أو النزلاء؟

من سرى أولا؟ الريح أو المطر؟

ما أول ظل؟

ما مصدر الرياح؟ وأين آخر محط ؟

هل تعبر تلك النسمات الضفتين وتمضى إلى المدينة أيضا :

أسئلة عديدة بلا حد أو حصر، لا يوجد تحذير واضح بمنع التساؤلات، بالعكس، ثمة من يحض عليها. وهناك جملة متداولة رائجة، تقول بأفضلية الاستفسار، لكن السؤال لايستلزم الجواب. كثير من علامات الاستفهام تؤدى إلى مثيلتها وأحيانًا يطرح أحد الوافدين سؤالاً عند قدومه، ويقيم حولاً إثر حول، ثم يفارق ملبيا الإذن بالإقامة وهو يردد جوهر السؤال مع اختلاف فقط فى الصياغة.

رغم القناعة التى يبدأ رسوخها عند الكافة، أو فلنقل الأغلبية بثمة بداية فى المنطقة، سواء كان المربع أم الحد المشرقى لكن المؤكد أن النُزُل لم يظهر إلى الوجود مرة واحدة، رغم أنه يبدو من بعيد كتلة متناسقة متناغمة. لكن الاستفسار الذى لم يلق إجابة قاطعة حتى الآن، أيهما أولا. الإنسان أو الاشجار؟

لكن.. لماذا الإنسان، ولماذا الأشجار ؟

ربما لأن كليهما نتيجة لمراتب وعناصر أخرى موجودة بالفعل من قبل، فلا يمكن القول بوجود كليهما مع انتفاء الماء والزاد الذى يتغير من عصر إلى عصر.

هذا على سبيل المثال فقط، ولكن يبدو أن حضور الأشجار ماثل بقوة. ليس فى المكان فقط، ولكن فى الأذهان أيضا، يقول القائمون

على النُزُل - وهم أيضا من العابرين ولكن لهم ترتيب خاص - إن المكان فى البداية لا يمكن تحديده بدقة. بالتأكيد كان هناك فراغ، أو بمعنى أدق خلاء. قبل أن تهطل الأمطار بغزارة وينبت عشب، طال بعضه، وأصبح أشجارا كثيفة، فى وقت قديم لم يكن ممكنا التمييز بين موضع النُزُل والمدينة، يمكن القول إن كليهما واحد. لم يوجد فى تلك الحقبة النائية، المجهولة، إلا أصوات الأشجار إذ تتمايل أو تمرق عبرها النسمات أو الرياح أو تدب أسباب مجهولة تؤدى إلى صدور مايشبه الخشخشة أو الأنين أو الضحك الخافت أو النشوة فى أحوالها المختلفة، يمكن القول إن هذه الأصوات الصادرة عن الأشجار المتراصة المتجاورة أساس معجم الأصوات البشرية والكونية. من الأقوال المتوارثة فى النُزُل أنه لايوجد شىء ساكن أبدأ، حتى الأحجار الصماء بها تردداتها ومنها تنبعث اللغة والإشارات، لكن لكل شىء من حى وجماد وساكن وناطق لغته. أما الأشجار فحاوية للكافة، مايصدر عن الجذع مغاير لما يسمع من الأغصان، أما مايتخلل الأوراق فمختلف تماما، أما ما يسرى عبر التلافيف فعلمه خفى، غير مدرك حتى الآن. هذا مايمكن قوله حول شجرة بعينها، لكن الأمر يختلف من نوع إلى آخر، فما يصدر عن السروة مختلف تماما عن المنبعث من السنديانة أو الجميزة أو البلوطة أو النخلة إلى غير ذلك.

نتيجة تغيرات عديدة لا يمكن تحديد مركزها أو نقطة بدايتها، ربما هناك حيث قامت المدينة وربما فى أعماق المجرات أو لميل الأرض عن محورها، وقع تغير فى الأرض وخطت قطرات المياه عبر الإصرار المتواصل مجارى وممرات شقت الأرض والصخر، ويعرف المقيمون فى النُزُل أنه مامن شىء أقوى من الماء، ولهذا يجرى التذكير دائما بهذه الحقيقة، حتى إذا أجاب أحدهم ذاكرا النار، سارع محدثه بتوعيته

وتفطينه إلى أن ما يخمد النار قطرات الماء، وللماء فى الأقوال الذائعة أو الأشعار المتوارثة والحقائق الراسخة مكانة جوهرية، ومنزلة محورية.

فى زمن بعينه انفصلت الأرض أو بمعنى أدق شقت صارت هنا ضفتين وبالتالى جرى التمهيد لتأسيس المدينة فى ناحية و النُزُل فى ناحية، أو بمعنى آخر النُزُل على ضفة. حتى كتابة هذا التدوين لم تحسم مسألة، أيهما سبق الآخر؟

اقترنت الأشجار بالخلاء، إذ لا يمكن أن تقوم جذوعها نحيلة أوغليظة إلا فى فراغ، فإذا امتدت وتشعبت واكتمل تكوكبها فإن الفراغ ينتفى ويثبت، فمن ناحية يتبدد بما شغله، ومن جهة يبرز الامتلاء ماتبقى بدون شغل، لذلك كانت كثافة الأشجار وتدانيها من بعضها مبرزة موضحة للفراغات المتخللة أو المنبسطة، وتشبه هذه المعارضة مايقوم بين الإنسان والشجرة، عرضية الأول وثبات الثانية، إن حضور البشر عابر جدا مهما أقاموا فى النُزُل، غير أن الأشجار راسخة ثابتة، متوطدة، يجيء القوم من الخلاء المؤدى، ويقطنون الأماكن التى تحدد لهم أو يختارونها إذا كان فى الأمر فرصة، ويعبرون القنطرة والأشجار باقية. لكن الأمر ليس مفروغا منه بهذه البساطة، يؤكد المشرقيون أن لكل إنسان غصنًا فى شجرة، إذا يبس مات، وإذا هوى اضمحل، وإذا مالت به الريح مال، وإذا صلب واستقام اكتسب المرء صفاته. ولكن المقيمين على مقربة من المربع ،المحلقين حول الخلاء الذى يحتويه يؤكدون أن داخل كل مخلوق شجرته الخاصة، ويدللون على ذلك بالأوردة والشرايين المتفرعة أو المؤدية إلى بذرة القلب، ويقول أحدهم إن الشريان إذا ضاق أو لحقه عطب يجف ويذبل تماما كغصن الشجرة

الذى لا تصله المياه لانسداد الثغرات المؤدية إليه. كذلك أوردة المدينة وشراايينها، إنها الدروب المؤدية والطرقات والحوارى والعطفات والأزقة، وتلك تختلف من مخلوق إلى آخر، كل يتخيلها كما يريد، لا توجد خريطة دقيقة أو مرجعية واضحة يمكن الاستناد إليها، وذلك أن المدينة بأكملها لم تخرج حتى هذه اللحظة عن الخيال الإنسانى رغم مثولها على مقربة. لكن هذا لايعنى أى نقطة لقاء أو تماس مع ترديدات «طويل الصمت» المنسوبة إليه والقائلة بإمكانية التركز حتى يتم استدعاء المدينة بكاملها. تجىء إلى من يطلبها، تسعى إليه كاملة بدون أن يطرق بابها أو يعبر القنطرة المؤدية أو يخضع لعمليات الاستجواب المضنية، بل يقوم هو بالاستفسار منها فتجيبه فى مجملها وتفصيلها من خلال أشجارها وبناياتها وثنايا ذاكرتها. ونقاط ارتكازها، بل من خلال الحيوات التى اكتملت داخلها.

هذا شىء، والقول بالتماثل بين الشجر والمخلوقات والمدينة شىء آخر، هناك اعتقاد قديم، ينتقل من مقيم إلى آخر، خاصة أولئك القاطنين غرب النُزُل يقول، إن لكل شجرة منا توأمًا هناك، و إن كل الأشجار من مختلف الأنواع لها مقابل هناك. عدا شجيرات معدودات، ما يوجد منها هنا لا ينبت هناك، ومايورق ويثمر فى الضفة الأخرى لا يصلح فى الخلاء المحيط بالنزل. عدد تلك الشجيرات من الأمور الغامضة، كذلك أوصافها حتى ظن البعض أنها من جملة القضايا السبع. لكن الثقاة ينفون. يقول نفر بامتداد جذوع تلك الأشجار عبر الأرض وتحت النهر، تتجاوز مجراه على عمق غير معروف ثم تتجه إلى أعلى لتتحول إلى جذوع سامقة وأغصان وارفة مماثلة.

يعرف المقيمون كثيراً مما يتم تداوله حول الأشجار، يجيئون بأفكار

هائمة ومعان غير محددة، لكنهم هنا يصغون إلى تفاصيل، يواجهون بأنواع محددة، وحالات جلية. منها على سبيل المثال الشجرة المرضعة، إذ يحدث أن يجف اللبن فى ضروع الأمهات، فى البداية كن يستسلمن ليأس عقيم وهن يرقبن أطفالهن المواليد يجأرون بالصراخ. ولا يقدرن على تلبية أو استجابة، إلى أن عرفت إحداهن طريقها إلى الشجرة أنثوية المظهر، أمومية التكوين لينة البزابيز التى تنتهى بها أغصانها الدانية. يكفى أن يقترب فم الرضيع منها لتدر لبنا أبيض لا مثيل لمذاقه، لا يستمر قطره بعد بلوغ الشبع، يتوقف تلقائيا، لا تظهر القطرات إلا لشفتى طفل، غير أن الأمهات بما فطرن عليه كن يستنشقن عطره الخفيف، الشفيف، الثرى، يلمحن قوامه المتماسك ويرقبن لونه الأبيض الذى يذكرهن بمنى الرجال المخصبين الأشداء، لكن رائحة المنى لها وجود حقيقى فى أزمنة الإخصاب. عندما تتفتح مسام الأشجار لتلقى البذار ويتأوه بعضها ليلا أو نهارا من لذة الجماع والوصال الذى يتم عبر الخلاء، يتأجج الفضاء السارى وتوصى الأمهات بناتهن بالحذر وألا يعرضن أنفسهن للنسيمات السارية خشية الحمل من مصادر مجهولة لم يحط بها البشر علما، إلا أن بعض من لم يتحرك فى أرحامهن نبض الأجنة رغم شربهن الوصفات المؤدية، وقضائهن الليالى على أطراف النُزُل منفردات فى انتظار الخضة المبشرة أو نفاذ شعاع من النجوم لا يفد إلا فى لحيظات معدودات، لم يتم تعيينها بعد، لذلك من الضرورى لمن تسعى أن تبقى منفرجة الفخذين، مشرعة بكليتها فى اتجاه السماء لعل وعسى، قلائل منهن كن يخرجن منفردات، عاريات. متجردات من كل ثوب، يمضين متطلعات إلى غصون الأشجار، مستنشقات الهواء، دافعات به إلى صدورهن، آملات، متطلعات أن يتسرب ما ينقله من منى كونى إلى خلاياهن

فتعمر أرحامهن قبل النداء عليهن وصدور الإذن. إن تلاحق أنفاسهن ولهفتهن يصل إلى حالة من الدوار الذى يفقد هن شيئا فشيئا إدراكهن لأجسادهن التى تحاول جاهدة وصال الخلاء، والأرض والأجرام السابحة، ما لا يرى وما لايدرك بالحواس. إن رائحة المنى تثقل أحيانا لغزارة ما يتدفق من الأشجار المذكرة إلى الإناث، خاصة النخيل الذى لم يكن ينمو إلا فى الجهة الجنوبية للنزل ويقسم البعض على وجوده بكثرة فى المدينة، ثمة نخلة جرى الاعتقاد بحمل من تحضن جذعها، نساء لاحصر لهن تعاقبن عليها وعلى أشجار أخرى من أنواع متباينة، وقع الحكاك بينهن واللحاء المحرشف، تحكى مجربة منهن عن اللذة العظمى التى تسرى عبر العظام وتُقشعر سلسال الظهر، إن متعتهن معروفة، وبلوغهن الأوج مفروغ منه، وسعى النساء إلى مضاجعة العناصر أمره متداول، ويصغى النزلاء بدهشة ولكن فى صمت إلى ما يروى مثلا عن الماء الأعظم الذى شاهده بعضهم فى الطريق إلى هنا والشواطئ الصخرية الوعرة، ونزول بعضهن عاريات معرضات فروجهن لرذاذ المحيط الممتد. الذى لايبدو شاطئ آخر له، وأجمل أنواع المضاجعة ما يجرى فى أوان العاصفة، . عندما يغمق الضوء، أو تختفى النجوم، فتقترب السماء من الأرض، يضيق الرتق ويهدر الرعد، وتتسابق الرياح.

إن الصلات الجنسية بين النساء والأشجار والصخور وقطرات المطر، وظلال السحب العابرة أمرها معروف، وكذلك بالنسبة للرجال، ولكن هذه التفاصيل تتعلق بصلات استثنائية، على هامش العلاقات الأساسية، المتعارف عليها فى النُزُل، والحديث فى هذا الموضوع يطول، وربما نعود إليه إذا لرم الأمر واقتضى المطلوب ذلك ولكن ما يعنينا الآن تلك الأشجار وذلك الخلاء.

أيهما الأصل ؟

الخلاء أم الأشجار ؟

إنه التساؤل مرة أخرى، دائما تكون للسؤال صيغ متعددة ومضمون واحد، أما الجواب فله سبل شتى ومضامين مؤدية، مايجمع عليه القوم إن الخلاء كان فى البدء، ثم جاءت الأشجار وسائر الموجودات، وإن قال البعض بضرورة الأشجار لإدراك الخلاء، فلا يمكن استيعاب أمر إلا بإدراك نقيضه، بل إنهما يتلازمان، بحيث لايصبح لهذا غنى عن ذلك. أحد النزلاء لاحظ منذ عدة قرون عدم ورود هذه التساؤلات خلال عبور الخلاء إلى النُزُل، وعند اجتياز القنطرة بعد صدور الإذن وقيل فى ذلك إن الحركة مانعة، وإن الاستفسارات لا تبدأ إلا مع السكنى والاعتياد على المكان بكافة مايحويه، و من أقوى عناصره الأشجار والبنيان، يقول أحد الذين أطالوا المكث وأبدوا الهمة وبذلوا العناية، إن أكثر ما أثاره ملاحظة الملامح عند وفادة أصحابها، لحظة وصولهم إلى النُزُل واجتيازهم المدخل الشرقى، كلهم يتطلعون صامتين، مأخوذين إلى الموجودات كافة، عادة يلتزمون الصمت، يستسلمون تماما لكافة ما يطلب منهم، فإذا قيل لهم تعالوا هنا لبوا، أو . . اذهبوا هناك أقدموا. ويستمر الوضع مدة هكذا تختلف من شخص إلى آخر، إلى أن تبدأ التساؤلات، وعند الإصغاء فى البداية إلى الإجابات يكون امتثالا ورضا ثم يرد على الأسئلة بأخرى، ويقع الخلاف أو الانشطار، ويقول أحد الأمثال المتداولة هنا إن النزيل يبدأ إقامته بسؤال، وينهيها بسؤال عند صدور الإذن بالإقامة والمضى إلى المدينة، ويقول مثل آخر إن الإنسان فى اللحظة التى يبدأ فيها استيعاب الأشجار والخلاء معا يرحل، يصدر الإذن له فورا، وأنهم يعلمون بطرق شتى هناك، ويكون ذلك أحد العوامل المهمة فى الإسراع

بصدور الإذن. هذا مايحقق الفروق بين نزيل وآخر، بين نزيل لا يطول مكثه إلا أسابيع أو شهورا معودة، وآخر ربما يمضى أعواما، وثالث ربما ينتهى أجله ولا يبلغه أحد بالإذن.

الأشجار تتوزع على الخلاء المحيط، وتنبثق بين المبانى المتقاربة، وتفصل بينها، أنواع عديدة رغم محدوية المساحة ولم يقع إحصاء دقيق لها، لكن توجد أوصاف مفصلة للعديد منها فى السجلات المخفاة بعناية والموجودة فى إحدى البنايات العتيقة، هذه الدفاتر غير مسموح بالاطلاع عليها إلا للقائمين على تدبير الأمور، ولاختيارهم خطوات معلومة، لكنها معقدة فى جملتها.

إدراك الأشجار أسهل بكثير من استيعاب قبس مما يخص الخلاء. أو يتعلق به، أقدم شجرة هنا ممتد عمرها إلى حد لا يمكن تعيينه، وثمة من يقول إنها من عمر النزل، جرى غرسها مع دق أساسات المربع الأول، أو البنيان المبدئى، هذه الشجرة مهيبة فعلا، تقع تقريبا ناحية الغرب، ويمكن للواقف عندها أن يرى أمتداد الخلاء المؤدى إلى المدينة، ذلك أن النقطة التى يتم عندها التقدم إلى القنطرة قريبة جداً، غير مسموح بالاقتراب منها، ليس نتيجة تعليمات محددة، فلم يصدر أمر من القائمين إلا وجرى اختراقه أو تحديه بشكل ما، لكن ثمة ما ينتقل من نزيل إلى آحر، من عصر إلى عصر، ومن مكان إلى مكان، يكون له التأثير الأوفى ويرسخ من الفاعلية الكامنة، لا يحاول أحد المقيمين لمس تلك الشجرة، أو تسلق أغصانها أو غرس مسمار فى جذعها كما يحدث مع أشجار أخرى، إذ يعقد البعض خيوطا ملونة حول رءوس المسامير تختلف طبقًا للأمانى. يكتفى الجميع بالتلويح للشجرة المعمرة من مسافة لا يتجاوزها أحد، حوالى أربع أو خمس خطوات لعاقل.

أغرب ما يمكن رؤيته شجرة الخجل، إنها ليست واحدة، لكن يوجد

عدد منها موزع على الأنحاء، إذا دنا إنسان، رجل أو امرأة من مسافة سبع خطوات يبدأ انكماش أغصانها وارتدادها إلى بعضها، تلملم أوراقها، وكلما تقدم المرء منها تزايد تداخلها فى بعضها حتى تصبح غصنًا نحيلاً ملتفًا لا يمكن إدراكه، فإذا مسته يد إنس أو حيوان ارتعش بشدة وسرعة لا يمكن معهما بلوغه معًا.

يعتقد البعض أن أنواعًا معينة من الأشجار تصدر أصواتًا، يتلقاها من رتب الأمر فى المدينة على الضفة الأخرى، وعبر عقود متوالية يؤكد البعض أن كل أشجار النُزُل تتجه عند لحظة معينة، بعد اكتمال الفجر وبلوغ الضوء الممهد لظهور الشمس درجة من الاحمرار الذى لا يمكن وصفه، بالقانى الوردى، إلى جهة المدينة، يصبح لأغصانها وثمارها وجهة واحدة، وإذا قدر لإنسان النظر إلى تلك اللحظة يصدر له الإذن فورًا بالعبور ولا يكون بوسعه إلا أن يلبى.

لا تنتهى التفاصيل المتعلقة بالأشجار النابتة هنا، أما تلك اليانعة، هناك فى المدينة فلا يمكن لمخيلة أن تستوعب ما يحكى عنها، وعبثًا يحاول النزلاء رؤيتها أو رصدها من أى موقع هنا.

أما الخلاء فباعث على الرهبة، والخشية، وترقب ما يأتى، دائما ثمة شىء متوقع منه، فإذا انتفى ذلك وقع العدم واكتمل، وبالطبع يلوح التساؤل، أهو خلاء واحد يحوى النُزُل والمدينة معًا أم لكل منهما خلاء وفراغًا؟ يطول الحديث فى ذلك.

أسباب القدوم

من الأمور المعاينة، النادرة فى الاتفاق عليه، أن كل المقيمين لا يعرف أحدهم الآخر إلا فى النُزُل، بعد قدومهم وبدء مكثهم المؤقت

حتى لو امتد أعواما، يجيئون فرادى، ويمضون كذلك، من النادر أن تفد جماعة أو ثلاث معًا، يصلون متعبين منهكين، كل منهم قطع مسافة واحدة تتفاوت من شخص إلى آخر، وأيا كانت أحوال القادم أو مظهره فلا بد أن يقبل على الفور وأن يسمح له بالدخول، وإيجاد موضع، لم يحدث قط أن رفض قادم. كما أن النُزُل به أماكن خالية حتى لو اشتد الزحام نتيجة زيادة الوفادة. أو تأخر صدور الإذن بالعبور. كيف يتم توفير هذه الموضوعات كلها؟ هذا من الأمور غير المستحب الخوض فيها، وإن كان التوازن قائما بشكل عام بين القادمين والذاهبين.

ما من أسئلة عند الوصول، ما من استفسار، الاستجواب المضنى هناك بعد صدور السماح وعبور القنطرة. لكن بعد مدة قصيرة يبدأ الوافدون فى سؤال بعضهم البعض.

من أين وإلى أين.

ورغم بساطة السؤال فإنه مؤد إلى الحيرة وأحيانا نشوب جدل ربما يؤدى إلى خلاف، الكل يجمع على أنه يسعى إلى فرصة أفضل، إلى حياة أكثر دعة، وصيت المدينة وما تحويه وما تضمه وما يتبعها تجاوز تلك الآفاق المرئية، والبحار التى لاتبدو شطآنها الأخرى. لكل قادم ذكر أو أنثى - أسبابه. لكنه عادة يخفيها، لا ينطقها، وإذا استفسر منه أجاب بمراوغة أو بعبارات مبهمة. لكن ما من واحد إلا ودافعه الحياة الأفضل، بعض منهم يحكى عن ظروف حسنة مواتية، كان يتمتع بها، لكنه هجر كل شىء وأقدم على خوض المسافات الفاصلة سعيا إلى الأتم، بعضهم يظن أن النزل هو منتهى القصد، لذلك يحل بهؤلاء غم ومسغبة لتواضع ما يطالعهم بالقياس إلى ما سمعوا عنه أو دفع بهم

إلى خوض الفيافى، ولا يكشف هؤلاء موقوتية وضعهم إلا بعد مضى مدد تتفاوت من شخص إلى آخر عندئذ يبدأ تغير أحوالهم ويشتد بهم الترقب وتقوى عندهم المخيلات، الحقيقه أنه ما من نزيل أدلى بتفاصيل واضحة عن الجهة التى جاء منها، ومن تتوافر لديه القدرة على ذكر الأسباب الدافعة المحركة، فور وصوله فإنه يبدل ما قاله بعد فترة ومع انقضاء المدد تتنوع الأسباب، حتى ليقول البعض إن الإقامة هنا تخلخل الذاكرة وتغيب الحقائق التى عرفها الإنسان، ذلك أنه من شروط العبور إلى داخل المدينة الانقطاع تماما عما كان، وغير مسموح على الإطلاق بالحنين هناك، فى النُزُل كل شيء ممكن كما يبدو الأمر فى العلن، وإن اختلف فى الباطن، ولكن إحدى الوصايا التى تلقن للذاهبين هناك، تجنب الحنين، ونسيان ما يمكن أن يتعلق المرء به، ويبالغ البعض فيقول إن الأب لو صادف ابنه هناك فلن يعرفه، ليس لأنه يتعمد ذلك. ولكن لتمام التحول وشدة الانغماس، غير أن ذلك يدخل فى باب آخر لم يحن أوانه بعد يدور حول الرؤى المتعددة للمدينة عند النزلاء.

كيف يستدل القادمون على موضع النُزُل؟

هذا سؤال يتكرر دائمًا ولا يجرى أى تحذير عند النطق به، إن الدروب عديدة بلا حصر، لكنها تؤدى إلى الموضع عينه. كل قادم يظن فى البداية أنه سلك الطريق الوحيدة، يظن أيضا أن طريقه كانت ممتدة، قائمة متصلة، لكن لابد من مرور وقت ليتضح له أن السكك شتى، وأن كل قادم جاء من درب مغاير، ولابد أيضا من مرور مراحل حتى يفهم أن كل مستقيم به ميل، ولولا الميل لما أدت الطرق إلى بعضها، كل مطلع شمس يأتى بجديد، صح الوعى أو غاب عنه ذلك، وفى اللحظة

التى يكتمل فيها الاستيعاب يبدأ الرحيل إلى المدينة بعد صدور الإذن، هذا ما يتم تلقينه للقوم، وما يتكرر دائمًا.

النُزُل مجمع الشعاب، وملتقى الطرقات. لكن.. هل يعنى ذلك استحالة بلوغ المدينة مباشرة؟

بعض القادمين يسألون أنفسهم بعد استقرارهم. ألم يكن ممكنا الاستدلال على تلك الدروب الخفية التى تسبق النُزُل والمؤدية إلى هناك عبر مسارب يعرفها بعض الذين يهيمون حول النُزُل ورفضوا الاستقرار فيه.

ما من أمر مؤكد حول ذلك. لكن هذا يؤجج الحكايات المتداولة رغم التحذيرات بتجنب تفاصيلها وقلة الخوض فيها، أمر هذه الدروب لم يعرفه أحد، ولكن ثمة حكايات عن أولئك الذين أقدموا وانتهى بهم الأمر إلى هلاك مبين. هكذا تنتهى كل الأخبار.

هل التقى إنسان بأحد هؤلاء الأدلة؟

لا.. على الأقل من المقيمين فى النُزُل.

عند وصولهم يوجد بعض النافرين من الإقامة فى البنايات رغم تعيين أماكن لهم، وهؤلاء يهيمون على وجوههم باستمرار لكن فى الدروب والطرقات والميادين الصغيرة هنا، لا يتبعون نزلاء المشرق ولا أهالى المربع، أو ناس الغرب، أو من يترصدون حفيف الأشجار وينتظرون صدور الإشارات من تمايل الأغصان أو تفتح شقائق النعمان ليقدموا على تنفيذ ما عقدوا العزم عليه أو أضمرته نواياهم.

هؤلاء الشاردون لا يلتزمون مكانًا بعينه، لا يهتمون بمظهرهم، لا يحلقون لحاهم، وبعضهم ينظر دائمًا إلى فوق، صوب مواضع معينة

لنجوم، حتى ليقال إن الإذن صدر لهم بالعبور لكنهم تخلفوا، ومثل هؤلاء لا يعترضهم أحد، بل يحنو عليهم القوم، رغم أن كل إنسان صغير أو كبير يعرف تماما استحالة سعى أى كائن صدر له الإذن بالدخول إلى المدينة، حتى المرضى أو الذاهلين عن أنفسهم أو من أقعدتهم العلة، يتولى القائمون دفعهم أو مساعدتهم برفق وحنو حتى حدود النُزُل الغربية، يضعونهم على أول الدرب الحجرى الممهد، المؤدى إلى القنطرة، ومن أماكن بلوغهم يتم التقاطهم، أو مساعدتهم بسبل شتى على العبور وبلوغ مراكز الفحص.

يتسابق الشاردون على تقديم خدماتهم للقادمين الجدد، إن معظمهم يلزم أماكن قريبة من المدخل الشرقى، يصحبون الرجال أو النساء إلى الأماكن المعينة، وخلال تلك المسافات الداخلية يتبادلون الإشارات الموضحة، المفسرة، يشرحون من خلالها بعض الأمور الأولية. ويظن عدد من النزلاء أن هؤلاء الغرباء، ومنهم الصم والبكم والذاهلون عما حولهم يعملون بتنسيق وإشراف من القائمين على الأمور، وأن نفارهم مجرد غطاء، ولزومهم الطرق مدبر، لكن ما يقال كثير، ولا يوجد ما يثبت أو ينفى، غير أن المجمع عليه بين القدماء والمحدثين الرضا عما يقومون به ولطف ما يقدمونه إلى القادمين الذين يكون بعضهم ذاهلين عن أنفسهم، مروعين بما عاينوه من مشاق الطريق وكدورات الرحيل. إن الوصول هنا رغم أنه عتبة فقط إلى المدينة يعد نعيمًا لمن كابد أهوال العبور من نقطة إلى أخرى ومن بيداء موحشة إلى أخرى أفدح. هذا حال غالب على معظمهم ومن خالف فاستثناء، إن كلاً منهم يجىء بلسان مغاير، بل يمكن القول إنه يتنفس بطريقة مختلفة، فالأنفاس تتبع المناخ وسائر الترتيب، لكن بمجرد عبور المدخل الشرقى يصبح كل لفظ بمثابة لغز وكل حرف مجرد صوت لا يدل على شىء، لابد من البدء

فى تعلم اللغات السائدة فى النُزُل بمعنى أدق إحداها حتى لا تقع المبالغة الأصل هنا لغة واحدة لكن عوامل عديدة منها اللسان الأصلى للنزيل والقوم الذين سيخالطهم عند بدء القدوم والموضع المحدد للإقامة يؤدى هذا كله إلى متغيرات فى النطق تبدأ طفيفة ثم تتعمق بالممارسة حتى لتبدو بعض اللهجات كأنها لغات مغايرة تمامًا مع أنها تمد كلها إلى أصل واحد أن الألفاظ التى يحتاج إليها القادم الجديد يسيرة، ومحدودة. الأمر يتعقد شيئًا فشيئًا عندما يبدأ التعرف على المكان والاستفسار عما جرى أو ماذا يكمن وراء هذا الحجر أو تلك النخلة؟

المؤكد أن هذه اللغات أو تلك اللهجات لا تصلح ولا تنفع متقنيها عند صدور الإذن يتم النطق بها خلال مراكز الفحص والاستجواب حيث تجرى أيضا المطابقات، ولكن بمجرد سلوك الطرق المؤدية إلى المدينة ذاتها يصبح من الضرورى النطق، بألفاظ مغايرة وإشارات جديدة تمامًا، هكذا يمكن القول إن الإنسان الذى يستقر به الحال هناك يمر بثلاث مراحل لغوية على الأقل، لغة المنشأ وتلك تخصه ولغة النُزُل وهذه لابد من إتقانها لفهم مايجرى حوله وما يتم التعامل به، لغة المدينة المغايرة تمامًا لايعرف منها أى إنسان حرفًا واحداً، كل ما يروى عنها من قبيل التخمين وينتمى إلى الرؤى المتخيلة والتى تتغير من شخص إلى آخر، بل من مرحلة عمرية إلى أخرى ومن سنة إلى سنة، لكن ما يجمع عليه كثيرون وجود هذه اللغة الخاصة المغايرة، والتى يتخاطب فيها القوم بالنظر، أما الأصوات فلا حاجة لإنسان إليها، ذلك أن الفراغات هناك على درجة من النقاء والشفافية حتى ليبدو كل ما يجرى وكأنه مصاغ من أصداء الضوء. هناك لا يُترك إنسان لنفسه، إنما تتعهده الجهات القائمة برعايتها وعنايتها فلا يعول همًا ولايكابد

مشقة، لايبذل إلا ما يتطلبه الاستيعاب، ولا ينفق إلا بقدر الحاجة. ثمة مراحل مجهولة ولا تشملها الرؤى المخيلة يتم خلالها الإعداد لولوج المدينة، لكنه، لاتتصل بقريب أو بعيد بمراحل النُزُل، هنا انتظار يعقبه انتظار، لكن هناك كل خطوة بقدر، لها توقيتها الذى لايمكن تجاوزه، مراحل التجهيز يتم الاطلاع عليها مسبقًا بدءا من حلاقة الشعر كله وحتى إتقان اللغة الجديدة المستمدة من النظرات وتقلباتها.

كل مقيم هنا يأمل فى مهنة مغايرة هناك، أو ظروف أفضل لممارسة مهنته التى تعلمها فى منشئه الأصلى، حتى وإن استوعب تماما انقلاب الأوضاع واختلاف الشروط، إن ما يتردد عن درجات اللون الأخضر هناك فقط يدير الأخيلة ويؤجج طاقات الأحلام أما البيوت الدانية، القصية عن كل ما يجاورها فلها تفاصيل شتى. بالتأكيد كل مقيم هنا لديه أحلامه الخاصة ومشروعاته التى يخطط لها.

غير مسموح باصطحاب أى رأس مال عند صدور الإذن وعبور القنطرة، قبل المفارقة يتم تجريد المرء من كل مالديه، لايمكن أن يحمل معه حتى ثمرة من النخيل الكثيف، خاصة فى المناطق الغربية المؤدية، البداية هناك لابد أن تكون نقية لا تشوبها شائبة، من الصفر تماما، بل يقال إن مراحل التجهيز والتى تتم خلالها عمليات الاستجواب الكبرى والتركيز على من يرغبون تبديل معتقداتهم بأخرى جديدة، أو الانتظار للاستيعاب، هذه المراحل الهدف منها التأكد تماما أن من يدخل المدينة لا يحتوى على مجرد فكرة يمكن أن تحدث قلقلة أو تشيع أمرًا غريبًا على المستقرين هناك، هنا ربما يلوح استفسار، وهل من الممكن ذلك؟ بدون فحص أو استرشاد يمكن القول بنعم، وعلى امتداد وجود النُزُل جرى مثل ذلك عدة مرات، وأبرز مثال مخفف ودال أيضا ما يتداوله القوم حتى الآن عن الباب.

جلوة الأسماء

في البدء لم تكن ثمة أسماء خاصة بالنزلاء، كان القادمون مشغولين بأمر واحد لا يعرفون غيره، بلوغ المدينة، ولم يجر ذلك الحوار المعتاد عند المدخل الشرقى، عندما يسال أحد القائمين عليه :

«ما اسمك ؟».

«من أين جئت.».

«هل تقصد المدينة؟».

ثلاثة أسئلة موجزة، سريعة، لا يعقبها أى جدال مع الإجابات.

بل يحدث أحيانا أن يبدو القادم ذاهلا عن نفسه، غير قادر على الرد، فلا يقع إصرار ولا تصدر مضايقة.

بل يتردد أنه فى البدء، لم يكن هناك مدخل شرقى أو غربى، لم يكن هناك تساؤلات أو أجوبة، لم يكن هناك مربع ولا مكعب، لا مستطيل، ولا دائرة، لم يكن ثمة فوق أو تحت.. ما من شجر أو تلال. ما من مرتفع أو منخفض، لم يكن هناك نُزُل، ولا مدينة

كان الخلاء مثل الامتلاء، وأى شىء، كأى شىء.. ذلك أنه لم تكن أسماء بعد، هذا ما يتردد حتى الآن بين نفر ممن يقطنون وسط النُزُل، إذ يؤكدون أنه لم يكن ممكنا تحديد أى شىء قبل ظهور الأسماء، ليس بالنسبة للبشر فقط، إنما بالنسبة لسائر الموجودات بما فيها النُزُل ذاته والمدينة المرجوة، كانت المخلوقات كلها متشابهة، الإنسان صدى للإنسان، وهذا الجنس من الحيوان عنوان لسائر الأجناس إلى أن قدم

من أقصى الشرق ذلك الرجل المعروف فى سجلات النُزُل المخفاة فى مكان سرى، يتردد أنه هناك فى المدينة، هذا الرجل يطلق عليه لفظ مندثر قريب من معنى، «رائى الحقيقة» أو «مشاهد المعنى» يؤكد البعض أن أوصافه محفوظة من خلال رسوم خطها هو على حجر وردى اللون، الاطلاع عليه غير متاح إلا لمن يقدر على حل القضايا السبع وهذا نادر جدا، إن «مشاهد المعنى» هو الوصف الأكثر شيوعا لذلك سنطلقه عليه، تجمع المصادر كلها والروايات المتناقلة، أنه جاء إلى المنطقة بأمرين، الأسماء، والباب، لكن ثمة من يقول إن من أدخل الباب إلى النُزُل شخص آخر ينتمى إلى نفس الجماعة التى جاء منها «مشاهد المعنى» وحتى لا يقع اضطراب. فالخلاف سمة كل شىء هنا، سنأخذ برأى الجماعة المقيمة حول الفراغ المربع، وهم الألصق والأدنى بالقائمين، المدبرين للأمور، وهؤلاء يؤكدون أنه شخص واحد، وأنه ينتمى إلى موضع من الأرض يجرى فيه نهر مقدس، تحيطه زراعات عميقة الخضرة، وتقوم فيه أبنية مضى على بعضها آلاف السنين، كلها من الحجر، وأعظمها هرمى المشكل، لهذا المكان اسم لكن اختلف عليه أيضا، فثمة من يقول إنه الدافئ، وآخرون يؤكدن أنه الأسمر لغموض تربته وطيبتها ونعومتها، وقلة تزعم أنه «كمى» ولا يعرف أصل هذه الكلمة، كما لا يمكن لمخلوق أن يفسر السبب الذى دعا بمشاهد الحقيقة إلى مغادرة موطنه هذا الحافل بكل ماهو جميل وقطع البرية المجدبة، الموحشة، والسعى إلى النزل التماسا لعبور القنطرة، كل ماتحدث به عن موطنه لايضيف كثيرا إلى الرؤى المتخيلة للمدينة، لكن يبدو أن اضطرابا عظيما وقع هناك، وأن مشاكل قصوى أدت الى فراره، وقطعه المسافات هكذا وصل إلى هنا، على أى حال، ورغم كل شىء هو أول من حدد الأشياء، للقوم بأسمائها وهو من أطلق على

الموضع «نُزُل» وعلى هناك «مدينة» هكذا وقع التحديد واستقر الفتق، هو من أرسى ظهور الوجود بالاسم، فالشجرة ماثلة من قديم، لكنها مجرد كيان غامض فإذا أطلق عليه الاسم سارت موجودة بغير وجود لايقتضى الأمر إلا ذكرها، فتمثل على الفور بأغصانها وثمارها وجذعها وجذورها وسائر علاماتها، فإذا ما أضيف اسم الصنف سار الحضور أوفى والتمثيل أوقع، فهذه نخلة وتلك صفصافة والثالثة جميزة والرابعة سروة، والخامسة صنوبرية والسادسة للأرز، والسابعة راتنجية والثامنة من السرخس والتاسعة فاتحة لأنواع الصبار والعاشرة مدخل للنخيل.

وهكذا.

ومما أرساه وقوى دعائمه القول ببقاء الإنسان أو الحيوان أو النبات ما بقى الاسم، وحدث عن قومه وحرصهم على نقش أسمائهم على الأوراق المتخذة من النبات وعلى الجدران بحروف غائرة حتى لايمحوها الزنادقة والجوعى، وعن أشخاص ينفقون ما كدوا لجمعه حتى يذكر أهل السبيل أسماءهم لا غير، وعن ملوك أنصاف من الآلهة شيدو عجائب البنيان، فقط للذكر، وترديد الاسم.

مادام الاسم يتردد فهذا يعنى بقاء صاحبه حتى بعد همودة وتوقف أنفاسه وكفه عن الرؤيا.

لا يستقيم الموجود إلا من خلال اسم.

هذا نُزُل.

هذا شرق، هذا غرب، هذا شمال، هذا جنوب، هذا فوق، هذا تحت، هذا خلاء، هذا بناء، هذه نسمات، هذه رياح، هذا صبى، هذا

شاب، هذه فتاة، هذا شيخ، هذا مقيم، هذا قادم، هذا عابر . . إلى غير ذلك .

قال إن اسم الإنسان يحدد صفاته ويؤطر ملامحه، منه وبه يمكن إلحاق الأذى أو إهداء النفع والتليين والتطويع، حكى عن العبارات المؤثرة التى يحرص القوم فى بلاده على كتابتها للأحياء العابرين بمقابرهم وأماكن رقادهم الأبدية، فهذا يتوسل لذكره عند الإله وذاك لا يريد أكثر من تلاوة التعاويذ، وثالث يطلب من المارة التوقف وقراءة عبارة أوصى بكتابتها، إن الغرض الحقيقى من هذا كله ذكر الاسم بشكل ما، وما دام الاسم يتردد فصاحبه حى بشكل ما، موجود بطريقة ما .

كثيرون مروا بالنُزُل، أقاموا فيه مددا متفاوتة وأحدثوا من الأمور مايجرى ذكره بانتظام، وما أدى إلى تأثيرات عميقة غيرت وسهلت حياة القوم، ارتبط بعضهم بلحظات حاسمة، أو اكتشافات مبهرة، أو التعبير عن معتقد ساد أو مازال ينتشر، لكن كل هؤلاء فى جانب و«مشاهد المعنى» . . فى جانب . بتسميته الأشياء هنا تفرقت عن بعضها وتحددت، وتلك علامة فارقة، ونقطة لا مثيل لها، بل يعتبرها الكثيرون بداية وجود النُزُل، والمدينة أيضا، فكلاهما مترابط، وينسى هؤلاء أن الرجل الذى سعى من بعيد لم يأت من فراغ ولم يصل إلى هباء، وإلا فعلى أى الموجودات أطلق . أسماءه أو ألفاظه؟

وهذا موضوع يطول الحديث فيه، خاصة أنه لم يطلق الأسماء على الأمور الظاهرة إنما الخفية أيضا، تلك التى يصعب تحصيلها، وبقدر خفائها وصعوبة إدراكها بقدر وعورة الاهتداء إلى سماتها الدالة، ومن الوافدين نفر أنفقوا كل ما قضوه هنا من نهارات وليال فى محاولة المعرفة وفهم اسم أو اسمين، لكنهم فشلوا وتعثروا .

الأمر صعب!

لكن الأصعب المثير للجدل ذلك الباب المؤدى إلى كل مايمكن إدراكه عندما اجتاز المدخل الشرقى واستقر قرب المربع الخالى، القديم، بدأ فى تشييد المبنى الذى ارتفع لأول مرة على الحد العلوى للمربع، وشيد داخله أول درج يمكن القوم من الصعود بلا كلل. . ولكن أخطر ما أقدم عليه الباب، بالطبع ليس الباب المؤدى إلى داخل المبنى، من المفروغ منه أن كل باب هو وصلة، همزة تمس عالمين حتى عند الإغلاق، ولكن. . ما تفسير الباب الذى لايؤدى إلى شىء؟

هذا ما أقدم عليه «مشاهد المعنى» عندما راح ينحت فى الجدار بابًا مماثلا لكل الابواب. . محددًا مؤطرًا بلونين، أحمر قان وأزرق فيروزى، ويقسمه خط أصغر كهرمانى، القادم يكاد يفوت عبره، أو يجذب إحدى ضلفيته، لكنه لا يفاجأ إلا بصدور ورد.

يقول مشاهد المعنى إن عتاة الكهنة، سدنة المعانى كلها والجواهر المتبقية بعد جهد جهيد ومكابدة استغرقت مائة وخمسين قمرًا مكتملاً توصلوا إلى أجل ما أنجزوه، ما تفوق دلالته كل المعابد العظمى والمقابر المنحوتة فى الصخور الصوانية، والأهرام المكسوة بالأسرار المشعة للكون، بعد أن أضناهم ماجرى من انهيار وفوضى أتت على أجل المقدسات بعد شيوع الخلط، توصلوا إلى مايصون ويحمى، إلى أهم ما أسفرت عنه موروثات كل من عاش وشرب من ماء النهر العذب.

الباب الذى لايؤدى إلى شىء ويفضى إلى كل شىء.

الباب الوهمى.

هذا الباب أحدث من الرجة والاضطراب هنا ما لم ينتج عنه فى

منشئـه، فى الديار التى ظهر فيـها لأول مرة، ذلك أنه هناك مـستند إلى معارف جمة وأسرار لاحصر لها، وحروف وطقوس ونبوءات وقدرات مختلفة لتفسير الأحلام، ولحظات الشجى، وانبثاقات النشوة.

والقـدرة على فـهم مـا تبـوح به الرسـوم أو المنحـوتـات التى تبـدو صامتة، ماثلة أبدا، لكن القوم هنا أمرهم مغاير، معظمهم لا يقدر على الاستيعاب، ولذلك اتخذ الباب الوهمى هنا أبعادًا لو اطلع عليها من قدحـوا فكرهم للوصـول إليه لضـحك فريق منهم ولبكى فـريق آخر، وليس فى ذلك أدنى مبالغة.

عندما نما إلى علم القائمين على النُزُل اعتبروه سرا يخصهم وتمكنوا من إخفـائه مقـدار ثلاثة أجيـال كـان «مشـاهد المعنى» المعنى نفسـه قد أصبح مجرد ذكرى واهية، هم الذين ظنوا أنه مؤد إلى المدينة مباشرة، وقالوا فى ذلك أشياء، منها أن المكث أمامه أربعون مطلع شمس يكفى لعبوره مباشرة، وفى قـول آخر إنه مع شـمس اليوم الحادى والأربعين يسـمع منه صـوت يأذن بالدخـول، فـيـعـبـر المرء ومع كل خطوة تشع الحقيقة إثر الأخرى حتى يصل إلى حد لا يمكنه التحمل لمحدودية قدرته البـشـرية، عندئذ يشف ويخف، يتـحـول إلى ضوء مكين، نافذ يمكنه عبور الموانع. . ويتردد ما بين هنا وهناك بدون أن يلحظه أحد أو لايقدر على رده مخلوق أو ترتيب، أيا كـان، وفى قول ثالث إن من يقـدر على الصبر المكين ويشخص سبع ليال إلى البـاب الوهمى بدون أن يغمض له جفن، فإنه يرى كل ما تحتويه المدينة، فـيبلغها بدون عبـور، ويتمتع بأجوائها بدون صدور إذن.

وهذا الاعـتـقـاد لا صلة له بما يقـول به المشـرقـيـون سكان البناء الأسطوانى المستمد من «طويل الصمت» الذى قال بإمكانية استحضار المدينة بدون الذهاب إليها أو عبور القنطرة.

هذا قول وذاك قول، لكن ما سببه ذلك المرتبط بالباب الوهمى أفدح وأوعر، ولكم أدى الاعتقاد به إلى هيام نفر غير قليل، أو وقوع خلافات راح فيها كثيرون. . على أية حال لا يمكن منع مايقال. وما يبدأ همسا يتحول إلى ضجيج فيما يلى منشأه وبدايته، وكما قال البعض إن الأصل للجميع بما فيهم الجنس الإنسانى تلك الأشجار.

قال آخرون، إنه طويل الصمت الذى علم أتباعه الاطلاع على عز المدينة فى ثباتهم، حتى إن بعضهم يقلبها كما يرغب. . وقال آخرون إن النزل والمدينة ما هما إلا نتاج اسمين نطق بهما «مشاهد المعنى» ذلك القادم من بعيد، تمامًا كالأنثى الضاوية.

أنس الوجود

قبل وصول «مشاهد المعنى» أو «الرائى الأعظم»، كما أطلقوا عليه بعد مضى ثلاثة قرون على غيابه، لم يكن الرجال يعرفون النساء، ولم تكن النساء يدركن أن هؤلاء رجال. لم تكن هناك أسماء للأجناس، وبالتالى للأعضاء، كان النزوع هو الغالب لضغط الحاجة، فإذا بلغت الذروة وفاض الأمر جرت المضاجعة، فى الأغلب الأعم بين الرجال والنساء، ولكن كان بعضهم يتجه إلى معانقة الأشجار، أو مضاجعة الأرض والإيلاج فى الفراغات المؤدية. أو ملاحقة الحيوان. تتسم تلك المرحلة بغموض بليغ، حتى يقال إن الذين جاءوا إلى هنا قادتهم الضرورة، وعندما نودى على معظمهم لم يلبوا وظلوا لاهين إلى أن اضطر القائمون على التدبير من الناحية الأخرى إرسال من تنكر فى هيئتهم ليرشدهم ويدلهم، هذا ما يؤكده المشرقيون من قاطنى المبنى الأسطوانى، ويوقن كل منهم أن الصلات قائمة بين هنا وهناك، وأن

الحرس المكلفين لاينقطعون عن عبور القنطرة فى الاتجاه المقابل لكن فى مواقيت معلومة وبعضهم يتجاوز النُزُل إلى الخلاء ساعيا بالرسائل غير المنطوقة إلى أركان الدنيا، ونواحيها المعمورة، لكن مثل هؤلاء لا يمكن معرفتهم أو التحقق من هوياتهم، ذلك أنهم يتقنون التمويه والتفوه. بكل لسان أمروا بإتقانه، وهذه الأنثى التى علمت الرجال والنساء لذة النكاح قدمت من المدينة، ولم تأت من الخلاء كما تشير بعض المتون.

أوصافها شائعة، لايرد ذكرها بالنطق، أو استدعاؤها عبر الذاكرة إلا وتسرى أنغام خفية، عتيقة، تحض على النزوع فى سائر الجهات، وتستنفر الكوامن، لكن إذا حاول أحدهم استعادتها استعصى عليه ذلك. لايعرف أحد موعد وفادتها إلى الكون، ويزعم المشارقة الأسطوانيون أنها ولدت عدة مرات، وأنها جاءت على مراحل لشدة خصبها وثرائها وتنوع عناصرها. عيناها دانيتان، مقتحمتان، فسيحتان، طاقتان. مؤديتان وحاضتان فى الوقت عينه، مانعتان، لا يجرؤ الجسور على الاقتراب منهما، أو التطلع إليهما إلا إذا شاءت ورغبت، كل مايتعلق بها مرهون بما تراه حتى لوواجهها العتاة، الجبابرة.

قوامها مرجع، وقياس للجمال الأنثوى رغم توالى العصور، وانقضاء الحقب، لها صفات كل ماينبثق من الأرض ويعلو عليها ويسرى، وبسوق النخيل وفراهة الجذوع ومتانة الرسوخ لكنها إذا مادت فهى اللين عينه. . والنعومة ومصدر كل يسر. . استداراتها رموز لتقبب السماء وكروية الأرض. وشروع نهديها يستلهمه النحاتون حتى الآن، والبناءون الذين صمموا الشرفات والبروزات والكوات المشرفة،

أما خصرها فعلامة للنسيان والانزواء مع الحضور والرهافة المؤدية، لأردافها الكمال، وما من ذكر توسدهما أو أحاطهما بيديه إلا وأدركه ذلك التمام، أما فخذاها وتقوس مابينهما فمنهما اكتمال العناصر، لذلك عدت قدماها أساس البنيان. سماتها لاتزال تذكر فى بعض أنحاء النُزُل، خاصة عند المشارقة وأيضًا المغاربة، وكذلك ما أفتنته أو أبدته للقوم الذين كانوا يقعون على بعضهم فى فوضى لا تعرفها الحيوانات.

كان احتواؤها إطلاقا وتنزيها.. وامتثالها زهوا وتيها على ماعداها، وآهاتها خصبًا، منظومة وسائل، لم تكن أنثى، بل عقيدة وشعائر، لم تنته بفناء حضورها المادى، بل انتقلت من حول إلى حول ومن رصيد إلى رصيد، وما تهمس به الأمهات إلى بناتهن المقبلات حتى الآن إنما ينبع من فيضها ويرجع إلى كوثرها.

أصلحت الشئون، وقومت الأوضاع، وتسيدت عندما دلت الخلق على مسارب المتعة والأوتار غير المرئية، وأفصحت عن قوانين مستقرة من يستوعبها يعرف الاتحاد الفعلى، والاندماج الكلى، يقال «مشاهد المعنى» كان يردد بفخر تفاصيل التوصل إلى الباب الوهمى ومايعنيه لكنه كثيرا ما ردد استفسارات حائرة لم تلق جوابا حتى الآن، منها المتعلق بمصادر الرياح. عند أى نقطة فى الكون يبدأ سعيها وما كنه القوة الدافعة؟

وأيضا قسمات هذه الأنثى التى تؤكد كل النصوص المتوارثة أنها كانت تتغير من لحظة إلى أخرى، من أى نبع استمدت ملامحها التى لا تنفذ، من أى مصدر؟

قبل مجيئه لم يكن هناك أسماء ولم يكن تدوين، بدأ ذلك كله

بعده، والمتفق عليه تقريبا أنه شغل بها وتقصى أخبارها بشكل ما، إذ لم يكن بين المقيمين من يتقن الألفاظ الدالة عليها. ويبدو أنها زاحمت وجوده فسعى إليها بالمخيلة وحاول استحضارها بالتصور، لذلك يوجد فى النُزُل من لم يقرب امرأة قط، أو من لم يقتحمها ذكر، هؤلاء جماعة يتوارثون مايعتقدونه، ودائما هم هناك حتى وإن قل عددهم، يقولون بسمو الاستمناء واكتمال مشروعيته. من خلاله قال «مشاهد المعنى» ما يتمناه منها، وامتزج بها. . هؤلاء يقولون بروعة بلوغ المفرد ما يريد، بإمكانه استدعاء من يشاء، فى أى مكان أو زمان، بقوة المخيلة، وتحقيق أقصى حرية موجودة أو مأمولة، بل إن بعضهم أمكنه من الأوصاف المتخيلة عن أناث المدينة، صياغة ملامحهن واستحضار بعضهن ومضاجعتهن، يحدث أن يلتقى أحدهم بأنثى لها طلع ورغبة وكينونة، يقدم على ممارسة الحب، لكنه يغمض عينيه ويستدعى من يهوى أو من يتمنى، فيندمج فى حضور، ويكتمل فى لا حضور آخر، وهذا غريب لكنه معروف مجرب. .

كل سيرة إلى انقضاء، وإلى اندثار، عدا ما يخصها وما يتعلق بها، المسألة بالنسبة للآخرين مسألة وقت فقط، حتى لو طال الأمد وتعاقبت الحقب فكل ذكر إلى زوال وكل اسم إلى محو، بمعنى الاسم الذى يشير إلى شخص بعينه أمضى زمنا وملأ حيزاً فى المكان، هذا ما لم يحسمه «مشاهد المعنى» وإن كان يشير صامتًا إلى الباب الوهمى، فاعتبر المنتظرون، التائقون المتوقعون صدور الأذون بين لحظة وأخرى، ذلك بمثابة إشارة إلى المدينة، كل أمر صعب حله وكل ما يفتقدونه موعدهم معه هناك، حتى لحيظات الحنين والشجى المحفز.

بعد أن أتى «مشاهد المعنى» بالأسماء، وأسس لما يستجد منها بعد أن جاء بالباب الوهمى وخلف مايتعلق به، بعضه مفسر وكثيره مغلق.

أمضى ماتبقى له فى تقصى آثار الأنثى التى علمت الإناث مالم يحطن به علما من قبل، وساعدت الرجال ليس على اكتشاف حواف أجسادهم ومكنوناتها إنما سائر مايتعلق بأحوالهم، حتى إن نصا قديما يتحسر على أولئك الذين لم يدركوا زمانها، وراح عليهم كل ما أبدته وبثته من تعاليم وحركات وأهداف لا حصر لها.

قبلها كان كل شىء كأى شىء.. القبيحة مثل الجميلة، والطويلة كالقصيرة، والفلجاء كالمستوية، ولم يكن بين القادمين من يأتى بأنثى، أو تصحب ذكرا يخصها، وفقا للطقوس الأصلية لا يسمح إلا بدخول الأفراد حتى لو جاء بعضهم فى جماعات، هذا نادر جدا، يجىء القوم واحدا إثر الآخر، تماما كما يخرجون فرادى لعبور القنطرة إلى المدينة، كثيرون كانوا يصحبون أمتعة معهم أو بعض حاجاتهم، لكنهم يفارقونها عند المدخل.

تماما كما يخرج النزيل بدون تمرة، يدخل أيضا، لذلك اكتفى بعض المشرقيين بالإقامة فى الخلاء، وقضاء حاجتهم فى العراء، والاعتماد على ثمار الأشجار فى إشباع جوعهم، وبشكل عام فإن متطلباتهم هينة. يقولون إذا كان غير مسموح ولو باصطحاب نواة بلحة عند العبور إلى المدينة، فلماذا الانشغال بالبنيان، وتحسين الواجهات وإضافة الطوابق ونحت الأشكال وصك المعادن وطول التطلع، إلى النجوم؟

حتى الآن وبعد استقرار النظم، رغم اختلافها المرتبة لعلاقات الجنسين يعلنون عدم التزامهم بكل ما يتبعه الفرقاء، سواء أقاربهم المشرقيين أو المغربيين، أو أهل الوسط المنتظمين حول المربع الخاوى، ونزلاء المبانى المتداخلة أو المنفصلة، إنهم الأقرب إلى الفطرة الأولى،

والحالة التى كان عليها المقيمون قبل وفادة أنس الوجود أو مطمئنة القوم كما تعرف فى النصوص العتيقة، والاسم الأول أطلقه عليها مشاهد المعنى، ومما يثير الدهشة أن اسمه هو نفسه غير معروف، غير محدد.

قبلها كان الكل للكل، لا فرق، لكنها هى التى دلت كلاً منهم على الاختصاص وبينت لهم الأصول والفروع . . قبل مجيئها كان الوقت يمر بطيئا، ثقيلا، جالبا للملل والمشاكل، ويحكى أن بعض القائمين على النُزُل لجأوا فى فترات قديمة إلى اختلاق أنشطة لإلهاء المقيمين، المنتظرين، مثل تقليم الأشجار، وعد فروعها، وتهذيب أوراقها، أو نقل رمال الغرب إلى الشرق ورمال الشرق إلى الغرب وهذا عجيب، غير أن هذا انتهى بعد ظهورها، إذ بثت بينهم من فنون الملاعبة ما يستنزف أعمارا، وكشفت عن وسائل تقرب ومناغشة يحتاج المرء - أنثى أو ذكر - إلى سنوات متتالية لاستيعابها.

أكثر من ألف ألف طلة قمر مكتمل انقضت على مجيئها وأمرها بعد سار متصل، وبالطبع لايمكن القطع بكل مايروى الآن، فالوقت قصى، ومباعد، وتفاصيل عديدة أضيفت، مثل القول إن تأوهاتها كانت تبث النشوة فى سائر الموجودات، حتى الأشجار تسعى إلى بعضها، وتفارق حبوب اللقاح مراقدها فى غير مواسمها، وتميل السماء على الأرض حتى ليسمع للنجوم شخير، ويتردد لمياه النهر نخر وترهز الأرض حتى ليخشى منها، وهذا أصل الزلزلة ! ولايبقى مخلوق بمفرده، كانت لديها القدرة على بث الطاقة واستنفاد الكوامن بالصوت، ولم يكن صوتها واحدا إنما كان درجات وأجناسًا يصعب توصيفها الآن . .

أما أريجها فيحتوى أقساما كاملة من النُزُل ويفتش البعض عن

مواضع رقادها حتى الآن بدعوى أن عطرها ما زال متشبثًا باليابسة رغم فوات الرياح وتعاقب الأمطار وشدة التآكل.

نسلها لايوجد هنا، إنما هناك، معروف فى المدينة، باد لكل ذى بصر وصاحب نظر، والسعيد السعيد من يستدل على إحداهن فيلزمها حتى تقبل به، وإن كان الترتيب هناك مغايراً تماماً لما تقوم عليه الأمور هنا.

لا يعنى سريان فنونها، وبقاء نصائحها، وانتقال خبراتها أن الجميع يلتزمون أفعالا متقاربة أو وسائل متقاربة، شتان ما بين أنثى الجهة الغربية التى تعتبر جسدها عالما لا يمس. إلا بعد إتقان وطول دربة واقتناع أتم بمن يسعى. وأنثى الجنوب التى تفور دائما بالرغبة حتى لتسمح بإتيانها عبر كل المداخل المؤدية إليها مادام ذلك محققاً لراحتها اقتداء بعبارة وردت على لسانها قالت فيها: تلك بوابات جسدى فليعبرها من يقدر. أما إناث المشرقيين الأسطوانيين خاصة فتبقى الواحدة منهن عذراء لا يجرؤ ذكرها على مسها إلا بإذن من القائم على البناء، وأحيانا لا يصدر، أو تحدث ظروف معوقة، فتنقضى الفترة وهن لايعرف ما آتاهن الوجود من مصادر متعة، ومثل هؤلاء يجرى افتضاضهن فى مراكز خاصة بعد عبور القنطرة، صحيح. . يتردد الكثير حول أبكار المدينة، وما ينفردن به، لكنهن مختلفات تماما عن أبكار النزل، هناك البكارة متجددة، إذ ترتد كل منهن عذراء بعد افتضاضها، ولهذا يمضى الذكر ما قدر له العيش فى حالة افتضاض دائم، كما أن الأنثى هناك تتشكل بالهيئة التى يرغبها عليها الذكر، وكذلك الرجال، إن افتضاض العذارى فى مناطق الفحص ليس إلا إجراء من عشرات الخطى التى يتم خلالها تخليص القادم من كل ما

تعلق به ، عبر رحلة قدومه أو أثناء إقامته، وهذه الإقامة تختلف مدتها من شخص إلى آخر، ولذلك كانت دعوة أنس الوجود إلى التعرف على الملذات الكامنة، واللطائف السارية، صحيح أن ما تحتويه المدينة لا يمكن للمخيلة البشرية استيعابه، ولكن رغم قصورها فإنها تجتهد لتخيل ما ينتظر كلاً من النزلاء بعد تمام العبور. هذا ما يندرج تحت المعطيات المعروفة بالرؤى المتخيلة وتوجد عدة نصوص مهمة، منها الرؤى النهارية، ومشاهدات الليل، ورصد الهمس، وإدراك الأفق، وكتاب الأمل، وزبور الألم، وإطار القنطرة. وعمارة البوابات.

إيراد هذا كله صعب، كما أن الإحاطة به عسرة، لذلك نورد ما قدرنا على فهمه، وما يمكن استيعابه.

سلافة المتخيل

كل امرئ هنا، أيا كانت الجهة القادم منها، أيًا كانت مكوناته أو ما يتعلق به، كل من يتنفس هواء النُزُل يعرف أن إقامته محددة مهما طالت. حتى وإن استغرق في مشاغله وانهمك، لابد أن ينتبه على خاطرة مباغتة من داخله، أو إشارة من خارجه فيدرك في ذروة انغماسه أنه في مقام مؤقت، وعند لحظة لا يلم بها وليس له تأثير في تقريبها أو إقصائها سيغادر كل ما يحيط به، ما يستند إليه أو ما يستظل به ويتجه إلى القنطرة مجردا من كل شيء.

القائمون على النُزُل، وهؤلاء يجرى اختيارهم من بين النزلاء، طبقًا لأصول قديمة وخطوات عتيقة، يقدمون على تصرفات محددة بين الحين والآخر الهدف منها تنبيه لقوم إلى موقوتية الوضع، خاصة بالنسبة، لمن طال عليهم الأمد والوسائل إلى ذلك عديدة متنوعة.

يحـدث أحيانا سـريان همس بقـرب صـدور إذن يعـقبه عـدد كبير بالعبور والإقـامة، ربما عـشرين أو ثلاثين ويقتـرن ذلك بشروط منهـا انقضاء وقت، أو أداء طقوس أو توافر علامات ذات شأن.

منذ خمسة آلاف ألف قمر مكتمل سرى ما يؤكد صدور إذن بعبور عدة آلاف من النزلاء، لمناسبة نادرة تتمثل فى مرور المذنب اللامع. لا يظهر فى سماء النُزُل إلا مرة كل أربعين ألف قمر.

جرى اضطراب عظيم. وتأهب أقصى. وبالفعل صـدر التصـرح وأعلنت الأسـماء، بأصوات مرتفعـة مجهولة المصـدر، عد ذلك من اللحظات النادرة التى جرى ترديد ما حوته لحقب تالية. خاصة تدفق القوم عبر الدروب الصغيرة، الفاصلة، والأزقة المفضية، غير أنهم عند اقترابهم من القنطرة انفردوا. سادهم هدوء أجل، الطفل فى بداية وعيه يدرك أن ذهابه لن يكون إلا بمفـرده، مـا البـال بالكبـار المجـربين، لم يتخلف إلا من احتوته غفلة، وبعض المشرقيين الذين رفضوا الانصياع ولم يلبوا، قالوا إنهم لا يعرفون ما ينتظرهم مهما ازدهرت الوعود، من الأفـضل البـقـاء مع المألوف لهم، مـا اعـتـادوا عليـه، أغلقـوا البـاب وأحكمـوا الرتاج، هكذا وجـدهم القـائمـون، متـلاصـقين متـآزرين بالصمت الأبدى وانقطاع الأنفاس منهم.

يعـرف ذلك بالتـصـريح الأكـبـر، وكـثـيـرمن القـوم ينتظرون آملين الإعـلان عن مثيل لـه أو يقترب منه، يحدث ذلك أحيـانا، بعد ذهاب الجـمع مكث عـدد قليل لا يعـرف أحـد سـبب بقـائهم وعـدم لحـاق أى أضرار بهم مما يؤكد فكرة غامضة بوجود مندوبين للقائمين على شئون المدينة ثمة تمثيل لهم هنا متصل، مستمر، غير معلن عن أفراده، بقيت المبـانى شـبـه خـاليـة، رجل بمفـرده ينام فى بيت من عـدة طوابق،

الثمار تنضج وتتساقط حول الأشجار فلا تجد من يتناولها، دام الحال عشرة أقمار مكتملة، إلى أن توافد عدد لا بأس به من الشرق، إن توقع صدور إذن جماعى قائم باستمرار، حتى بدون ظواهر طبيعية نادرة، ويعد ذلك إحدى النقاط المقضة الباثة للأمل.

يمر بعض القائمين على مبان بعينها، بأيديهم أوراق ولفائف عتيقة يسألون النزلاء، يدونون المعلومات، يطلقون دخانا عطراً فى الزوايا، والأركان، يستقصون من كل مقيم عن اسمه ومدته والعلامات البادية. مثل هذه الإجراءات تثير الأمل عند القوم، خاصة استدعائهم، وتوجيه استفسارات عديدة إليهم أو تجريدهم من ملابسهم وفحص أبدانهم ورسم بعض العلامات الغامضة عليها بمواد خاصة لا تزول مع الاستحمام أو الحك، إن ذلك يؤجج التوقع، ولكن سواء اشتد الانتظار أو ركدت أحوال البعض فإن المدينة تظل ماثلة باستمرار تحوم حولها التهيؤات وتحاول اقتناص ملامحها الأذهان.

لم يرجع أحد ليخبر بما شاهده بعد عبور القنطرة، لاتوجد علامات محددة أو نصوص دالة، أو نماذج مجسمة أو لوحات، لكن هناك تصورات غير مكتملة بعضها متضارب، يمكن القول إن المدينة ماثلة فى ذهن كل من يسعى، ومن يدرى.. ربما عند الحيوان والطير وكل ما يزحف أو يتسلق أو يسبح؟!

الأمهات يحدثن أطفالهن عن المباهج المنتظرة، والملاعب الممتدة، والهواء الشفاف والخير الوفير. الرجال يخططون لنيل المباهج وإدراك المتع التى حالت قيود النزل وظروف نشأتهم دون إدراكها، كذلك النساء التائقات الراغبات.

ما من نزيل إلا ويتطلع ليلا أو نهاراً جهتها، وإن أغمض يحاول

استحضار ما سمعه، الأبصار لا تدرك منها أى هسيس أو ضوء منبعث من مبانيها وضفاف بحيراتها وقمم تلالها ومن داخل بيوتها، هناك العناصر مختلفة تماما ولا بد من عبور القنطرة ثم ولوج مجالاتها لاستيعاب موجوداتها بالحواس.

لم يرها أحد إلا عبر الخيال، ومن الأمور الثابتة، المفروغ منها تميز الإنسان على سائر المخلوقات بالخيال والأمل، أو هذا ما يبدو حتى الآن، المدينة تختلف عند النزلاء عن العوالم المرئية، أو الخفية تلك التى لا يتم السعى إليها بالأحلام والرؤى المؤاتية، المفاجئة، مابين اليقظة والنوم. من أجل تلك العوالم شيدت الأهرام، وجرى تدبير خبيئة العلوم كلها والمعارف المتوارثة والمحتملة، كذلك نقش الحروف على الأحجار أو حفرها، وحفر الأبواب المصمتة.

المدينة ليست احتمالا أو فرضية، إنها ماثلة قائمة عند الضفة الأخرى حتى وإن لم يلمح مخلوق قبسا منها، أو لم يرجع نفر ممن ذهبوا ليصفوا وليخبروا، يوميًا.. يرون المتجه إلى عبور القنطرة بعد صدور الإذن، بعضهم يجد من الوقت. ليلتف ويلوح مودعًا قبل غيابه. قبل مثوله أمام لجان الفحص، ثم قطع الممرات المؤدية، لا يستغرق الأمر وقتا طويلا، إن موضعها محدد، وثمة تصور سائد لأوصافها، ربما تختلف بعض التفاصيل من زمن إلى آخر، لكنها فى مجملها متشابهة.

إنها هناك، على الطرف الآخر فيما يلى القنطرة مباشرة، النهر العميق الذى يسمع تدفق موجه ولايراه أحد، فاصل جلى فارق حاد بين ضفتين وحالتين، بل.. عالمين متمايزين، متغايرين، متباعدين. بقدر تقاربهما. تتبع مراكز الفحص النهائى المدينة. بعد الانتهاء يسلك

الساعى خفيفًا وثابًا حتى لو كان واهنًا متقدما فى العمر، يتبع طريقًا عرضه متر واحد، ممتد، أملس كريستالى اللمعة، منبعث منه ضوء له خصوبة الفيروز والأماكن العميقة فى البحر. فى حالة حركة دائمة. فى اتجاه واحد لا غير إلى المدينة، لو توقف الإنسان سيفاجأ بتقدمه. لكن هذا نادر، فالموضع غريب، غير مألوف ودرجة الضوء المتزنة، الخالية تماما من الظلال لا تبث أى اطمئنان رغم الهدوء السارى، والصمت المهيمن. والآفاق المسدلة. ينشغل اللب عما عداه لهذا يكون التوق حافزًا على التقدم بغية الوصول ومعرفة المأوى.

بعض الغلاة المشرقيون يقولون إن هذا الممر الكريستالى متصل بأفكار بعض البشر الذين بلغوا درجة من شفافية الرؤية والقدرة على الإحاطة. بحيث يمكن لبعضهم القدوم مباشرة إليه بدون الانتظار فى النُزُل أو عبور القنطرة أو التعرض لتلك الأسئلة الغريبة فى مراكز الفحص، كيف؟

ما من تفاصيل دالة.

من سعى وعبر مباشرة.

كلهم يلزمون الصمت ولكنهم يعودون إلى ترديد ذلك بثقة. بقدر نعومة وسلاسة هذا الممر الزلق الناعم، المصاغ من الضوء تقريبا أسطوانى البنية مع التقدم فيه، بقدر خشونة ما يحفه، إنه يتخلل صخرًا صلدًا يميل إلى احمرار مغطى بنباتات عميقة الخضرة تنبت منه زهور عجيبة التكوين. تتخللها فسحات وفراغات كأنها غرف كونية، تتصل بالسماء أحيانًا وتارة تنفصل، يسمع خرير لكن لا يرى السارى ماء، وتتردد طقطقات حصى، أو تصادم أحجار لكن لا يعرف أحد أين؟

فجأة، بدون تمهيد، يبدو البناء الوردى.

درجة من اللون مبهرة، مهبلية، ضاجة بالحيوية، ربيعية زهزاهة، ملساء، لا يعرف الغرض من هذا التكوين، المحفور، الأشم، لكنه فى الواقع مجرد واجهة، إنه باب وهمى ضخم لكنه متقن التمويه، ثلاث درجات مؤدية إلى ما يشبه صالة قائمة على أربعة أعمدة متصلة الاستدارات، ملساء يعلو كل منها ما يشبه سعف نخيل، لكنه غير نسدل، إنما قائم إلى أعلى، مضموم، قرب النهاية تبدأ قاعدة عمود أنحل لكن أطول، ينتهى الارتفاع بأقواس ذات شرفات مزخرفة، أشكال بنفس اللون، تكوين محفور فى الصخرة الضخمة المواجهة لفتحة المضيق، لا . . ليس صخرة إنه تل متصل بتلال أخرى ، على ارتفاعات متساوية يمكن مشاهدة أبواب ونوافذ وفتحات مربعة أو مستطيلة أو دائرية، كلها مصمتة، لاتؤدى إلى شىء، تحفها كتابة غامضة حروفها غريبة. الصخور الحافة مجمع لألوان الطيف. تتنوع درجات الألوان إلى مالا نهاية، تتوالد من بعضها بحيث يستحيل إحصاؤها. هذه التلال الصخرية تبدو من أعلى لعينى الطائر كذرى أهرامات مدببة، المتطلع من أسفل يكتشف أنها مرشوقة بالأبواب .

أبواب مستطيلة مجردة من كل زخرف، بعضها من ضلفة واحدة والآخر من اثنتين، أبواب أخرى شبه مربعة أعلاها مقوس، على هيئة نصف دائرة، أبواب مقسمة إلى مربعات متساوية، مربع من خشب وآخر من خزف وثالث من زجاج ورابع من معدن رقيق، أبواب دائرية مغطاة بنحاس منقوش، أبواب ضخمة مهيبة، صادة، مقابضها على هيئة حيوانات تفغر أفواهها مبرزة أنيابها ولضخامتها وصعوبة فتحها وإغلاقها، يتخللها باب أصغر، يتسع لفرد واحد لاغير، أبواب مكسوة بنباتات خضراء، تترقرق حولها خيوط ماء مجهولة المنبع منعشة لمن يقترب .

أبواب ذكورية المطلع، أخرى أنثوية موحية بلذة ما، أبواب داعية أبواب منفرة، أبواب حاضة، صادة، مانعة أبواب رئاسية، قابعة، متوارية أبواب يمكن الإلمام بها، استيعابها من نظرة، أبواب ثرية التفاصيل، يصعب الإحاطة بها، أبواب متفائلة، أبواب تنبئ وتحذر.

أبواب متوالية. لكنها جميعا لايمكن اجتيازها لأنها لا تؤدى إلى شىء، مجرد إيماءات إلى أمور لا يمكن رصدها بالنظر، ومع ذلك يتعلق كل مار أو راء أو متطلع بباب معين يظل عالقا به مستعيدا له مهما قطع من مسافات أو تباعدت الأزمنة، يقال إنه بعد المرور بالأبواب يصبح الإنسان ذا صفات مغايرة، تنصع ذاكرته، وتصفو فكأنه قادم من جديد، أما ما كان عليه قبل عبوره القنطرة فيلوح، نائيًا، كأنه يخص شخصًا آخر. يبدو النُزُل بعيدًا قصيا كما كانت تلوح المدينة ـ للمقيمين فيه.

الفارق أن من ينتظر يمكنه تخيل المدينة ورسم حدودها وإقامة مبانيها بعينى عقله. أما الواصل هناك فلا يقدر على ذلك، كل ما يحيطه يستغرقه.

المؤكد فاعلية تلك الأبواب وتأثيراتها. إن مصير السالك وخياراته تتحدد وفقًا للباب الذى يراه أول مرة أو يتعلق به بصره. غير أن ثمة رؤى مستقرة، مجمع عليها منذ أزمنة بعيدة ترسم واقعًا متخيلاً مغايرًا، تلك الرؤى تضع أبعادًا دقيقة لكل ما يوجد على الضفة الأخرى، فالمسافة الفاصلة بين القنطرة ونقاط الفحص قدرها سبعون خطوة، وتلك الواقعة بين المراكز الأمامية وبداية الممر الكريستالى طولها مائة وأربعون، أما امتداد الممر نفسه فيختلف من شخص إلى آخر، وهنا أمر شديد الغموض يصعب الخوض فيه، المدينة يقطعها

الماشى على قدميه إذا بدأ ولم يتوقف ولم يغمض له جفن فى أربعة أعوام قمرية، عرضها مثل طولها، تحيطها تلال صخرية يصعب النفاذ منها، ثمة منفذ واحد فقط مؤد لا يرجع منه أحد، الخروج من أبواب أخرى يحاط الواصل بها علماً بعد بدء إقامته. ثمة رؤية أخرى راسخة تقول إنها ليست مدينة واحدة، لكنها عدة مدن متصلة بطرق وثيرة، لا يشعر معها المسافر أنه انتقل من موضع إلى آخر. المسافات فى مجملها تحتاج إلى أربعين سنة قمرية لقطعها مع المشى المتواصل، واختلف آخرون فقالوا بانعزال المناطق عن بعضها وصعوبة الفيافى المؤدية، وغرابة بعضها حيث تلوح للساعين أحياناً ثلاث شموس. الفراغ هناك رهيف الشفافية، المشى كأنه سباحة فى الضوء، لا يحتاج الإنسان إلى النطق لذلك يجرى التخاطب بالنظر.

هل يوجد أدلاء؟

يقطع المشرقيون بعدم وجودهم، ويقولون إن المعارف تفد مباشرة إلى الأفئدة فيعرف كل ساع طريقه بغير دليل، إن الأصل فى الهجرة إلى المدينة الاكتفاء وإشباع الحاجات بغير تذلل أو قهر أيا كان مصدره والجهل بالقصد يعنى الحاجة، لأنه يستلزم السؤال، كيف يستقيم ذلك فى المدينة؟

غير أن الرؤى السائغة تؤكد وجود حراس وأدلاء، يبدون جبابرة، غير أنهم لطاف خفاف، يثيرون الأمل ويبثون الطمأنينة، هذا أهم ما يحتاج إليه الوافد، الغريب أنهم يتقدمونه إلى خيمة رسم على جوانبها بروج السماء كلها وطبقات الأرض التحتية. يتوسطها نموذج فريد بالغ الدقة للمدينة كلها بحيث يمكن بالنظر تحديد الموضع الذى سيقيم به، ما من أحد لديه فكرة مسبقة لكن الطرق تمضى بهم إلى حيث المأوى.

الليلة الأولى ذات أهمية، ومهما بلغ الإعجاب بالمقر الجديد وما يحوى من فراش وثير وألوان تتفق مع هوى الواصل الساعى، فإن البداية أيا كانت النعمة المنتظرة باعثة على القبض نتيجة المقارنة وافتقاد ما كان والبعد عن المألوفات. مهما بلغ الانبهار فإن ألما يعكمه، من هنا جرى تلقين الذاهبين بعبارات مطمئنة، جالبة للأمن والرضا بالحال الجديدة، يجرى الهمس بها عند آخر حدود النُزُل. إنها كلمات قليلة مضمرة، لكنها واقية ،المشرقيون يرفضون الإصغاء إليها يعبرون ولا ينتظرون، يقولون إن أمتع الليالى تلك التى يخشاها الجميع، الأولى، غير صحيح أن الواصل يقضيها بمفرده، إذا كان ذكراً يفاجأ بأنثى تلبى كل ما يحتاج إليه، كأنها خرجت من مخيلته أو صيغت كما يهوى، الأمر عينه بالنسبة للإناث. ما من قادم جديد يمضى أول ليلة بمفرده يمكنه تحديد ما يراه بمجرد النظر، لذلك يقول غلاة المشارقة إن المدينة ذات صور وهيئات متغيرة باستمرار، ليس صحيحًا أن مساحتها محددة وأن قطعها يمكن أن يتم بالخطى أو طبقا لما يعهده الخلق من قياسات شتى ليس صحيحًا أن مساحتها محددة إنما توجد أينما اتجه البصر وتمثلت المخيلة، هنا لابد من توضيح، إذ لايعنى قولهم هذا أى تماس مع اجتهادات طويل الصمت، إذ قال بإمكانية استحضار المدينة على قدر المجاهدة بدون حاجة إلى عبور قنطرة أو الامتثال لشروط الإقامة بالنُزُل فى أقوال الغلاة ما يؤكد إمكانية استحضار المدينة بمجرد ورود الخاطرة وتردد الشهيق أو الزفير، يعنى ذلك أن المدن بعدد أنفاس البشر، فيمكن للإنسان أن يرى بالمخيلة ما يريد من نواح أو بنايات أو حدائق أو بيوت، بل إنه يأوى إلى منزل من طابقين تحيطه أشجار وأحواض زهور، مطل على بحيرة رقراقة، أثناء تقلبه أو إغماضه يتخيل وضعًا مختلفا، منظراً مغايراً، تلالا متعاقبة بدلا من المياه

الهادئة، يتحقق له ذلك إذا كان مطلاً على بحر وخطرت له الصحراء فإن بصره يسرح فوق امتداداتها على الفور، يتبدل كل شىء كما يهوى ويشاء.

كذلك النساء يردن على الرجال طبقًا للصورة الماثلة فى الأذهان، من هنا لا يجد إنسان ما يمكن أن ينفره من الآخر ذكرًا أو أنثى، كل لما يهوى أما تلك القواعد السارية على أهل النزل فلا موضع لها هنا، كذلك تلك الأوضاع الغبية التى يتحدث عنها الوافدون والمستقرة فى أوطانهم السابقة. هناك يجرى قمع الرغبات وتدثير الشهوات، وهذا مضاد للبنية الحيوية، ومعاكس لندرة الحياة، وقصر مدتها المتاحة للنوع البشرى.

هنا يطرح بعض المشارقة تساؤلا: ماذا يدفع إنسان ما إلى مفارقة المصدر والمنشأ؟ ماذا يحض على المغادرة والسعى فى البيداء أو قطع مسافات إلى مناطق مجهولة؟

الإجابة ميسورة، سريعة، إنها تتلخص فى السعى إلى الأفضل، هنا يختلف القوم، أحيانًا يصغى نفر من المقيمين إلى تفاصيل يدلى بها القادمون لتوهم يجدون فيها آمالاً مرجوة وأسبابًا محفزة مع أنها عين الأسباب التى حضت الآخرين على المفارقة.

الأمر نسبى. الأمر نسبى.

هنا تجزم الرؤى السائدة وتجمع على نسبية الأمور كلها عدا المدينة، باستثناء ما يتعلق بها، ليزعم الغلاة، ليشطح المشارقة، ليضل من يرغب، لكن الحقائق الأزلية لا تتبدل، أهمها، فى مطلعها، هل كل المعضلات هناك. على الضفة الأخرى فرص أفضل متاحة لكل ساع لن

تتيح تعويض ما فات أو إصلاح ما تلف، بل البدء من جديد فى ظروف مغايرة تمامًا، ربما تختلف الرؤى، أو التفاصيل، لكن ثمة اتفاقًا بل إجماعًا على الفرص المنتظرة، لهذا يأمل الجميع ويبذلون الجهد ويصبرون للعبور إلى الضفة الأخرى، بالطبع لا يصل إلى النُزُل كل من يشرع أو يقطع معظم الطريق، بعضهم يضل ويذوى، أيا كان الحال فإن الفرصة المتاحة لكل إنسان مغرية بالمحاولة إذا التزم وسعى، غير أن هذا يؤدى إلى الامتثال بدرجات متفاوتة، وما أقصر عمر الإنسان. سواء سعى هناك أوعلى الدروب المؤدية أو أمضى عمره منتظرًا فى النُزُل ينقل رمال الشرق إلى الغرب أو يعد الأحجار أو يجدول نجوم المجرة اللماعة.

الدورات محددة. سواء كانت شمسية أم قمرية. أم نجمية، فرصة وجود الإنسان محدودة، كذا سائر المخلوقات من حيوان ونبات، بعضها لا يبقى إلا مقدار ساعة أو اثنتين، المسافة جد موجزة مدغمة فلماذا إهدارها؟

يقول المغاربة وهم الأقرب إلى القنطرة إن المحبطات أكثر تفسد الطاقات وتحيد بالوجهات عن غاياتها، كثيرون بلا حصر تتم وفادتهم إلى الكون المألوف ويغيبون إلى أبد أبيد، فكأنهم لم يصلوا ولم يقيموا لصعوبة إدراكهم الأولويات من قوت ضرورى وحب لازم ورقدة هانئة لذلك كان السعى لإدراك المدينة.

ثمة أمل كامن فى الصدور، يتفاوت من شاب إلى كهل، إن المسموح لهم بالعبور وبدء الإقامة هناك يعدون أفضل حظا إذا كانوا من الشباب، الفرصة أمامهم أفضل لترتيب أحوالهم وشئونهم باستثناء المفاجآت وبغتات المجهول، إذ لا يمكن لامرئ مهما أوتى من قدرة

وطاقة سواء كان من النزلاء أو القائمين على تدبير الأوضاع أن يتنبأ بموضع قدمه عند الخطوة التالية، أو توالى دقات القلب أو تردد الأنفاس، يقول الغلاة إن مثل ذلك غير معهود هناك، إذ يعرف الوالدين عدد النبضات ومرات الشهيق والزفير عند مجىء مولودهما، كل أمر يدوَّن فإذا شاء أن يعرف أحيط علمًا مع بلوغ مداركه الحد الذى يسمح، وإذا فضل البقاء جاهلاً حجبوا عنه، ويحدث ذلك كثيرا. الطريف أن سؤالا فى مراكز الفحص يوجه إلى العابرين مضمونه، هل يرغب الساعى فى الاطلاع على المدة المتبقية على رواج المشيئة ونفاد الطاقة. معظمهم يفضلون الجهل عن العلم، ربما يرجع ذلك إلى المباغتة أيضًا، إذ يعود معظمهم إلى الاستفسار بغية الإلمام، ويجدون الجواب، أو المبادئ التى تحكم المدينة إتاحة الفرصة باستمرار، خاصة الجواب بقدر تهيؤ المستفسر لتمثل الحقائق.

تجمع الرؤى العامة، الموسومة بالاعتدال، أن المدينة تتكون من أحياء، مناطق لكل منها اكتفاء، متصلة بطرق ثابتة ومتحركة ويمكن للساعى أن يقيم حيثما رغب، لا يمكن القول إن هذا البيت ملك لذاك الشخص، لا يتبع المكان الإنسان إلا مقدار إقامته، فإذا رحل عنه لا يحتاج إلى نقل متاع أوتغيير لوازم، حيثما يحل يجد ما يرغب ولذلك تبدو الأبواب، كها مؤدية إلى اللاشىء. أما الفراغات فيتم العبور إليها بدون اجتياز حواجز أو طبقات.

الصلة مرهونة. موقوتة بما هو قائم. عند الانتقال من موضع إلى آخر لا يحتاج أحد إلى غرارة أو مخلاة أو حقيبة، إلى سائر تلك الأمور المعروفة فى النزل، لا معنى لهذا كله فى المدينة، كل مايحتاج إليه الإنسان ميسور، الطعام وفير، لا فائدة من تخزينه لأنه متاح أينما توجه البصر، فى كل الأشكال التى يتمناها المرء أيا كان منشؤه. هذا يعنى أن

الأصناف موازية لما يوجد فى النزل، لكن المؤكد أن ثمة أطباقًا خاصة مذاقها مرتبط بالهواء هناك، بالفراغات بالضوء، بالنباتات التى لا يعرف مثلها والطيور الصداحة، لكن كل إنسان يصحب معه ما اعتاد عليه، وما ارتبط به فى طفولته عامة وصباه خاصة، للمدينة خصائصها فاللحوم تنبت كالفاكهة والخضروات، لا يذبح أى كائن ليقتات به آخر لا يسفك دم أبدا، كل شيء ينبت، ثمار لها طعم الغزلان، وأشجار تطرح ما يشبه السمك، كما يشاء المرء يجد، وكما تهوى النفس تلقى، صنابير اللبن والشاى والقهوة والقرفة والنعناع والحلبة والأعشاب الملطفة والليمون القابض والليمون الحامض والزهور المجففة تصب بلا انقطاع فى قنوات صغيرة يفرشها حصى يكتنز ألوانه الخاصة فلا يراها إلا المتمعن، المجتهد، أما أنواع النبيذ فجميعها معتقة مطهرة، تفوق القدرة على الحصر، يختلف مذاقها من محلة إلى أخرى ومن ساعة إلى ساعة.

عند الوصول ينهم الجميع، ينكبون ويهرعون ويعبون عبًا، بينما يتطلع المعتقون، القدامى إليهم بهدوء باسمين، حتى إذا عاينوا الوفرة هدأت أحوالهم. وسرت الطمأنينة إليهم، لا يشغل الإنسان هناك نفسه بأمر طعامه أو ما يتعلق بحواسه أو حاجاته، تلك بديهيات مفروغ منها، تماما كالهواء فى النُزُل وشفافية الضوء فى النهارات الصحوة، لا يقع كل امرئ إلا على ما يفيد ويلبى، لكن للغلاة تفسيراً آخر، إذ يقولون بانتفاء الأشياء المعاينة إنما يكتفى بحضورها. هناك التدبير مغاير، شرحه صعب، لا يعرف أحد تفسيراً له، مثلا.. إذا اشتهى أحدهم لحمًا مشويًا لقى مذاقه ونعم برائحته. واكتفى منه بدون قضم أو مضغ أو بلع.

يكتفى استدعاء المسلوق أو المشموم أو المقلى بالمخيلة، كذلك

البيوت، فإذا اقتصرت الرغبة على حجرة واحدة ظهرت. وإذا خطر للقاطن شرفة مطلة على بحر، امتدت وتلاطم الموج فى الحال، وإذا شاء سقفا بدون عمد لقيه ونام تحته آمنا، إذا رغب فى درج من رخام أو فضة أو من ضوء ناعم، هامس، انتصب وامتد على الفور، يلقى كل واصل ما يتمناه طبقا لقوة مخيلته وقدرتها، وما من حد، يجول فى بيته فيتسع بقدر ما يريد، ويرى ما يرغب.

يقول الغلاة المشرقيون إنها مدن متداخلة، متوازية. يمتد بعضها فى بعض وليست مدينة واحدة تتكون من مناطق متصلة أو متوازية، وما من ملامح أو معالم، إنما هى صور شتى بعدد الأنفاس والخطرات والرؤى والالتفاتات والهمسات.

الوجود هناك مغاير لما اعتاده الخلق وجبلوا عليه، هناك يتجدد التحقق كل لحظة، مع كل خطوة، مع التوق، مع الشوق، مع السعى، المهم.. لا ينقضى وقت مخلوق إلا وعنده رضا، وجواه مهدهد. طبعا مع مواصلة السعى وإبداء الهمة.

هناك يدرك الجميع حماقات الإقامة فى النُزُل والتضييق على البعض، ومنعهم من إتيان هذا الفعل أو ذاك وتكديس البعض للمأكول والمعدن النفيس والمصنوع المجهز مع انتفاء الحاجة إليه وتجريد الكافة من أدق أغراضهم عند القنطرة. على الضفة الأخرى غاية ومنتهى وروح وريحان، حسن استقبال وسرعة توافق مع تدبير سبل التروى والمعاش حتى تحين لحظة الاستدعاء والعبور إلى المنظومة المرجوة والإطار الضام.

غير أن النزلاء المقيمين بجوار المربع لا يقولون بنهاية المطاف عند الضفة الأخرى، ليست المدينة إلا جسرا مؤديا إلى مدن أخرى منها

المعلق فى الفراغات العلا. يبدو مماثلا للهودج الذى شيده ملك قديم لحبيبته ليكسب رضاها ولم يفلح. مدن أخرى فى الأكوان الموازية، لا يكون العبور من هنا إلى هناك أو من هناك إلى هناك إلا من خلال أحد الأبواب الوهمية الصحيحة المستدل عليها، إذا عرف الإنسان بابه فيمكنه الولوج والانتقال من كون إلى كون، المدينة مجرد علامة على طريق مؤدية، نقطة على درب طويل مفض.

يقول هؤلاء لو أن المدينة نهاية مطاف لتبدلت أحوال المقيمين فيها والساعين إليها، لكن الأمر مراحل، إن فى الحضور المتحقق المعاين أو عند الأفق غير المدرك، إنما الأنفاس خطوات على مدرج ينتهى بالغاية الكبرى.

ما هى الغاية العظمى؟ ماذا تعنى الغاية الكبرى ؟

ما من جواب، إنما يكتفون بإشارة مبهمة.

معظم النزلاء لديهم رؤى مدونة متداولة يصف بعضها الزهور التى تنبت من الهمسات. والعطور المنبعثة من النظرات، ودرجة الضوء الواحدة. الثابتة كريستالية الإشعاع والطلة، لازوردية اللون، ثمة نصائح يلقنها الآباء للأبناء ويوصى بها الإخوة بعضهم بعضًا لالتزامها عند عبور تلك اللحيظات الواقعة ما بين الشهادة والغيب، ما بين النوم والإفاقة، الإغفاءة واليقظة المشروطة، يشير البعض إلى عبارات مدونة، منقوشة على الأبواب الوهمية، يكفى المرء أن يستعيد رسومها ليس مهمًا إدراك معناها. لو فض مغاليقها يمكنه عندئذ الاجتياز، إلى المدينة.

لا جواب.

إلى المدن المتداخلة؟

ما من إيضاح.

غير أن فريقا من المغاربة يزعمون أنه فى لحظة معينة تحل مرة كل دورة قمرية وتستغرق دقائق معدودات، يمكن للصابر، المنتظر المدقق، المتطلع إلى الضفة الأخرى أن يرى معلمًا أو اثنين من هناك. يؤكد بعضهم أنه شاهد وألم بمساحات الخضرة الكثيفة، ثمة بنايات مفردة، تقوم فى الخلاءات المفضية، لكل منها باب لا يؤدى إلى شىء. أبواب يؤدى كل منها إلى بعضها، هنا يتفق المشارقة مع الفرق الأخرى فى كمون جوهر الأمر كله عبر تلك الأبواب أينما وجدت، فى المصادر البعيدة، فى النزل هناك، لقد بشر بها «مشاهد المعنى»، نشرها هنا وعبر الآفاق وفارق بدون تفسير مطمئن أو إيضاح دال.

يزعم البعض أن القوائم محفوظة فى مبنى الرياح، رآه عدد منهم خلال تلك اللحيظات النادرة يضم منطلقات الهبوب كافة، شرقية وغربية، شمالية وجنوبية. صبا ودبور، خماسين أو موسمية، رياح شمسية أو قمرية. من تلك العمارة تبدأ النسمات والأعاصير.

المبنى كما تخيله الفرعون المتسائل، لكن ما أتيح لعصره من إمكانيات لم يساعده فى بلوغه وتشييده، لكم ردد «مشاهد المعنى» هذا الاستفسار المضنى. إلى أين تمضى الرياح؟ ما نقطه البداية وأين النهاية؟ متى تستنفد طاقتها على الاندفاع وتركن، هذه الطاقة أصلية أم مضافة؟

ما من إجابات قاطعة قط.

مبنى آخر يبدو واضحا، يعكس سطحه تلألؤات معدنية، أو هكذا كور من بعدها القصى، يقول المغاربة إنه سكن الحروف، داخله تسعى سائر الأبجديات، لها حيواتها ومعاشاتها وتحولاتها وما تحتوى عليه من

معان. تتزاوج وتتناكح فيما بينها وتتوالد بنظم وترتيب، تأوى الألفاظ مفككة، مبعثرة وتخرج حاوية للمعانى.

على ذات الاتجاه صوب الغرب، الحقيقة أن المدينة لا تحوى إلا اتجاها واحدا إنه الغرب، يحوى سائر الجهات أصلية وفرعية، فأينما ولى الإنسان وجهه هناك ليس ثمة وجهة أخرى، غرب دائم تبدو هذه البناية التى توصف بأنها مجمع الأصوات، إنها معلقة، وصعب الاستدلال على أساساتها الممتدة أو عروقها الحافظة، إليها يمضى كل صوت، وكل صدى، حديث أو همسة أو نداء أو خطبة أو نغم سار أو غواث مستنجد، لذلك يقول النزلاء المغاربة إن كل إنسان بوسعه الإصغاء إلى كل صوت عزيز، مفتقد، بل يمكن استعادة بوح الأجداد القدامى، كل ما صدر، لفظ أو شهقات أو همسات.

أما عمارة الألوان فتشى بوجودها ولا تصرح، إنها غير مجسمة لا يمكن القول إنها تقوم هنا أو هناك. لأن تضام الجهات فى جهة واحدة يلغى المواضع كلها ويذريها فى الوقت عينه. ربما يبدو ذلك صعبًا فى البداية لكن بطول المداومة يمكن الاستيعاب.

لكل لون من الألوان الأساسية طابق مفرد. داخله تتنوع الدرجات إلى ما لا يمكن حصره، الأحمر، الأزرق، الأصفر، أما الأبيض والأسود فكلاهما مجمع ومفترق. من هذا التكوين تنبع ألوان الطيف كافة، وظلال الحالات من ضيق وفرح وبسط وغضب وألوان دالة على كل البرابى المخفية، المموهة، القائم عليها حروف خاصة، من يعرفها يفوت إلى دروبها ومتاهاتها، ويدرك كنوزها.

ثمة بنايات أخرى يمكن مع التدقيق إدراكها، كل منها حضور مفرد، عمارة الريح التى تساءل عنها الفرعون العتيق وتوارث الأحفاد محاولة

الوصول إليها، ليست هى. فقط، إنما عمارة للحنين وأخرى للشجن وثالثة للفرح ورابعة لما يصعب استيعابه.

ثمة بناء يظهر فى عدة مواضع متزامنة، لا ينسب إليه شىء، ولا يمكن تعيين وظيفة محددة له، يذكر بعض القادمين من هناك بقصر البارون، والبرج المائل، والأهرام القائمة على حدود الصحارى، والقباب المعلقة، والجسور المستسلمة ،الواصلة، والدرجات الصاعدة النازلة، والواجهات الدالة، المموهة، والأبواب غير المؤدية. المقيمون قرب المربع الفارغ يقولون إن ما يردده المغاربة أو المشارقة مجرد خيالات ورؤى المقصود منها إخفاء الحقائق، والتغلب على ما يسببه الانتظار من ملل واستفسارات لا أجوبة لها، كل ما يتردد إنما وسائل شتى لترطيب التوق، لا يعرف أحد من يبث هذا كله؟ ما مصدره؟

من النُزُل أم من هناك ؟

ما بين هذا وذاك تتردد شائعات عن قوائم ستعلن قريبًا تسمح بعبور نزلاء، كثر، لكن واحدا بعد الآخر كالمتبع من قديم. أو ضبط عدد ممن حاولوا التسلل بعيدا عن القنطرة، مثل هؤلاء لا يمكن الاستدلال عليهم، أحيانا يظهر أحدهم، رجل أو أنثى، يزعق زعقات، يلوح بإشارات، يندفع تجاه أحد الأبواب المصمتة المترقبة الحاضة، الصادة، الجلية، الخفية.

مصطلح

كتـابـة



رغم ما يبدو الأمر عليه الآن من يسر وبساطة، فلن تقدر مخيلة إنسانية على استعادة أو تصور ما تطلبه ذلك، إذا نظرنا إلى الزمن فلا يمكن قياسه إلا بالقرون التى نعرفها الآن، والقياسات التى نجهلها لبعد العهد بها وانقضاء أوانها، أما إذا أخذنا الجهد بالاعتبار فبالتأكيد استغرق أجيالا وآمادا لا يمكن حصرها، ولايوجد تدوين يلمح من قريب أو بعيد، إذ. . كيف نجد المعاناة فى البحث عن التدوين ذاته فى تدوين؟

الأمر دقيق، يشبه إلى حد كبير المراحل السابقة وتلك اللاحقة على التوصل إلى الباب الوهمى، كيف جرى البحث؟ كيف تم التوصل إلى الجوهر؟ كيف جرى إخراجه إلى حيز المحسوس؟ باب محفور فى حجر. على مواد مختلفة، تم فى الفراغات المفتوحة. . ثم حيث لا يمكن الرؤية أو التعيين. نعنى بذلك ونشير إلى كتاب البوابات الذى يعرِّف الموتى الراحلون والقاطعون المسافات اللانهائية فى العالم الآخر بالساعات هناك حيث يفصل كل منها عن الأخرى بوابة، لايمكن اجتيازها إلا بما يتعلق بها، وهذا لايتم إلا بعد شرح وتلقين فصلناه فى مخطط نأمل فى إخراجه يوما إلى حيز الوجود بنفس العنوان. . «كتاب البوابات»، لعل وعسى.

الأمر هنا أدق وأعسر، أدق لصعوبته، وأصعب لاختفائه وانتهاء مثوله، إذ تحول من قضية أو مشكلة إلى حقيقة يومية يتعامل بها معها كل عاقل. . مدرك. . قادر على تفسير الحرف من الحرف. .

بدأ قبل الأسرات بعصور شتى . . بعد تبلور الإشارات الموضحة وإتقان الإنسان على تبادلها مع نوعه . . واختزال الموجودات فى كل منها بدءا من النيل السارى إلى الصخور المشرقة والزهور النابتة، والنجوم الماثلة، الهادية، حتى الرياح الهبوب واتجاهاتها وإمكانية الغرس والحصاد.

لا يمكن تحديد شخص معين، فلم يكن للبشر أسماء بعد، لكن الأمر بدأ عندما تطلع بعض من القوم إلى الأماكن الحاوية، بدءا من الأفق المائل عن مركز السماء البادية، حتى الكهوف الطبيعية أو المنحوتة فى الجبال الشرقية النائية عن أخطار الفيضان، ويمكن رؤية بقاياها فى المرتفعات المشرفة على النهر بدءا من إقليم أسيوط وحتى أسوان جنوبًا، إنها هناك لا تزال . .

بدأ الأمر هكذا . .

إذا كانت السماء مأوى النجوم الثابتة، والفضاءات مأوى الرياح العابرة، القادمة من نقطة إلى نقطة. وكذلك للإنسان وللحيوان وللأسماك أيضًا فى قاع النهر.

كل ظاهر، وكل خفى له مأواه، والمثوى أو المقر يعنى عمارة، حتى وإن تعلق الأمر بجسم الإنسان، فالرحم الأنثوى قبو بيضاوى الشكل ملخص للكون الظاهر، إذ أثبت القوم فى الحقب التالية هيئة الكون البيضاوية وليست الدائرية.

كل مأوى عمارة، ولكل عنصر بناء، إذن . . لماذا لايتجه الجهد لإيجاد العمارة التى يمكن أن تسكن فيها المعانى والإشارات؟

هكذا جرى التوصل إلى الحروف.

كل حرف بناء . . يمكن إدراك ما فيه إذا استقل بنفسه عن غيره، ولكنه إدراك محدود . . إنما تكتمل اعتباريته إذ يتصل بغيره، من جنسه، تماما كأجزاء البناء . . ما قيمة الشرفة إذا وجدت بمفردها . منفصلة عما يلزم لها وتلزم له؟ وكيف يقوم السقف إذا لم تحمله الجدران؟

هكذا الحرف، إذ يتصل هذا بذاك يسفر المعنى عن بعض مكنونه . الإشارات متضمنة، والمستويات الخفية ماثلة لكنها فى حاجة إلى إتقان ودربة وسهولة عند التداول .

فى البدء كان المطلوب إقامة عمارة للمعانى التى جرى تحديدها فى مبان محدودة، تؤطر ولا تحصر . . من هنا جاء التدوين .

بدأ الأمر بالحفر . وأيضًا . . بخط الأصابع لأشكال مهدت لظهور الحروف، على الرمال، على التراب، لكن الرياح المنفلتة، الماضية من أين إلى أين لاتبقى على شىء . وكل المحاولات المتوارثة عجزت عن أسرها أو توجيه مساراتها، وما يقال عن أسرة تعيش فى أخميم كثير، نذر أفرادها أنفسهم لتحقيق الإجابه على الفرعون المتسائل، ولهم من يرجعون إليه، وعندهم تدوين، ويثقون من تحقق ما يسعون إليه منذ آلاف السنين، وما توصلوا إليه مودع فى الحروف، أما ما يقال عن وجود عمارة للرياح فى الضفة الأخرى بعد النُزُل فلا يثق به أحد لسبب بسيط، وهو عدم عودة أى عابر ليدلى بشهادة عيان عما رأى وخبر .

اتقاء للتبديد والتذرية، ودرءا لعوامل المحو إلى حين جرى الحفر على العظام المجففة، والجلود المقددة، وكان النقش على الجدران، خاصة على، أو حول، البوابات الوهمية، لايكتمل حضورها إلا

بكتابة، وذلك لعبور المعانى خلالها من وقت إلى وقت ومن دهر إلى دهر، لذلك جرى التفكير خلال حقبة لايمكن تعيينها بدقة فى تشييد عمارة متنقلة يمكن تسكين المعانى بها، وحملها من مكان إلى آخر، هذا أمر قديم عتيق، كان من نتائجه صياغة الشكل الأمثل للعمارة التى يمكن للألفاظ أن تسكنها كذلك المعانى، والانتقال بها من موضع إلى موضع، وحملها بطرق شتى.. على جناح الطير لو اقتضى الأمر، من هنا جاء الحرف، وأوراق البردى، الشكل المؤسس.. الأكثر شيوعا للتشييد الضام، المؤدى إلى الرقائق المعدنية.

الحروف توالج، تماما مثل العمارة، الحرف فى الحرف ليلد المعنى، الحرف ظاهر والمعنى غائب والدلالة حافظة، لذلك كان الظهور ملازما للغياب وإلا استحالت الكينونة.

حاولنا فى هذا التدوين بالتلميح والتصريح أحيانا. فيما أوردناه من ذكر لحكايات متناثرة، أو شرح لبعض مصطلحات المعمار. وبث لرسائل خفية يصعب التصريح بمضامينها لصعوبة العوامل المدبرة للوقت، لعلها تصل.

أما إذا تغير الحال، وتوالت الأنفاس بمساعدة القلب الواهن فسنشرح ما لم نعرض له فى هذا التدوين ومنه الكثير.

ذلك أن الوضع كله مرهون بالخفقة إثر الخفقة، وما أمتن الصلة بين النبضة والحرف، كليهما مؤد، وكليهما دفعة، أى حركة، أى حياة، أى عمارة، فكل بناء حياة حتى وإن «هُجر» أو بدا ساكنا للناظر المتعجل.

بعض المصطلحات تجاوزنا عنه، إذ يقتضى غوصا أعمق،

وتفصيلات أشمل، وبعض الحكايات حجبناها خشية عوامل وحرصا على عناصر، هكذا يقترن في محاولتنا تلك الحضور والغياب، لعلنا نتم ما بدأناه يوما نتمنى بلوغه ورؤية طلوع شمسه، وندرك عنده الأسباب.

جمال الغيطاني

تاسع مايو ١٩٩٥

عاشر يوليو ١٩٩٧

القاهرة



صدر للكاتب

١ ـ أوراق شاب عاش منذ ألف عام		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٦٩	
الطبعة الخامسة	١٩٨٧	(صدر في بغداد ـ بيروت ـ القدس المحتلة عن دار صلاح الدين)
الطبعة السادسة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢ ـ أرض.. أرض		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٢	القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب
٣ ـ الزويل		قصة طويلة
الطبعة الأولى	١٩٧٤	بغداد ـ وزارة الإعلام
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٨٧	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الرابعة	٢٠٠٦	القاهرة ـ دار الشروق
الطبعة الخامسة	٢٠٠٧	القاهرة ـ دار الشروق
الطبعة السادسة	٢٠٠٨	القاهرة ـ دار الشروق
٤ ـ الزينى بركات		رواية طويلة
الطبعة الأولى	١٩٧٤	دمشق ـ وزارة الثقافة
الطبعة الثانية	١٩٧٥	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثالثة	١٩٨٥	القاهرة ـ دار المستقبل العربى
الطبعة الرابعة	١٩٨٨	القاهرة ـ كتاب اليوم ـ مؤسسة أخبار اليوم
الطبعة الخامسة	١٩٨٩	القاهرة ـ دار الشروق
الطبعة السادسة	١٩٩١	تونس ـ دار الجنوب
الطبعة السابعة	١٩٩١	بغداد ـ دار الشئون الثقافية
الطبعة الثامنة	٢٠٠٥	القاهرة ـ دار الشروق

٥ ـ وقائع حارة الزعفرانى		رواية طويلة
الطبعة الأولى	١٩٧٦	القاهرة ـ دار الثقافية الجديدة
الطبعة الثانية	١٩٨٦	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثالثة	١٩٨٧	بغداد ـ دائرة الشئون الثقافية
الطبعة الرابعة	١٩٩١	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الخامسة	٢٠٠٦	دار الحوار اللاذقية
الطبعة السادسة	٢٠٠٨	القاهرة ـ دار الشروق
٦ ـ الحصار من ثلاث جهات		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٥	دمشق ـ اتحاد الكتاب العرب
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
٧ ـ حكايات الغريب		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٦	القاهرة ـ كتاب مجلة الإذاعة
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
٨ ـ ذكر ما جرى		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٨	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
٩ ـ الرفـــــاعى		روايـــة
الطبعة الأولى	١٩٧٨	القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
١٠ ـ خطط الغيطانى		روايـــة
الطبعة الأولى	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثانية	١٩٩١	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثالثة	٢٠٠٨	القاهرة ـ دار الشروق

١١ـ كتاب التجليات (السفر الأول) روايــــة

١٩٨٣ القاهرة ـ دار المستقبل العربى

بيروت ـ دار الوحدة العربية

١٢ـ كتاب التجليات (السفر الثانى) روايــــة

١٩٨٥ القاهرة ـ دار المستقبل العربى

١٣ـ كتاب التجليات (السفر الثالث) روايــــة

١٩٨٧ القاهرة ـ دار المستقبل العربى

١٤ـ كتاب التجليات: الأسفار الثلاثة (مجلد)

الطبعة الأولى ١٩٩٠ القاهرة ـ دار الشروق

الطبعة الثانية ٢٠٠٦ القاهرة ـ دار الشروق

الطبعة الثالثة ٢٠٠٧ القاهرة ـ دار الشروق

١٥ـ إتحاف الزمان بحكاية جلبى السلطان مجموعة قصصية

الطبعة الأولى ١٩٨٥ القاهرة ـ دار المستقبل العربى

الطبعة الثانية ١٩٩٠ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب

١٦ـ رسالة فى الصبابة والوجد روايــة

الطبعة الأولى ١٩٨٧ القاهرة ـ روايات الهلال

الطبعة الثانية ١٩٩٠ القاهرة ـ دار الشروق

الطبعة الثالثة ٢٠٠٧ القاهرة ـ دار الشروق

١٧ـ رسالة البصائر فى المصائر روايــة

الطبعة الأولى ١٩٨٨ القاهرة ـ روايات الهلال

الطبعة الثانية ١٩٩٠ القاهرة ـ مكتبة مدبولى

الطبعة الثالثة ٢٠٠٨ القاهرة ـ دار الشروق

١٨ـ شطح المدينة روايــة

الطبعة الأولى ١٩٩٠ القاهرة ـ روايات الهلال

الطبعة الثانية ١٩٩١ القاهرة ـ دار الشروق

الطبعة الثالثة ٢٠٠٧ القاهرة ـ دار الشروق

١٩ـ هاتف المغيب — روايـة

الطبعة الأولى ١٩٩٢ القاهرة ـ روايات الهلال

الطبعة الثانية ٢٠٠٨ القاهرة ـ دار الشروق

٢٠ ـ ثمار الوقت — مجموعة قصصية

الطبعة الأولى ١٩٨٩ القاهرة ـ كتاب اليوم

الطبعة الثانية ١٩٩٠ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب

٢١ ـ أسفار المشتاق — أدب رحلات

١٩٩٢ القاهرة ـ دار سعاد الصباح

٢٢ ـ منتصف ليل الغربة — مختارات قصصية

مختارات فصول ١٩٨٤ القاهرة ـ الهيئة المصرية للكتاب

٢٣ ـ أحراش المدينة — مختارات قصصية

كتاب اليوم ١٩٨٥ القاهرة ـ مؤسسة أخبار اليوم

٢٤ ـ المصـريون والحرب من صـدمة يونيـو إلى يقظة أكتوبر — دراسات ومشاهدات

كتاب روز اليوسف ١٩٧٤ القاهرة ـ مؤسسة روز اليوسف

٢٥ ـ حراس البوابة الشرقية (الجيش العراقى فى حرب أكتوبر) — دراسات ومشاهدات

الطبعة الأولى ١٩٧٥ القاهرة ـ مكتبة مدبولى

الطبعة الثانية ١٩٧٥ بيروت ـ دار الطليعة

٢٦ ـ نجيب محفوظ يتذكر

الطبعة الأولى ١٩٨٠ بيروت ـ دار المسيرة

الطبعة الثانية ١٩٨٧ القاهرة ـ مؤسسة أخبار اليوم

٢٧ ـ مصطفى أمين يتذكر

١٩٨٠ القاهرة ـ مكتبة مدبولى

٢٨ ـ ملامح القاهرة فى ألف عام

الطبعة الأولى ١٩٨٣ القاهرة ـ كتاب الهلال

الطبعة الثانية ١٩٨٤ القاهرة ـ مكتبة مدبولى

العنوان	النوع / السنة	الناشر
٢٩ ـ أسبلة القاهرة		
٣٠ ـ مقامات بديع الزمان الهمذانى (تحقيق الإمام الشيخ محمد عبده)	دراسة ومراجعة	
	١٩٨٨	القاهرة ـ مؤسسة أخبار اليوم
٣١ ـ شطف النار	مجموعة قصصية	
	١٩٩٦	القاهرة ـ هيئة قصور الثقافة
٣٢ ـ مختارات أبى حيان التوحيدى		
	١٩٩٣	القاهرة ـ المجلس الأعلى للثقافة
٣٣ ـ توفيق الحكيم يتذكر		
	١٩٩٤	القاهرة ـ المجلس الأعلى للثقافة
٣٤ ـ مطربة الغروب	مجموعة قصصية	
	١٩٩٦	القاهرة ـ دار الحضارة العربية
٣٥ ـ سفر البُنيان	روايــة	
الطبعة الأولى	١٩٩٧	القاهرة ـ روايات الهلال
الطبعة الثانية	٢٠٠٨	القاهرة ـ دار الشروق
٣٦ ـ حكايات المؤسسة	روايــة	
	١٩٩٧	القاهرة ـ دار الشروق
٣٧ ـ الخطوط الفاصلة	ترجمة ذاتية	
	١٩٩٧	القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية
٣٨ ـ خلسات الكرى (دفتر التدوين الأول)		
الطبعة الأولى	١٩٩٨	القاهرة ـ دار شرقيات
الطبعة الثانية	٢٠٠٠	القاهرة ـ دار الشروق
٣٩ ـ دنا فتدلى (دفتر التدوين الثانى)		
الطبعة الأولى	١٩٩٩	القاهرة ـ دار الحضارة العربية
الطبعة الثانية	٢٠٠٣	القاهرة ـ دار الشروق
٤٠ ـ متـــون الأهــــرام	٢٠٠٢	القاهرة ـ دار الشروق
٤١ ـ حــكاية الخبيئـــــة	٢٠٠٢	القاهرة ـ دار الشروق
٤٢ ـ رشحات الحمراء (دفتر التدوين الثالث)	٢٠٠٣	القاهرة ـ دار الشروق

٤٣ ـ نوافذ النوافذ (دفتر التدوين الرابع)	٢٠٠٤ القاهرة ـ دار الهلال
٤٤ ـ نثار المحو (دفتر التدوين الخامس)	٢٠٠٥ القاهرة ـ دار الشروق
٤٥ ـ يومياتى المعلنة	٢٠٠٦ القاهرة ـ دار نهضة مصر
٤٦ ـ المجالس المحفوظية	٢٠٠٦ القاهرة ـ دار الشروق
الطبعة الثانية	٢٠٠٧ القاهرة ـ دار الشروق
٤٧ ـ يوميات الحصر	القاهرة ـ أخبار اليوم
٤٨ ـ رن (دفتر التدوين السادس)	٢٠٠٨ القاهرة ـ دار الشروق

أعمال ترجمت إلى لغات أجنبية

١ ـ الزينى بركات

الطبعة الفرنسية	Edition Du Seuil
الطبعة السويدية	Norestad & Soners
الطبعة الإنجليزية	Penguin
الطبعة الهولندية	Unieboek
الطبعة النرويجية	Ascheoug
الطبعة الألمانية	Lenos
الطبعة الروسية	رادوجا
الطبعة البولندية	الدولة

٢ ـ وقائع حارة الزعفرانى

ـ صدرت ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية، فى سلسلة الأدب المعاصر عن الهيئة العامة للكتاب فى القاهرة.

ـ صدرت باللغة الألمانية عن دار فولك ـ إندلخت.

ـ ترجمت الروايات التالية إلى عدد من اللغات:

١ ـ شطح المدينة ٢ ـ هاتف المغيب ٣ ـ متون الأهرام

٤ ـ رسالة البصائر فى المصائر ٥ ـ كتاب التجليات ٦ ـ مقاربة الأبد

ـ وترجمت عدد من قصصه القصيرة إلى الفرنسية، الإنجليزية، الإيطالية، الإسبانية، العبرية، الألمانية.

جــوائز

- جائزة الدولة التشجيعية للرواية عام ١٩٨٠
- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ١٩٨٠
- وسام الاستحقاق الفرنسى من طبقة فارس ١٩٨٧
- جائزة سلطان العويس ١٩٩٧
- جائزة لورباتايون الفرنسية ٢٠٠٥
- جائزة جرزياتا كافور ٢٠٠٦
- جائزة الدولة التقديرية ٢٠٠٧

دراســات

أعدت دراسات عن أعماله في جامعات:

القاهرة، السوربون (باريس) - بيركلى (أمريكا) محمد الخامس (الرباط) - جامعة لندن - جامعة مارتن لوثر هاله (ألمانيا الديمقراطية) - جامعة ليبزج - جامعة أرلنجن (ألمانيا الغربية). جامعة المنيا، أكاديمية الفنون، جامعة كولومبيا.

سفر البنيان سلسلة حكايات أبطالها أبنية وبناءون ولحظات حاسمة فى تاريخ مصر العمرانى أو تاريخ الغيطانى الذاتى. تتخللها ومضات قصيرة، يشرح فيها الغيطانى مصطلحات معمارية بتعبير رمزى ونفس صوفى، يرى الشىء وانعكاسه ويفتش عن المعنى ونقيضه.

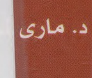
د. ناصر الرباط

تدور معظم الحكايات التى يسردها علينا الغيطانى من هذا المنطلق. وفى ظنى أن هاجس الموت ولغز العالم الأخروى ومسألة الفناء والخلاء من القضايا التى لم تلح عليه بهذه القوة وبهذا العمق اللذين لا يُعرفان فى أدبنا المصرى المعاصر إلاّ تأثرًا بتجربته المرضية التى تأرجح فيها بين عتبتى الموت والحياة، وبوابتى الوجود والعدم.

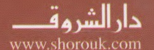
د. محمود على الكردى

تحاور الكتابة الفراغ فى سفر البنيان، مثلما تحاور العمارة الفناء، ومثلما يحاور الذكر الأنثى، والأصل المنتهى هو الفراغ، أو الفناء أو الأنثى، يفضى الحوار بين الثنائيات المتباينة إلى الاندماج، وتولد إما تكوينات أو كيانات جديدة. ومثلما يلجأ المرء إلى البناء ... من الفناء أو الفناء يحتمى الجنين فى الرحم «فالر... والمكان عاملان يربطان الأرض بالسماء. مثلما ترتب... بالذاكرة المعرفية.

د. ماري ...



6 221102 023344



دار الشروق
www.shorouk.com